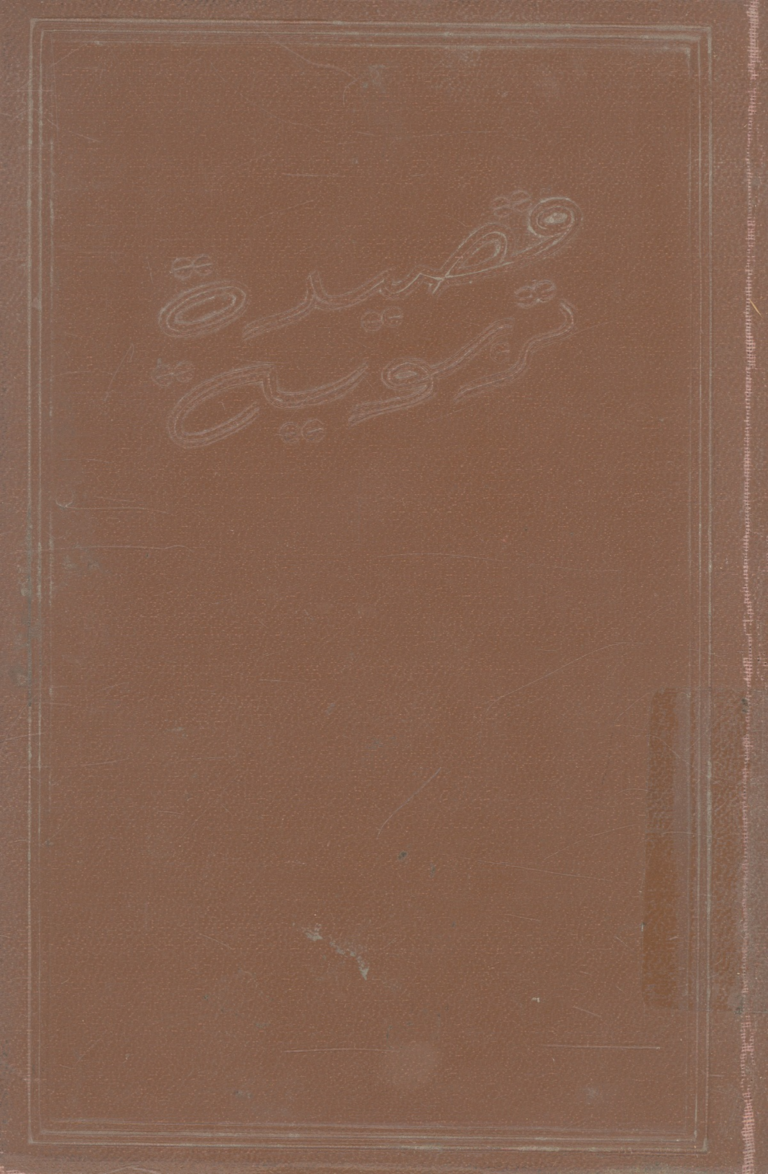


А. С. МАКАРЕНКО

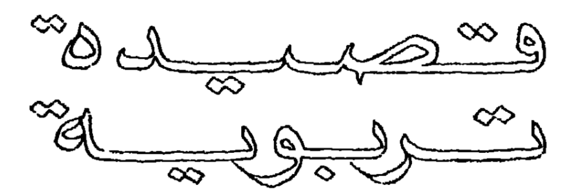
ПЕДАГОГИЧЕСКАЯ ПОЭМА

ПОВЕСТЬ
В ТРЕХ ЧАСТЯХ

ЧАСТЬ ТРЕТЬЯ

ИЗДАТЕЛЬСТВО ЛИТЕРАТУРЫ НА ИНОСТРАННЫХ ЯЗЫКАХ
Москва

انطون ماكارنكو



في ثلاثة اقسام

القسم الثالث

ترجمة كامل ناصيف

الاشراف الفني لتساريتيتش



١ـ المسامير

كان ينبغي لى ان أتوجه فى اليوم التالى الى اصلاحية كورياج لاستلامها وكان من الضرورى فى هذا اليوم أن أصنع وأن أقول شيئا فى مجلس القادة بحيث يتمكن أولاد الاصلاحية من أن يرتبوا هذه العملية الشاقة جدا بدونى: فيشدوا الرحال وينتقلوا الى هناك بالعدة والعتاد.

وفى الاصلاحية كانت المخاوف والآمال والأعصاب المستوفزة والعيون البارقة والخيل والعربات وبحر مختلط

من التفصيلات والتوصيات المنسية والحبال الضائعة — كل هذا كان يتشابك تشابكا معقدا جدا حتى إنني ما كنت لأعتقد ان اولاد الاصلاحية قادرون على تخليصه وتفكيكه.

انقضت ليلة فقط بعد استلام العقد الذى ينقل إلى حوزتنا كورياج وكانت الاصلاحية قد نجحت — بمعنوياتها ومشاعرها ووتائرها — فى ان تضع نفسها على أهبة الرحيل. وما كان الاولاد ليخافوا من كورياج وربما كان ذلك لأنهم لم يروها بكل روعتها. وظلت كورياج رؤيا حالمة لا تغرب من خاطرى كأنها ميت خرافى رهيب يقدر أن يمسك بخناقى بشدة على الرغم من موته الملحوظ رسيما منذ أمد بعيد.

وقد قرر مجلس القادة بأنه لن يذهب معى الى كورياج سوى تسعة أولاد ومربٍ واحد. طلبت أكثر وبينت بأنه بقوى ضئيلة كهذه لن نصنع شيئا وإلا فسوف نقوض هيبة اصلاحية غوركى إذ ان جهاز كورياج الادارى قد سرح؛ وكثيرا ممن هناك كان قد وقف ضدنا.

فرد على كودلاتى بابتسامة لطيفة ساخرة:

ـ فى الواقع إذا ذهبت مع عشرة أو عشرين فالأمر سواء كذلك؛ فلن تصنع شيئا. ولكن عندما سيصل الجميع فحين ذاك سيكون الامر شيئا آخر، فسوف نتغلب عليهم بالعدد. ولا بد لك من أن تأخذ بعين الاعتبار انهم ثلاثمئة. فيجب ان نستعد بشكل جيد. وعليك أن تحاول أن تنقل فقط ثلاثمئة وعشرين خنزيرا. وزيادة على ذلك لا بد لك من ان تنتظر هل أنهم تلقوا ضربة على رأسهم فى خاركوف أو أن هذا جرى عمدا: فيأتينا كل يوم أولاد جدد.

كان الجدد يسببون لى هما ثقيلا أيضا. فعند انحلال جماعتنا بهم؛ كانوا يعوقون الحفاظ على اصلاحية غوركى بكل نقائها وكل قوتها. وهكذا كان يجب علينا بكتيبتنا الصغيرة أن نتخبط وسط جماعة يبلغ عدد افرادها ثلاثمئة.

ولدى استعدادى للصراع مع كورياج كنت أعتمد على ضربة صاعقة واحدة؛ وكان لا بد من أخذ هؤلاء

الناس بهجمة واحدة. أما أن نجرى مع الزمن ونأمل التطور و«التغلغل التدريجى» فقد يقلب كل عمليتنا شر منقلب. كنت أعرف كل المعرفة بأن ما «سوف يتغلغل تدريجياً» ليس أشكالنا وتقاليدنا ونهجنا فقط بل تقاليد كورياج الفوضوية أيضا. إن حكماء خاركوف الذين كانوا يصرون على «التغلغل التدريجى»، كانوا فى الحقيقة يستندون الى الدعائم القديمة من الصنع البدائى؛ وهى أن الصغار الصالحين سيحدثون تأثيراً صالحا فى الفاسدين. وقد كنت أعرف سلفاً أنه فى جماعة ذات اشكال منظمة غير دقيقة، فإن الأطفال النخبة سوف يتحولون بأيسر ما يكون الى وحوش صغيرة ضارية. ولم أدخل فى جدال مكشوف مع «الحكماء» حاسبا حسابا دقيقا أن الضربة الحاسمة سوف تقع قبل ان يبدأ الصخب التدريجى يتفجر. ولكن الجدد كانوا يضايقوننى. فقد كان كودلاتى الذكى يدرك أنه لا بد من إعدادهم للانتقال الى كورياج بعناية مثلما يقتضينا نقل جميع أرزاقنا المنقولة.

ولهذا عندما ذهبت الى كورياج على رأس «الكتيبة

المختلطة الطليعية» لم يكن فى وسعى أن أمنع نفسى من النظر الى الوراء بقلق شديد. وعلى الرغم من ان كالينا ايفانوفيتش وعد بادارة املاك الاصلاحية حتى آخر لحظة؛ فإنه كان مرهقا جدا وطائش الرشد بالافتراق المقبل حتى إنه لم يكن قادرا إلا على التجول وسط الاولاد وهو يذكر بمشقة بعض تفاصيل الاشياء المنزلية حتى ينساها على الفور. لقد كان قلبه فريسة اذى مرير. كان الاولاد يستمعون بمراعاة لطيفة أوامر كالينا ايفانوفيتش، تلك الأوامر التى كان يردون عليها بالتحية وبعبارة «سمعا وطاعة» بخفة، ولكنهم كانوا ما إن يعودون الى مراكز أعمالهم حتى ينفضون عنهم شعور الشفقة تجاه العجوز ليبدأوا بالانشغال بمتاعبهم وهمومهم الخاصة بهم.

تركت على رأس الاصلاحية كوفال الذى كان يخشى اكثر من كل شيء أن «تغبنه» كومونة لوناتشارسكى (١) التى كانت تستعيد منا المنشآت والحقول المزروعة والطاحون. كان ممثلو المشاعة يدسون أنفهم بين أجزاء جهاز الاصلاحية، وكانت لحية الرئيس نيستيرنكو الشقراء ترقب

كوفال بتوجس منذ أمد بعيد. وكانت اوليا فورونوفا لا تحب المنازعات الدبلوماسية بين هذين الشخصين فكانت تسعى لأن تقنع نيستيرنكو:

— عد يا نيستيرنكو الى بيتك. مم تخاف؟ ما من محتال هنا! عد أقول لك!

وابتسم نيستيرنكو بعينيه فقط ابتسامة ماكرة وأشار برأسه الى كوفال وهو محمر حانق:

— أتعرفين يا صغيرتي أوليا هذا الرجل؟ انه كولاك؛ وإن هذا يجري في عروقه...

وكان كوفال أكثر اضطرابا واحتدادا فكان يتفوه بجهد ولكن باصرار:

— وماذا تعتقد؟ جميع العمل الذى وضعه الأولاد هناك أسلمك إياه دون مقابل؟ لماذا هذا؟ لأنك رئيس كومونة لوناتشارسكى؟ إنك مملوء الكرش ثم تمثل دور الفلاح الفقير البائس!.. ادفع!

— ولكن فكر انت: بأى شيء سأدفع؟

— ولماذا أفكر فيه؟ بأى شيء فكرت أنت عندما

سألتك: هل نبذر؟ انك اتخذت مظهر السيد آنذاك قائلا: ابذروا! حسنا هيا ادفع ثمن القمح والجودار والشمندر...

كان نيستيرنكو مائل الرأس جانبا فحل كيس تبغه وبحث فى قعره بعناية ثم ابتسم ابتسامة مذنبة:

ـ هذا حق، هذا صحيح! نعم طبعا.... البذار... ولكن لماذا تطلب ثمن العمل؟.. ان الاولاد يستطيعون ان يعملوا ـ كما يقال ـ من اجل الجماعة...

ويقوم كوفال مغتاظا ناهضا من الكرسى ويمضى الى الباب ثم يلتفت عند الباب وهو يغلى من الحنق و الغيظ:

ـ بأى سبب يا عصابة الطفيليين الملاعين؟ ماذا أنتم؟ مرضى؟ تسمون أفرادا فى المشاعة ثم تفتحون أشداقكم بملئها على كد الاطفال وعملهم... ان لم تدفعوا فسوف أترك كل شيء الى أفراد غونتشاروفكا.

وطردت أوليا فورونوفا نيستيرنكو الى بيته، وبعد ربع ساعة أخذت تتهامس فى البستان مع كوفال جامعة فى ذاتها بموهبة نسائية محضة بين مشاعر العطف المتناقضة

بالنسبة الى الاصلاحية والكومونة. ان الاصلاحية بالنسبة الى أوليا أمها الحقيقية ولكنها في الكومونة تأمر على المكشوف مسيطرة على الرجال بخبرتها الزراعية التي ورثتها عن شيرى، مجتذبة النسوة بالاصرار اللاذع من وعظها لتحرير المرأة ومستعملة في المناسبات والحالات الصعبة طليعة الصدام المؤلفة من عشرين ولدا وبنتا يتبعونها كأنها عذراء أورليان. كانت أوليا تخضع الناس بثقافتها ونشاطها وايمانها الباسل وكان كوفال وهو ينظر إليها يتباهى بها بعبارة موجزة قائلا:

— من صنعنا!

كانت أوليا فخورة بالهدية السخية التي تركتها اصلاحية غوركي الى كومونة لوناتشارسكي بشكل منطقة أعيد تنظيمها بدورات زراعية سداسية ولكن هذه الهدية كانت بالنسبة إلينا كارثة اقتصادية. فما كانت أهمية العمل المعهود به في الماضي تبدو محسوسة بقدر ما في الزراعة. كنا نعرف حق المعرفة ما يكلف قلع الاعشاب الضارة وتنظيم الدورات الزراعية، واصلاح وتسوية كل

جزء؛ والحفاظ على نظافة كل عنصر صغير للتطور البطيء غير المرئي والطويل. كانت ثروتنا الحقة تكمن فى الأعماق لدى جذور النباتات المتشابكة وفى أقسام الزرائب القابلة للإيواء، والتى تنتسب فلسفيا إلى قلب هذه الدواليب البسيطة جدا وفى عصى العربات لكدن الاحصنة فى الاجنحة وعجلات القيادة. ففى ذلك الحين كان يجب علينا أن نتخلى عن كثير من هذه الأشياء الضرورية وانتزاع كثير منها من السياق العام لتكويمها فى الفسحة الضيقة لعربات السكة الحديدية الحارة جدا؛ وقد أخذنا ندرك لماذا اتخذ وجه شيرى هذا اللون المخضر المليء بالحزن ولماذا ظهر فى سلوكه شيء كأنه فُجع بالحريق.

ومع ذلك ما كان هذا الحزن يمنع إدوار نيقولايفيتش من أن يهيء بهدوء منهجى كنوزه للسفر فمضيت إلى خاركوف مع كتيبة الطليعة المختلطة وأنا أتحاشى رؤية ظله المحطم دون ان تنزعج نفسى. كان الاولاد حولنا يدورون بابتهاج بالغ وشاغل كأنهم الجن.

كانت أسعد ساعات حياتي تنتهي والآن صرت في بعض الأحيان أتحسر باكتئاب على أنني لم أنتبه انتباها ورعا وخاصا لذاك الوقت وأنني لم أرغم نفسي على النظر بأم عيني الى تلك الحياة الجميلة، نظرة تأمل وانني لم أحفظ بذكرى خالدة الاضواء والخطوط والألوان لكل لحظة ولكل حركة ولكل كلمة.

كان يبدو لي آنذاك ان أولادنا المئة والعشرين لا يمثلون مئة وعشرين طفلا مشردا قد وجدوا مأوى وعملا وحسب. كلا، لقد كانوا مئة وعشرين من التوترات الخلقية، مئة وعشرين من الطاقات المتوافقة توافقا منسجما، مئة وعشرين من الأمطار الخيّرة التي كانت الطبيعة نفسها، هذه الأم المليئة بالاعتزاز بالأهواء الغريبة تنتظرها بفرح نافد الصبر.

كان من الصعب في هذه الأيام ان يلقى المرء ولدا يمشي بخطى وئيدة. فقد كانوا قد تعودوا على الركض أو الطيران من مكان لأخر كأنهم السنونو بنفس الزقزقة وبنفس النظام الدقيق الجميل وبنفس جمال الحركة. وقد كنت

انغسمت فى الخطيئة لحظة حتى فكرت : الناس السعداء لا حاجة لهم الى أى سلطة لأنه سوف تقوم محلها هذه الغريزة الانسانية المرحة والجديدة والتى سوف تجعل كل امرىء يعرف بالضبط ما ينبغى له ان يفعله ولأى غرض يفعله.

كانت تعرض أمثال هذه اللحظات، ولكننى كنت أجد نفسى أنحدر بسرعة من تلك الأعالى الفوضوية بنداءات من شخص مثل إليوشا فولكوف وهو يدير بامتعاض وجهه المرقش صوب مكان الاضطراب:

ـــ ماذا تفعل أيها الأبله! اى مسامير تستعمل لتسمر هذا الصندوق؟ لعل تحسب أن المسامير من قياس ثلاث بوصات مطروحة كثيرا على قارعة الطريق؟

واذ ذاك ينزل الولد النشيط ذو الوجه المتورد، مطرقته ويحك بها كعبه الحافى بارتباك قائلا:

ـــ آه! مسامير من كم من البوصات تلزم؟

ـــ من أجل هذا توجد المسامير العتيقة المستعملة. انتظر !ومن أين أخذت هذه المسامير بثلاث بوصات؟

وهكذا يبدأ هذا! كان فولكوف عاكفا على نفس هذا الولد يحلل بحنق الكائن الذى وجد نفسه على غير موعد متناقضا مع فكرة المسامير الجديدة ذات ثلاث بوصات.

نعم! ما يزال يوجد فى هذه الدنيا مآس!

قليل من الناس يعرفون ماذا تعنى المسامير المستعملة!

يجب قلعها بواسطة جميع أنواع الادوات المعقدة من ألواح الخشب العتيقة والاشياء المحطمة والميتة فتخرج منها مسامير معوجة صدئة ذات رؤوس مشوهة لا تصلح للاستعمال، فأحيانا مثنية ثنيتين او ثلاثا او معوجة اعوجاجا حلزونيا او معقودة عقدة بشكل تبدو فيه ان أمهر صانع للأقفال لن يتوصل إلى جعلها هكذا. كان لا بد من تسويتها بالمطرقة على قطعة من الحديد جالسا قرفصاء؛ ولم يكن من النادر ان تهوى المطرقة على الأصابع لا المسامير. وحينما كانت تدق المسامير العتيقة فى شيء جديد فإنها كانت تتعوج وتنكسر وتدخل فى غير مكانها. لعله لهذا السبب كان اولاد اصلاحية غوركى يكرهون

كرها شديدا المسامير العتيقة و يعمدون الى المسامير الجديدة من طرق مريبة للحصول عليها فيفتحون السبيل إلى تحقيقات قضائية و يشوهون سمعة قضية حملتنا على كوريا ج، تلك القضية الكبيرة المشرقة.

ولكن هل المسامير فقط؟ جميع هذه الطاولات غير المدهونة وهذه المقاعد المختلفة ذات الطابع البورجوازى الصغير والدكاك الطويلة الغليظة وهذه الآلاف المؤلفة من المقاعد من كل نوع ، ومن الدواليب العتيقة ومن قوالب الأحذية ومن الصواقل الخشبية ، ومن الكتب الممزقة ؛ كل هذا المستودع لحياة بيتية شحيحة وللتدبير المنزلى كان يسود صفحة حملتنا الباسلة... بيد أنه كان من الخسارة هجرانها!

والأولاد الجدد! إنهم كالقذى فى عينى عندما كانت نظراتى تقع على خيالاتهم الغريبة الشوهاء. أنتركهم هنا؟ أم ندسهم فى بعض بيوت الأطفال الفقيرة فنرشوها بزوج من الخنانيص او بحوالى عشرة كيلوغرامات من البطاطا؟ شرعت أراجع قوائمهم وأوزعهم فرقا وأصنفهم

من وجهة نظر القيمة الانسانية والاجتماعية. كانت عينى قد تمرنت تمرنا كافيا فى ذلك الحين لأحسن الفراسة من أول نظرة ومن العلائم الخارجية ومن فوارق التعبير الدقيقة ومن الصوت والمشية ومن الخطوط اللامتناهية الاخرى للشخصية ايضا ومن الرائحة كذلك ان احزر بدقة نسبية ماذا ينتج فى كل حالة خاصة من هذه المادة الأولية.

اوليغ اوغنيف مثلا. هل يستحق المشقة فى ان يؤخذ الى كورياج؟ لا، من المستحيل ان يترك هذا. لقد كان عينة نادرة هامة. فقد كان اوغنيف أفاقا مغامرا؛ رحالة وولدا وقحا. وقد كان حسب كل احتمال ينحدر من سلالة النورمان القدماء الذين لهم قامة فارعة وشعر أشقر. ولعله كان بينه وبين أجداده الفارياغيين قد ظهر بعض الذرارى من المثقفين الروس الطيبين لأنه كان ذا جبهة عريضة ونقية وفم ذكى يمتد بين الأذن والأذن الأخرى ويعيش باتفاق وثيق مع العينين النشيطتين الرماديتين. كان اوليغ قد القى القبض عليه فى قضية الحوالات البريدية؛ وهذا ما جعله يستحق ان يزج فى الاصلاحية

يخفره اثنان من افراد الميليشيا. كان أوليغ اوغنيف يمشى بينهما مشية خفيفة بطيبة خاطر وعينه مفتوحة بفضول تتطلع الى مستقبله المبهم، استلمنا أوليغ من حارسيه؛ فاستمع الى توصياتى الأولى باهتمام مهذب جاد. وتعرف تعرفا وديا على أولاد الاصلاحية القدماء وتأمل الاولاد الصغار بدهشة وفرحة ثم وقف وسط الباحة وفتح ساقيه وطفق يضحك:

ـ أ هذه هى الاصلاحية إذن؟ اصلاحية مكسيم غوركى؟ آه قل اذن! يجب ان اجرب...

ووضع فى الكتيبة الثامنة، فغمز فيدورنكو بعينه تجاهه باحتراس قائلا:

ـ من الممكن انك للعمل... إنك تبدو لى... لست متحمسا كثيرا... ماذا... ثم لك الجاكيت لا يلائم كثيرا... تعرف...

تفحص اوليغ مبتسما جاكيته الضيق الذى كان يرفع اطرافه من حين الى آخر بشكل متواتر وينظر نظرة المرح الى قائده:

ــ لا بأس ايها الرفيق القائد. الجاكيت لا يضايق. واذا اردت اعطيتك إياه.

فانفجر فيدورنكو ضاحكا ومعه افراد الكتيبة الثامنة.

ــ حسنا، هاته لأراه كيف يكون؟

تجول فيدورنكو حتى المساء بجاكيت اوليغ الضيق القصير وهو يضحك الاولاد بأناقة لا عهد لهم بها ولكنه فى المساء اعاده الى صاحبه قائلا بقسوة:

ــ خبئ هذا والبس كنزة بدون اكمام. غدا سوف تمشى وراء آلة البذار.

تأمل اوليغ بدهشة قائده والقى نظرة ساخرة على جاكيته:

ــ ان هذا الجاكيت لا يليق هنا؟

وفى الصباح كان يرتدى كنزة ويغمغم بسخرية مع نفسه:

ــ بروليتارى! وسوف امشى وراء آلة البذار... هذه مهنة جديدة حقا.

وفى هذه المهنة الجديدة لم يسر شئ كما يتمنى اوليغ. ولا ادرى لماذا لم تتفق آلة البذار معه. كان يمشى

حزينا وراءها وهو يظلع على التلال ويثب على رجل واحدة من حين الى آخر وهو يبذل جهدا لا مهارة فيه ليخرج شوكة من رجله. ولم يكن ليقدر على ان يدير اظافر آلة البذار، فكان يصيح كل ثلاث دقائق بالولد الذى يتقدمه:

– يا سنيورا! اقف دوابك فقد حدث هنا شيء!..

وغير فيدورنكو عمله وأوكل اليه امر قيادة الزوج الثانى مع المسلفة، بيد انه بعد نصف ساعة لحق اوليغ بفيدورنكو ووجه اليه بأدب هذا الرجاء:

– ايها الرفيق القائد، أتعرف ماذا حدث؟ لقد قعد!

– منذا الذى قعد؟

– جوادى. اسمع إذن: لقد قعد كما ترى ولم يعد يتحرك. تكلم معه من فضلك.

وسارع فيدورنكو الى مارى وهى قاعدة على الارض وقال محتدا:

– يا شيطان!.. ولكن كيف وجدت السبيل الى هذا؟! لقد عقدت كل شيء! ماذا جاء هذا الجرار يفعل هنا؟

حاول اوليغ بنية طيبة ان يهدئ من هذا الانفعال المهني:

ـ لعلك تعرف، هناك نوع من الذباب يطير او ماذا؟.. لقد قعدت هكذا ولم تعد تتحرك، بينما يجب العمل. أليس صحيحا؟

كانت الفرس ماري تنظر شزرا الى اوليغ من خلال طوقها الذي وصل الى اذنيها؛ واحتد فيدورنكو كذلك:

ـ جالسة... كيف تستطيع فرس ان تجلس؟ انهضها!

امسك اوليغ بالرسن وصاح في ماري:

ـ دا!

فأنشأ فيدورنكو يضحك وقال:

ـ لماذا تصيح «دا» أأنت عربجي؟

ـ لعلك ترى ايها الرفيق القائد...

ـ ولماذا تناديني: ايها الرفيق القائد؟..

ـ فكيف اذن؟

ـ كيف... أ ليس لي اسم؟

ـ آه، نعم!.. لا، ايها الرفيق فيدورنكو، فكما

ترى لست عربجيا طبعا ولكن صدقني ان هذه اول مرة اتعرف على ماري عن كثب . كانت لديّ رفيقات يدعين ماري ايضا؛ ولكن أولاء شيء آخر؛ لأنك تعلم... وهنا هذه «الجرارات» و «الاطواق»...

كانت عينا فيدورنكو الهادئتان المليئتان بالقوة ترميان نظرات شزرا، على شكل اوليغ الرث المتأنق ثم بصق:

— حسبك ان تحرك لسانك، راقب دوابك!

وفي المساء مد فيدورنكو ذراعيه وقال حكمه دونما عجلة:

— لاى شيء يصلح؟ لاكل البسكويت ومعاكسة الفتيات... إنني اقدر انه لم يخلق لنا هذا الولد. واقول ايضا: يجب ان لا يؤخذ الى كورياج.

نظر اليّ قائد الكتيبة الثامنة نظرة الجد والاهتمام منتظرا تأييد قراره. وقد فهمت ان الحكم صادر عن الكتيبة الثامنة بأسرها التي تميزت بحزم إعتقاداتها وطلباتها من الناس. ولكنني اجبت فيدورنكو:

— سنأخذ اوليغ الى كورياج. وهناك سوف تشرح

للكتيبة أنه يجب ان يجعل منه شغيلا. واذا لم تجعلوا انتم فما من امرئ سوف يجعله، وأن أوليغ سوف يصبح عدوا للسلطة السوفييتية، شقيا. أفهمت؟

فقال فيدورنكو: — نعم، فهمت.

— إذن قل هذا للكتيبة.

— حسنا، يجب ان يقال هذا لهم، — قال هذا فيدورنكو باستعداد، ولكن يده ارتفعت بنفس الاستعداد الى ذاك المكان المخصص حيث تكمن عندنا نحن السلافيين الاسئلة السيئة.

وهكذا سيرحل أوليغ أوغنيف. ولكن أوجيكوف؟ اجبت اجابة قاطعة وباحتداد: أركادى أوجيكوف ينبغى أن لا يأتى وبصورة عامة فليذهب الى جهنم! وفى كل صناعة اخرى، إذا عهد الى احد مادة أولية غير صالحة فإنه سيشكل عشرات اللجان ويحرر عشرات المحاضر وسوف يعمل على تدخل ممثلى مفوضية الشعب للشؤون الداخلية وجميع المراقبين الممكنين وسوف يتوجه فى نهاية الامر الى جريدة «البرافدا» وسوف ينتهى الامر

مع ذلك بأن يعثر على المجرم. ما من احد يرغمك على صنع قاطرات من سطول عتيقة ولا كونسروا من قشر البطاطا. وأنا لا ينبغي لى أن أصنع قاطرات ولا كونسروا ولكن ينبغى لى أن اصنع الانسان السوفييتى الصحيح. ممن؟ من أركادى أوجيكوف؟

منذ حداثة سن أركادى أوجيكوف كان يتسكع على الطرقات وجميع عربات التاريخ والجغرافيا مرت عليه بدواليبها المطوقة بالحديد. ولم يلبث والده ان هجر عائلته. وقد ازدان بيته بوالد جديد يلعب دورا ما فى حكومة دينيكين. ومع هذه الحكومة قرر والد أركادى الجديد مع جميع افراده ان يغادروا البلاد الى الخارج. وقد عينت لهم نزوة القدر مكانا لا يليق بهم كثيرا وهو القدس. وفى هذه المدينة فقد أركادى أوجيكوف كل نوع من الاباء، فقد ماتوا لا من المرض بقدر ما هو من عقوق الناس فبقى فيها فى صحبة غير معهودة من العرب وغيرهم من الاقليات القومية. ومع مرور الزمن غير الأب الحقيقى وضعه تجاه ذريته بعد ما نجح فى غضون ذلك فى ان

يكتنه سر السياسة الاقتصادية الجديدة واصبح لذلك عضوا في كومبينة ما. ووجد ابنه المسكين وعرف جيدا كيف يستفيد من الوضع العالمي فابحر أركادى على باخرة برفقة دليل حتى وصل ميناء اوديسا فوقع بين يدى والده. ولكن لم يكد شهران ينقضيان حتى ارتاع الوالد من بعض النتائج الصارخة للتربية الاجنبية لإبنه. كان أركادى يجمع بتوفيق اتساع الافق الروسى والخيال العربى. ففى كل حال نهب أوجيكوف الاب نهبا تاما. ولم يقتصر أركادى على ان يبيع فى السوق حلى اهله: الساعات والمعالق وحوامل الكؤوس الفضية، وإنما قد باع البدلات والثياب و بعض المفروشات بل استعمل بمهارة دفتر الشيكات لوالده مزورا بتوقيعه توقيعا مشابها كل الشبه لتوقيع والده الموشى.

ان الايدى القوية نفسها التى كانت منذ وقت قليل قد استطاعت ان تنتزع أركادى من وسط القدس عادت مرة ثانية الى عملها. ففى معمعان استعداداتنا النشيطة أخذ أوجيكوف الاب مكانه امامى على الكرسى وهو رجل ذو

مسحة اوروبية وهيئة رصينة خاصة بممثل الشركة الكبرى.
وعندما عرض بالتفصيل حياة أركادى استنتج باضطراب
لا سبيل الى تبينه فى صوته قائلا:

ــ انت وحدك تستطيع ان تعيد الى ابنى.

نظرت الى الولد وهو جالس على الاريكة، فأثار إشمئزازى بشكل قوى حتى رغبت ان أرده الى والده على الفور ولكن الوالد علاوة على ابنه كان يجلب اوراقا ولم أكن لأقوى على مناقشة الاوراق. فبقى أركادى فى الاصلاحية.

كان طويل القامة، نحيفا، ذا بنية ضعيفة. كانت تبرز من طرفى رأسه الاحمر الساطع أذنان كبيرتان ورديتان وشفافتان، وكان وجهه بدون حواجب مبقعا ببقع كبيرة ينخفض الى اسفل لأن أنفه الثقيل والمنتفخ كان يطغى على كل ملامح وجهه. كان أركادى يديم النظر شزرا. وكانت عيناه الخابيتان والملوثتان بمخط اصفر تثيران تقززا شديدا زد على ذلك فمه الذى يسيل منه اللعاب ولا ينغلق ابدا ثم هيئته المتجهمة والجامدة دائما.

كنت اعرف ان الاولاد سوف يضربونه فى الزوايا المظلمة ويفشكلونه لدى المرور، وأنهم لن يقبلوا أن يناموا فى الحجرة نفسها ولا يأكلوا على الطاولة نفسها وأنهم سيكرهونه كرها انسانيا صحيحا؛ وما كنت اخنق ذلك الكره فى نفسى الا بمساعدة جهودى كالمربى.

ابتدأ أوجيكوف منذ اليوم الأول بسرقته رفقائه والتبول فى سريره. فجاء ميتيا جيفيلى ليقابلنى وسألنى جادا وهو يقطب حاجبيه الاسودين:

– يا انطون سيميونوفيتش، قل لى قولا جادا: لاى شيء يُنقل مثل هذا الولد؟ انظر: من القدس حتى أوديسا، ومن أوديسا الى خاركوف ومن خاركوف الى هنا وبعدئذ الى كورياج؟ ماذا يفيد؟ ألا توجد بضاعة أخرى لنقلها؟ قل...

والتزمت الصمت، وانتظر ميتيا بصبر جوابى وهو عاقد حاجبيه صوب لابوت الذى كان يبتسم. ثم اردف قائلا:

ـ لم أجد له مثيلا قط. يجب أن يعطى... ستريكنين أو أن يعمل له طابة من الخبز محشوة بالدبابيس وتلقى له.

فضحك لابوت:

ـ لن يأخذها!

ـ من؟ أوجيكوف لن يأخذها؟ جرب لترى بأم عينك، سوف يبتلعها... أتدرى كم هو نهم! وكيف يأكل! أوه، لا سبيل الى التفكير بذلك. لا يمكننى!..

كان ميتيا يرتجف من الاشمئزاز وكان لابوت ينظر اليه ووجنتاه قد ارتفعتا الى عينيه بشكل أليم. كنت انا بشكل سرى من طرفهم وفكرت: «نعم، ولكن ما العمل؟.. لقد جاء أوجيكوف بمثل تلك الاوراق...»

ظل الاولاد ساهمين على المقعد الخشبى. ونظر عبر باب المكتب وجه فاسيا اليكسييف الباسم وسرعان ما التهب ميتيا بالفرحة:

ـ من هؤلاء، ولو مئة.. يا فاسيا تعال الى هنا.

احمر وجه فاسيا وقدم الى ميتيا القربان الخجل من ابتسامة حية ومن عينيه اللطيفتين الصغيرتين ذات النظرة

المتيمة؛ وأنحنى على ركبة ميتيا وأبدى فجأة عواطفه بشكل من المستحيل تعبيره بنصف زفرة ونصف انتحابة ونصف ضحكة:

— همّ ...

جاء فاسيا آليكسييف الى الاصلاحية بمبادرة منه وتقدم اليها مذعورا ومرتاعا من حياة الزعران. وقد دخلها ومجلس القادة مجتمع فى امسية ممطرة عاصفة. كانت الظروف الجوية غير حسنة بتاتا وعلى ما يبدو لو لم يكن كذلك فإنه فى جو صاح جميل ما كان ليستطيع دخول الاصلاحية. ولكن حينذاك جاء به قائد كتيبة الحراسة المختلطة الى المكتب وسأل:

— اين يجب أن ندس هذا؟ لقد وقف عند المدخل يبكى؛ والمطر ينهمر فى الخارج...

قطع القادة جدالهم لينظروا الى القادم الجديد. وبجميع وسائل مظهره: أكمامه واصابعه ويديه واطراف جاكيته وقبعته طمس على الفور تعبير حزنه وهو يطرف بعينيه المبللتين صوب فانيا لابوت الذى وجد فيه منذ

اول نظرة شخص القائد. كان ذا وجه حسن وخدين احمرين، وكانت رجلاه تنتعلان جزمة قروية حسنة، ولم يكن سوى جاكيته الضيق الذى لا يتناسب مع مظهره العام. كان عمره ثلاثة عشر عاما.

سأله لابوت بصرامة: — ماذا تريد؟

فأجابه الولد جادا : — أريد ان ادخل الاصلاحية.

— ولماذا؟

— تركنا ابونا وامنا قالت : إذهب حيث تشاء...

— كيف كان هذا؟ إن الأم لا تقول مثل هذا القول ابدا.

— إنها ليست أمى الحقيقية...

ولم يلبث لابوت مضطربا إلا لحظة بهذا الحادث الجديد.

— انتظر ... كيف هذا؟ نعم، ليست امك. إذن ينبغى أن يأخذك والدك. إنه مجبر؛ أفهمت؟

وترقرقت فى عينى الصغير دموع مريرة حاول أن يكفكفها وهو يريد أن يتكلم. وقد ابتسمت عيون القادة

عند رؤية الصورة الاصيلة للولد الطالب. فقال هذا أخيرا مصدرا تنهدا غير ارادى:

ـ هو كذلك... ليس والدى.

وساد الصمت لحظة فى المجلس ثم طفق يضحك ضحكا شديدا فجأة، وكان لابوت نفسه يكاد الدمع يهمى من عينيه من شدة الضحك:

ـ نعم، أيها الأخ. ها أنت فى مأزق لا تحسد عليه. ولكن كيف كان هذا؟

وحكى هذا الولد ببساطة ودون تكلف أو أن يحول بصره عن وجه لابوت المستبشر، بأنه يدعى فاسيا وأن اسم اسرته آليكسييف. إن والده الذى كان حوذيا هجر البيت الى مكان ما. أما أمه فقد تزوجت مرة ثانية من خياط. ثم أخذت أمه تسعل وماتت فى السنة الماضية. وبعدها تزوج الخياط إمرأة أخرى. وفى الوقت الحاضر تماما فى عيد الفصح ذهب الى كونغراد وكتب من هناك بأنه لن يعود. وكتب: «عيشوا كما تشاءون».

قال كودلاتى : — يجب أن نأخذه، ولكن فى الحقيقة قد يكون ما حكيته تلفيقات وأكاذيب؟ كيف؟ من لقنك؟

— من لقننى ذلك؟.. هناك... احد الاشخاص هناك قال لى: يوجد اولاد يعيشون هنا ويبذرون القمح.

وبهذه الطريقة قبل فاسيا آليكسييف فى الاصلاحية. وسرعان ما حبب نفسه للجميع. وإن مسألة المعرفة فيما إذا كان فى الامكان نقل فاسيا الى كورياج لم تطرح حتى فى خلواتنا. ولما كان فاسيا قد قبله مجلس القادة ففى وسعه بالنتيجة أن يعتبر بملء الحق «اصيلا».

وبين الاولاد الجدد كان أيضا مارك شينهوس وفيرا بيريزوفسكايا.

كان مارك شينهوس قد أرسل من قبل لجنة شؤون الاحداث الجانحين من أوديسا بجريمة السرقة كما كان مشارا الى ذلك فى وثيقة الارسال. كان قد جاء بصحبة احد رجال الميليشيا، ولكن ما إن ألقيت نظرة عليه حتى ادركت أن اللجنة مخدوعة مخطئة: من يكن عنده

هاتان العينان لا يمكن أن يسرق. لا استطيع ان أصف عينيه. امثال هاتين العينين قلما يلقى المرء منهما فى الحياة؛ اللهم إلا لدى الرسامين امثال نيستيروف وكولباخ ورفائيل، إنهما لسمات وجوه القديسين فقط والعذارى على وجه التفضيل. كان من المستيحل تقريبا أن يفهم المرء كيف وجدتا فى وجه يهودى فقير من أوديسا. لقد كان مارك شينهوس فقيرا حسب كل مظهر جسمه النحيل كولد فى السادسة عشرة ولم يكن مستورا تقريبا؛ وله حذاء عتيق ممزق فى قدميه، ولكن وجهه كان صافيا مغسولا جيدا ورأسه المجعد ممشوطا. كانت اهدابه كثة كثيفة حتى إنها حين كانت ترف تبدو تتحرك كالمروحة. سألته:

– كتب هنا أنك سرقت. أهذا صحيح؟

وانبعث من عينى مارك فجأة حزن قاتم طاهر كأنه سيل يتدفق ويشعر به المرء. ورفت أهدابه بصعوبة واطرق وجهه المتألم شاحبا نحيلا:

– هذا صحيح طبعا... نعم، سرقت...

ـ من الجوع؟

ـ لا، لا يمكن القول أنه من اجل هذا. لقد سرقت لا لأننى كنت جائعا.

كان مارك ينظر إلىّ بنفس النظرة السابقة رصينة وحزينة، وادعة ونابهة.

وانتابنى الخزى من ان اضع موضع الاستجواب هذا الطفل المتعب المكتئب. فحاولت أن أضيف وداعة الى بسمتى وقلت له:

ـ لا أود ان اذكرك هذه الأمور. لقد سرقت، طيب، لقد سرقت. كل نفس تزر وزرها. يجب أن ننساها... هل كنت فى مدرسة من المدارس؟

ـ نعم، لقد درست؛ وانهيت خمسة صفوف وأود أن اواصل الدراسة.

ـ طيب. ستكون فى الكتيبة الرابعة التابعة لتارانتز. إذهب بهذه الورقة لتجد قائد الكتيبة الرابعة. سوف يدبر تارانتز كل شيء.

أخذ مارك الورقة ولكنه بدلا من أن يتوجه صوب الباب وقف مترددا حائرا امام الطاولة:

ـ أيها الرفيق المدير، أود ان اقول لك شيئا، يجب ان أقوله لك لأننى لدى وصولى الى هنا فكرت طيلة الوقت كيف سأقوله لك، فلم اعد اطيق صبرا...

إبتسم مارك إبتسامة حزينة ورمقنى بنظرة ضارعة.

ـ ما هذا؟ تكلم من فضلك...

ـ لقد سبق ان كنت فى اصلاحية، ولا يسعنى القول أن الوضع هناك كان سيئا. ولكن كنت أشعر اى مزاج سيكون لى. إن جنود دينيكين قد قتلوا والدى وأنا من الشبيبة الشيوعية ولكن لى مزاج اصبح ناعما كل النعومة. أنا أعرف أن ذلك سىء كل السوء. ينبغى أن يكون لى مزاج بلشفى. هذا الأمر أخذ يعذبنى عذابا ممضا. قل لى ألن تعيدنى الى أوديسا إذا قلت الحقيقة؟

نظر مارك الى وجهى بعينيه المتلألئتين كان يتبين فيهما الارتياب.

– مهما كانت الحقيقة التى تقولها لى فلن أعيدك إلى أى مكان.

– أشكرك أيها الرفيق المدير، شكرا جزيلا! لقد اعتقدت جيدا بأن هذا ما سوف تقوله، ولهذا قررت. لقد اعتقدته لأننى قرأت مقالا فى جريدة «فيستى» بعنوان: «حيث يصنع الانسان الجديد». فكان يتحدث عن اصلاحيتك. ورأيت عندئذ الى أين ينبغى لى أن أذهب وشعرت اطلب. ولكننى تساءلت عبثا فلم يسعفنى شيء. لقد قيل لى: إن هذه الاصلاحية ليست إلا للجانحين، فلماذا تود أن تذهب إليها؟ وحينئذ فررت من تلك الاصلاحية وركبت حافلة الترام مباشرة. ثم جرى كل شيء بسرعة كبيرة بشكل لا تستطيع ان تتصوره: فلم أكد أدس يدى فى جيب احد الناس حتى أمسك بى الناس وأرادوا ضربى وبعدئذ أخذت لأمثل امام اللجنة.

– واللجنة هل صدقت سرقتك؟

– كيف يمكنها أن لا تصدق؟ إنهم محقون وهناك

شهود ثم الضبط وكل شيء على ما يرام. وقلت لهم أنني كنت أسرق من الجيوب فيما مضى.

وضحكت ضحكة عالية. كان من الممتع لي أن ألاحظ بأن عدم ثقتي بحكم اللجنة قد بُرر.و إطمأن مارك وأخذ مكانه في الكتيبة الرابعة.

اما فيرا بيريزوفسكايا فقد كانت لها شخصية تختلف كل الاختلاف.

كان الطقس شتاء وكنت ذاهبا الى المحطة كي اودع ماريا كوندراتيفنا بوكوفا ولأبعث معها رسالة مستعجلة الى خاركوف. رأيتها على رصيف المحطة وهي في غمرة نقاش حار مع الحارس. كان الجندي ممسكا بذراع طفلة من السادسة عشرة من عمرها تقريبا وقدماها تنتعلان حذاء من الكاوتشوك. كانت ترتدي معطفا قصيرا ملقى على كتفيها من طراز قديم لعله صدقة عجوز محسنة. كان رأس هذه الفتاة الحاسر ذا مظهر مريع. فشعرها الاشقر المشعث لم يعد اشقر، فقد كان ينتفخ في طرف وراء الأذن ككتلة سميكة ملبدة ثم تتمدد

بعض الخصل الداكنة اللزجة منه على جبينها ووجنتيها.
وبينما كانت تصارع لكى تتملص من يدى الجندى
كانت البسمة لا تفارقها. إنها فتاة رأئعة الجمال. بيد
أننى استطعت أن أستشف فى عينيها الباسمتين المشرقتين
شررا عكرا من اليأس العاجز الخاص بوحش ضعيف.
كانت البسمة الشكل الوحيد لدفاعها، وديبلوماسيتها الصغيرة.

قال الجندى لماريا كوندراتيفنا:

ـ من اليسير عليها أيتها الرفيقة أن تناقشى ولكن
لا تعرفين كل الضرر الذى تلحقه بنا. ألم تكونى فى
الاسبوع الفائت فى القطار؟ وسكرى؟... أليس صحيحا؟

ـ متى كنت سكرى؟ إنه يلفق كل شىء، ـ قالت
الفتاة ذلك وهى ترمى الجندى ببسمة ساحرة كل السحر
هذه المرة، ثم خلصت فجأة ذراعها الذى يمسك به
ورفعته بحركة سريعة الى شفتيها كأنما كان يؤلمها. ثم
قالت بغنج وادع: ـ هأنذا تملصت من يديك!

وقام الجندى بحركة فى اتجاهها ولكنها قفزت ثلاث
خطوات الى الوراء ثم انفجرت تقهقه قهقهة عالية دوت

فى أرجاء المحطة، دون أن تعير انتباها الى الجمهور المجتمع حولنا.

واستدارت ماريا كوندراتيفنا فى ارتباك ورأتنى:

ـ انطون سيميونوفيتش، يا صديقى!..

وجذبتني الى جانب وهمست لى بلهفة:

ـ إسمع، يا للهول. فكر كيف هذا ممكن؟ إنها إمرأة... إمرأة حسناء... أخيرا لا، ليس لأنها جميلة... ولكن هكذا لا يحق لنا!

ـ ماذا تريدين يا ماريا كوندراتيفنا؟

ـ ماذا أريد؟ لا تتظاهر بالسذاجة والبراءة يا وحش!

ـ هياء قولى إذن!..

ـ نعم، وحش! كل شيء لاجل صالحك وحساباتك كيف؟ وذلك ليس مفيدا لك، نعم؟ هذه الفتاة التى ينشغل بها الجنود او ليس كذلك؟

ـ اسمعى، ولكنها مومس... بين جماعة من الشباب؟ دع هذه الاحكام أيها المربى المسكين!

فامتقع لونى من أثر الاهانة وقلت بحنق:

ـ طيب، سوف تأتى معى الآن الى الاصلاحية.

فامسكت ماريا كوندراتيفنا بكتفى قائلة: ـ شكرا، شكرا... ياصديقى العزيز ماكارنكو!..

وانقضت على الفتاة وامسكتها من كتفيها وهمست لها بشيء سرى. وصاح الجندى بالجمهور بصوت غاضب:

ـ لماذا وقفتم هنا فاغرى الافواه؟ لعلكم تحسبون انفسكم فى السينما؟ هيا اذهبوا الى اعمالكم!..

ثم بصق و هز كتفيه بازدراء وذهب.

واقتادت لى ماريا كوندراتيفنا الفتاة وهى باسمة على عادتها:

ـ اوصيك بفيرا بيريزوفسكايا. إنها تود أن تذهب الى الاصلاحية... يا فيرا هذا مديرك. أنظرى، إنه طيب وسوف تكونين مسرورة هناك. وابتسمت لى فيرا أيضا.

ـ سأذهب... نعم...

وافترقنا عن ماريا كوندراتيفنا وركبنا العربة الزلاقة قلت لها:

ـ سوف تجمدين من البرد ـ واخرجت من تحت المقعد لبادة الحصان لتتغطى بها.

فتدثرت بها فيرا وسألتنى مرحة:

ـ وماذا سوف أعمل هناك فى الاصلاحية؟

ـ سوف تدرسين وتعملين.

فقالت فيرا بعد صمت طويل بصوت «إمرأة حقيقية» فيه الغواية.

ـ أوه يا ربى! لن أتعلم، فلا تفكر بهذا.

وخيم جنح الظلام والسماء ملبدة بالغيوم مظلمة مقلقة. كنا نسير آنذاك وسط الحقول ونحن نتزلق فى المنعطفات. قلت لفيرا بصوت خافت كيلا يسمعنى سوروكا على المقعد.

ـ عندنا جميع الأولاد والفتيات يدرسون وأنت ستصنعين صنيعهم. سوف تدرسين جيدا وإنك ستبدئين حياة طيبة.

فمالت كثيرا على وقالت عاليا:

ـ حياة طيبة... أوه الليل مظلم... أخاف... الى أين تأخذني؟

ـ أسكتي.

فسكتت. ودخلنا تحت جنح الغابة. كان سوروكا يشتم احدهم بصوت خافت ولعله كان يشتم من إخترع الليل و الدروب الضيقة في الغابة.

فهمست فيرا:

ـ سأقول لك شيئا... هل تعرف ماذا؟

ـ تكلمي.

ـ لعلك تعرف... أنا حبلى...

وبعد لحظات سألتها:

ـ أأنت التي اخترعت هذه الحكاية؟

ـ لا.... لماذا أكذب؟ وأيم الحق انه لصحيح.

ولمعت أضواء الاصلاحية من بعيد، فعدنا ثانية نتهامس:

ـ سنجهضك. كم شهرا أنت حبلى؟

ـ الشهر الثاني.

ـ سنقوم بالاجهاض.
ـ سوف يهزأون.
ـ من؟
ـ ألاولاد عندكم.
ـ ما من أحد سيعرف ذلك.
ـ سوف يعرف هذا.
ـ لا، لن يعرف هذا إلا أنا وأنت ولا أحد غيرنا.
فأنشأت فيرا تضحك مسترسلة:
ـ نعم... قل دائما!

وغرقت مرة ثانية في لجة الصمت. وسرنا لنصعد تلعة الاصلاحية على هوينا وقفز سوروكا من العربة الزلاقةليمشى بجانب الجواد وهو يصفر لحنا معروفا «كيربيتشيكى» (٢) وفجاة إنحنت فيرا على ركبتى وطفقت تنتحب انتحابا مريرا.

فسأل سوروكا: ـ لماذا تبكى؟
فاجبته: ـ انها حزينة.
فقال سوروكا على سبيل التخمين: ـ ربما لها اهل، واذ ذاك فهذا اسوأ سيء.

وتسلق المقعد ولوح بسوطه:

ـ أركضي أيتها الرفيقة ماري اركضي هيا!

ودخلنا باحة الاصلاحية.

عادت ماريا كوندراتيفنا من خاركوف بعد ثلاثة أيام ولم اقل لها شيئا عن مأساة فيرا. وبعد اسبوع ايضا أعلنا في الاصلاحية أن فيرا يجب أن تذهب الى المستشفى لأنها تشكو ألما في الكليتين. ثم عادت من المستشفى حزينة مكسورة النفس وسألتني بهدوء:

ـ ماذا ينبغي لي ان اصنع الآن.

فكرت وأجبتها باختشام:

ـ والآن سنحاول أن نعيش شيئا فشيئا.

ومن نظرتها الخفيفة المضطربة معا فهمت أن العيش بالنسبة لها أصعب شيء، وأكثر الامور غموضا.

ستذهب فيرا بيريزوفسكايا معنا الى كورياج وهذا أمر بديهي، وعلى هذا سيذهب الجميع بينهم أولئك الاولاد الجدد العشرون الذين ارسلتهم في الأيام الأخيرة مفوضية التعليم العام غير مبالية ابدا بخططي الستراتيجية.

قد يكون من الحسن أن لا ينقل إلى كورياج سوى الكتائب القديمة المجربة الاحدى عشرة لاصلاحية غوركي. فهذه الكتائب قد إجتازت بنضال رفيع تاريخ سنواتنا الست. فلديها متاع مشترك من الأفكار والتقاليد والتجارب والمثل والعادات، وما من سبيل إلى الخوف معهم. وما أحسن ما يكون الأمر بدون هؤلاء الأولاد الجدد وعلى الرغم من أنهم ذابوا من الناحية الشكلية فى الكتائب، فقد كنت أتعثر بهم لدى كل خطوة وأخجل منهم، وكان مرآهم ينتصب دائما فى وجهى: بطرائق كلامهم، ومشيتهم، ونظرهم، فقد كان هناك شيء لا يستقيم أمره، كانت لها وجوه سيئة كل السوء.

ولكن لا بأس، إن كتائبى الاحدى عشرة كان مظهرها شديدا كالحديد. ولكن أى كارثة ستكون إذا ضاعت هذه الوحدات الصغيرة فى لجة كورياج! عشية رحيل الكتيبة المختلطة الطليعية كنت أشعر بروحى فريسة قلق لا كنه له. وبعد ما وصلت جورينسكايا فى قطار المساء اختلت بى فى المكتب وقالت:

ـ يا انطون سيميونوفيتش أنا خائفة. لم يفت الأوان على الرفض.

ـ ماذا حدث يا ليوبوف سافيليفنا؟

ـ لقد ذهبت البارحة الى كورياج. ياللهول! لا يمكنني ان أطيق مثل تلك الانطباعات. لعلك تعلم، لقد كنت في السجن وقاتلت في الجبهة ومع ذلك فلم اتألم قط ألما كهذا.

ـ ولكن لماذا تقولين هذا؟

ـ لا أعرف؛ وليس في مقدوري أن أقص ما أريد. ولكن لعلك أدركت: ثلاثمئة ولد في حماة الشراسة والفساد والقسوة... أرأيت، إنه نوع إنحلال حيواني بيولوجي.... حتى لا فوضى... وهذا البؤس وهذه النتانة وهذا القمل! يجب ألا تذهب اليها لقد كانت فكرة خرقاء من جانبنا.

ـ ولكن إسمحي لي. إذا كانت كورياج تحدث مثل هذا التأثير السيء في نفسك فهذا يقتضي بالحرى ان نعمل شيئا.

وتنهدت ليوبوف سافيليفنا تنهدا شاقا وقالت:

ـ علينا أن نتكلم طويلا. طبعا يجب أن نعمل شيئا، هذا واجبنا. ولكن ليس من المسموح بتضحية جماعتك. انك لا تعرف قيمتها يا انطون سيميونوفيتش. يجب الحفاظ عليها وتطويرها وتدليلها، لا يحق لنا أن نرمي بها من أول نزوة فى مهب الرياح تعصف بها.

ـ من أول نزوة من؟

قالت ليوبوف سافيليفنا بعياء: ـ من؟ لا أعرف. أنا لا أتكلم عنك. إن وضعك خاص تماما. ولكن إسمع ما أود أن أقول لك: لك أعداؤك اكثر مما تظن.

ـ حسنا وبعدئذ؟

ـ هناك أناس سيشمتون إذا فشلت فى كورياج.

ـ أعرف ذلك.

ـ إذن! فلنعمل عملا رصينا بتعقل. يجب أن ترفض، وليس صعبا بعد أن تفعل ذلك.

لم أملك إلا أن أبتسم من هذا الاقتراح.

ـ أنت صديقتنا. إن اهتمامك وعطفك أعز علينا

من كل ذهب الدنيا. ولكن... سامحيني . إنك تضعين نفسك الآن في المناهج التربوية العتيقة.

ـ لم أفهم.

ـ إن الصراع مع كورياج ليس ضروريا فقط لأولاد كورياج ولأعدائي، إنه ضروري أيضا لنا نحن واكل ولد في الاصلاحية. هذا الصراع له معنى واقعي. مري بين الأولاد فسوف تجدين أن التراجع أصبح مستحيلا.

سافرت في اليوم التالي صباحا الكتيبة المختلطة الطليعية قاصدة خاركوف .وفي نفس عربة القطار كانت تسافر ليوبوف سافيليفنا معنا.

٢. الكتيبة المختلطة الطليعية

كان فولوخوف يسير على رأس الكتيبة المختلطة الطليعية. كان ضنينا الى أبعد غاية في الكلام والحركات في هيئته؛ كان يعرف مع ذلك كل المعرفة أن يعبر

تجاه الحوادث والناس عن وضعه الممتلىء دائما بالهزء الذى يشوبه التراخى وبالثقة بالنفس التى لا سبيل الى أن تتزعزع. هذه الصفات بشكلها البدائى توجد دائما لدى كل ولد أزعر؛ ولكن حينما يتلقى تهذيب الحياة الجماعية فإنها تضفى على الشخصية بريقا نجيبا وخفيا يعكس فى الأعماق قوة هادئة عنيدة. أمثال هؤلاء القادة ضروريون فى الكفاح لأنهم مع الجرأة التى لا تحد يمتلكون مكابح للجماح ممتازة. وكان هناك شىء يطمئننى أكثر من غيره: وهو أن فولوخوف ما كان حتى ليفكر بكورياج ولا بأهلها. ففى بعض الأحيان كانت ثرثرة الأولاد التى لا تنتهى تثيره؛ فيلقى الجواب قسرا:

– ولكن اتركوا أولاد كورياج هؤلاء: سوف ترون أنهم من طينة الناس نفسها.

وهذا لم يمنع فولوخوف من ان يعير أعظم اهتمام لتأليف الكتيبة المختلطة الطليعية. فقد شذب بعناية صامتة كل ترشيح، مقررا بايجاز:

– لا يجب!.. إنه من الوزن الخفيف!

كانت الكتيبة قد ألفت تأليفا بارعا جدا. فقد كانت مركبة بأكملها من الشبيبة الشيوعية، وكانت تشتمل في ذات الوقت على الممثلين لجميع الأفكار والطرائق الرئيسية الخاصة بالاصلاحية. فكان يشترك فيها:

١. فيتيا بوغويافلنسكي الذي لم يشأ مجلس القادة أن يمشي الى الكفاح باسم إكليركي فأعطاه إسما آخر لائقا لا مثيل له: وهو إسم غوركوفسكي. كان غوركوفسكي نحيلا دميما ونبيها كأنه كلب صيد صغير. كان نظاميا جدا ومستعدا دائما للعمل، وكان له حول كل شيء رأيه الخاص، وكان يعرف كيف يحكم الآخرين حكما سريعا ومحددا تحديدا وافيا. كانت موهبته الرئيسية انه ينفذ في كل ولد الى الصميم ويقدر علاوة على ذلك طبيعته الحقيقية تقديرا سديدا. وفي الوقت ذاته ما كان فيتيا ليشتت نفسه أبدا وكان تصوره للأفراد يتركب على الفور على شكل سمات جماعية و معرفة الجماعات وخطوط وفوارق وظواهر نموذجية.

٢. ميتيا جيفيلي، صاحبنا القديم أكمل تشخيص

وأجمله لروح إصلاحية غوركى الحقيقية. لقد كان ميتيا قد تطور تطورا موفقا ليصبح ولدا اهيف بشكل بديع ذا رأس جميل مركز جيدا وذا نظرة نفاذة بسواد براق تنبجس من عينيه الجامحتين. كان فى الاصلاحية على الدوام كثير من الأولاد الذين يحاولون تقليد ميتيا فى طريقته الشديدة بالتعبير بحركة موجزة غير منتظرة وفى نظافة طقمه واناقته وكذلك فى سيرته وحتى فى وطنيته الصادقة المرحة كولد فى اصلاحية غوركى. وفى إنتقالنا الى كورياج كان ميتيا يرى أمرا ذا أهمية سياسية رفيعة، مقتنعا إقتناعا حقا بأننا قد وجدنا الأشكال الصحيحة «لتنظيم الأولاد» وأننا ينبغى لنا أن نعمم إكتشافنا على الشعب من أجل خير جمهورية البروليتاريا.

٣. ميخائيلو (ميشا) أوفتشارنكو — ولد أبله قليلا ولكنه شغيل ممتاز كان يغار على الاصلاحية وعلى مصالحها من كل قلبه. كانت لميشا حياة معقدة تعقيدا شديدا حتى أنه كان لا يكاد يعرفها نفسه. لقد أقام تقريبا فى جميع مدن الاتحاد السوفييتى دون أن يلم بمعرفة

بها أو يكتسب أى تطور. لقد شغف منذ اليوم الأول بالاصلاحية ولم يرتكب خطيئة تقريبا. لقد عمل ميشا أشياء كثيرة ولكنه لم يتوصل إلى أن يختص فى أى حقل منها لأنه ما كان يطيق العمل الثابت لا فى نفس الماكينة ولا فى نفس المجال. وكانت له بالمقابل مواهب إقتصادية أكيدة، فكان يعرف كيف ينظم عمل الكتيبة والترتيب والنقل بشكل سريع وجيد دائما وهو يرصع عمله بغمغمات العبر وأخلاقه التى لن يزعجلك بها لأنها كانت تزهو دائما مثله عبقا طيبا من البلاهة الساذجة مشفوعة بطيبة نفس لا ينضب لها معين. كان ميشا أقوى شخص فى الاصلاحية، أقوى حتى من سيلانتي أوتشيناش، وكان يبدو أن فولوخوف حين إنتقاه، كان ينظر بالدرجة الأولى الى هذه الصفة فيه.

٤. دينيس كودلاتي: أقوى شخصية فى الاصلاحية فى عهد إقتحام كورياج. كثير من أولاد الاصلاحية تفصدوا عرقا باردا، حينما تكلم دينيس فى إجتماع عام وذكر إسمهم. كان يملك الفن والفصاحة الساحرة

التى تخلب الألباب ليزلق شخصا من الأشخاص الى الوحل ليطلب بالطريقة الأكثر إقناعا فصله من الاصلاحية. وكان الأدهى ان اقناع دينيس الذكى فعلا يؤثر فى كثير من الأحيان بصحته النافذة. كان موقفه من الاصلاحية مطبوعا باعتقاد رصين عميق أنه قد كان ذلك شيئا نافعا منظما متماسكا تماسكا قويا. ولعله كان يتمثله كأنه عربة مزرعة مشحمة تشحيما جيدا وفى أحسن حال يمكن المرء بها أن يقطع ألفا من الفراسخ براحة دونما عجلة، ثم بعد أن يعاود العناية بها نصف ساعة فيشحمها ويركزها يستطيع أن يقوم بألف فرسخ أخرى.

كان كودلاتى من الناحية الظاهرية يشبه الكولاك القديم النموذجى، ولم يكن ليمثل على مسرحنا سوى هذه الأدوار ولم يتأخر مع ذلك عن أن يكون أول منظم للشبيبة الشيوعية التى وجدت فيه أنشط مناضليها. كان قليل الكلام، وحسب عادة غوركى كان ينظر إلى الخطاب نظرة استنكار صامت، وكانت الأحاديث المطولة تسبب له عذابا جسمانيا حقيقيا.

٥. وكان القائد قد إختار ايفغنييف طعما ضروريا للصوص. كان من الشبيبة الشيوعية الصالحين، وكان رفيقا مرحا وشديد البأس، ولكنه كان يحتفظ في كلامه وحركاته ببقايا غضة من أيام الشارع الصاخبة ومن بيت الاصلاح. وكان ممثلا موهوبا فما كانت تكلفه أي مشقة محادثة الناس في لهجتهم الأصيلة.

٦. جورا فولكوف. الساعد الأيمن لكوفال في الشبيبة الشيوعية، كان يمثل في كتيبتنا دور المفوض السياسي ومنشيء الدستور الجديد. كان جورا رجلا سياسيا شغوفا ومقتنعا وثابتا. وعندما ترك يذهب، قال كوفال:

ـ سوف يثير جورا براغيث اولئك الاوباش من الناحية السياسية. إن اولئك البهائم يفكرون حتما أنهم يعيشون في عصر الاستعمار، وإذا إقتضى الأمر إستعمال الأيدي فلن يتأخر جورا عن ذلك.

٧ و ٨. توسكا سولوفييف وفانيا شيلابوتين ممثلا الجيل الفتي. كان شعرهما ممشوطا مشطا أنيقا (على السياسة) ولكن توسكا اشقر وفانيا أسمر. كان لتوسكا وجه ظريف

نضير، وكان لفانيا وجه ماكر نشيط ذو أنف مرفوع.

وأخيرا الولد التاسع... كوستيا فيتكوفسكى. لقد تمت عودته الى الاصلاحية بأسرع شكل وأسهله وأيسره. فقبل رحيلنا بثلاثة أيام ظهر كوستيا نحيلا شاحبا مضطربا. كان فى إستقباله تحفظ: وقال لابوت فقط:

ـ كيف حال الصخرة المدعوة هناك «الله يمررنا»؟

فيبتسم فيتكوفسكى إبتسامة وقور قائلا:

ـ فلتذهب الى جهنم! أنا لم أذهب اليها.

فقال لابوت: ـ خسارة! لقد بقيت الصخرة اللعينة هناك لا عمل لها.

وألقى فولوخوف غمزة ودية على كوستيا:

ـ إذن حشوت نفسك بأشياء ممتعة؟

فرد كوستيا دون إستحياء:

ـ كما تقول.

ـ والآن ماذا سيكون طعامك؟

فأطلق كوستيا ضحكة عالية قائلا:

ـ من أجل هذا سأنتظر مجلس القادة. انهم يعرفون كيف يطبخون أطعمة حلوة و مالحة...

فاجاب فولوخوف بقسوة: ـليس لدينا الوقت للانشغال بطعاملك الآن. واليك ما اقوله: بما أن اليوشا فولكوف رجله مجروحة فسوف تحل محله. ما رأيك يا لابوت؟

ـ أعتقد أنه يعمل.

فسأل كوستيا: ـ والمجلس؟

ـ نحن الآن على أهبة خوض المعركة. يمكن الاستغناء عن المجلس.

بهذه الطريقة غير المنتظرة بالنسبة إليه وإلينا دون شكليات وسيكولوجيا اشترك كوستيا بالكتيبة المختلطة الطليعية. وفي اليوم التالى إرتدى بزة أولاد الاصلاحية.

وكان يذهب معنا أيضا إيفان دينيسوفيتش قرغيزوف، وهو مرب جديد كنت ردعته عن رسالته فى التربية بدراية فى بيروغوفكا فحل محل إيفان إيقانوفيتش الذى كان قد هجرنا. كان إيفان دينيسوفيتش يبدو فى عين المراقب الدنيوى مجرد معلم قرية بيد أنه فى الواقع هذا البطل

الايجابى الذى كان الأدب الروسى ينشده بهمة منذ أمد بعيد. كان إيفان دينيسوفيتش فى الثلاثين من عمره، وهو طيب ذكى هادىء وهو على الأخص مؤهل للعمل وهذه صفة لم يكن أبطال الأدب الروسى الايجابيون والسلبيون على السواء ليعرفوا التباهى بها. كان إيفان دينيسوفيتش يعرف أن يعمل كل شىء ويعمل دائما؛ ولكنه كان يبدو دائما عن بعد أنه من الممكن أن يعهد اليه بشىء ليعمله. وحينما تقترب تبدأ تميز أنه ما من شىء ليضاف، ولكن لسانك الذى إعتاد عاداته، ليس لديه الوقت ليسترجع كلامه فتتلفظ بحياء وتلعثم قليلا مع ذلك:

— يا إيفان دينيسوفيتش، لا بد،... هناك... من حزم مخبر الفيزياء...

ويبرز إيفان دينيسوفيتش من صندوق أو دفتر باسما:

— مخبر الفيزياء؟ طيب نعم... حسنا سآخذ الفور عدة أولاد ونحزم...

وتبتعد بحياء ولكن إيفان دينيسوفيتش يكون قد نسى

سلوكك القاسى فيقول بلطافة لأحد الأولاد بلهجته الأوكرانية:

ـ إذهب يا صغيرى الحبيب وأدع الأولاد من هناك...

وصلنا بخاركوف باكرا. كان مفتش التعليم العام يو رييف مشرق النفس من إجتماع هذا الصباح من شهر ايار ومن روحنا العسكرية، فكان ينتظرنا فى المحطة. كان يوزع على أكتاف الجميع تربيتات قائلا:

ـ ها هم أولاد غوركى! ما أحسنهم! عظيم عظيم! هل ليوبوف سافيليفنا هناك أيضا؟ عظيم! إذن هل تعلمون؟ عندى سيارة وسوف نذهب بحثا عن خالابودا ثم نمضى رأسا الى كورياج. يا ليوبوف سافيليفنا هل تأتين أيضا؟ عظيم! فليأخذ الأولاد قطار الضاحية حتى ريجوف ومن ريجوف المسافة قريبة، كلها كيلومتران... يمكن أن تمروا فى المرج. ولكن فقط يجب أن نطعمكم أليس كذلك؟ أم تأكلون فى كورياج، ما رأيكم؟

كان الأولاد يلقون على نظرة تأمل وهم يرمقون يو رييف

بهزء. كانت تحسساتهم الحربية تتحسس بشغف أول شيء تمثله خاركوف فى شخص يورييف.

فقلت: . . . . . .

— لعلك ترى، أن كتيبتنا المختلطة الطليعية هي — إن صح التعبير — أول نسق اصلاحية غوركي. فمنذ أن نصل يجب أن يصلوا أيضا. فى الإمكان إستئجار سيارتين؟ هذا ما يبدو لى.

فقفز يورييف من الحمية:

— عظيم والله! هذه طريقتهم لهم.... هكذا.... على طريقتهم. آه هذا بديع! ولكن هل تعرف؟ السيارات؟ سأضعها من حساب التعليم العام! هل تعرف أيضا؟ سأركب معهم، مع الأولاد...

قال فولوخوف وقد ظهرت أنيابه: — هيا إمشوا.

— بـ... ديع! بـ..ـديع!... طيب إمشوا، هيا لنبحث عن سيارات.

فأمر فولوخوف:

— إذهب يا توسكا.

فحيا توسكا وصاح: سمعا وطاعة، فألقى عليه يوريبيف نظرة إعجاب. كان يرقص في الساحة وهو يفرك يديه:

ــ طيب، ما رأيك؟ طيب ما رأيك؟..

وطفق يعدو في الساحة وعيناه محدقتان بتوسكا الذى لم ينس اعتباره عضوا في الكتيبة المختلطة حتى ينط في المحطة:

أخذ الأولاد ينظرون بعضهم بعضا.

فسأل غوركوفسكي بصوت خافت:

ــ ما هذا؟.. ما هذه الظاهرة؟

وبعد ساعة إنطلقت سياراتنا الثلاث تطوى الأرض طيا إلى كورياج، ثم وقفت إلى جانب الكنيسة المقشور. فاقتربت من السيارة أشكال مشعثة مزفتة بخطى وئيدة وهي تجر على الأرض أذيال سراويلها الطويلة، وتنظر دونما فضول خاص الى أولاد اصلاحية غوركي وهم خفيفون كالوصفاء وصارمون كقضاة التحقيق.

جاء إلينا مربيان، وتبادلا النظرات فيما بينهما وهما يخفيان عداءهما بمشقة.

ـ أين سنؤويهم؟ سيكون فى الإمكان وضع سرير فى غرفة المدرسين لك وفى وسع الأولاد أن يجدوا امكنة لهم فى المهاجع.

ـ هذا لا أهمية له. سنجد مأوى فى مكان ما. أين المدير؟

كان المدير فى المدينة. ولكن كان هناك رجل ببنطال أغبر كاشف فيه بقع دهنية مستديرة قبل أن يرينا الاصلاحية إحتج وذكر أن هذا ليس دوره. ما كنت لأتوق لرؤية شيء. ولم يكن يورييف ليهتم بالآثار المرئية. وإلترمت جورينسكايا صمتا حزينة. ولم ينتظر الأولاد دليلا رسميا فإنطلقوا أنفسهم ليزوروا الاصلاحية. وتبعهم إيفان دينيسوفيتش بخطى وئيدة.

وأخذ خالابودا يشير بعصاه الى مختلف جهات السماء وهو يذكر تفاصيل عديدة عن نشاطه الخاص كمنظم ويعدد عناصر الثروة العقارية لكورياج إلى أن أوصل كل شيء الى قاسم مشترك: الجودار. عاد الأولاد ووجوههم منقبضة من الدهشة. ونظر إليّ كودلاتى نظرة تعنى:

«كيف إستطعت يا انطون سيميونوفيتش أن تزج نفسك في حكاية حمقاء كهذه؟..»

وكان في عيني ميتيا جيفيلي بريق إستياء: كانت يداه في جيبيه وهو ينظر فيما حوله شزرا، فلاحظت جورينسكايا جيدا هذه الحركة المزدرية:

– ماذا أيها الأولاد، ألم يعجبكم المكان؟ فلم يجب ميتيا شيئا وطفق فولوخوف يضحك فجأة:

– أظن اننا لا نرتب الأمور دون مشاجرة.

فقالت ليوبوف سافيليفنا وهي ممتقعة: – كيف ذلك؟

فقال فولوخوف مفسرا: – لا بد من تعليق هذه الجماعة من آذانهم، – وامسك فولوخوف فجأة باصبعيه بياقة ولد صغير قميء أسود ناحل بأسمال طويلة ولكنه حافي القدمين حاسر الرأس ودنا من جورينسكايا.

– أنظروا الى أذنيه.

فالتفت الولد القميء طيعا. وكانت أذناه مدهشتين فعلا، ولم تكونا سوداوين فقط كما كانتا محشوتين

بالاوساخ فى مختلف الشقوق فحسب بل كانت أذناه علاوة على ذلك مضرجتين ببثور دامية وفوق الندوب قشر و صديد جاف.

سألته جورينسكايا قائلة: — لماذا أذناك بهذه الحالة؟

فابتسم خجلا وحك رجليه الواحدة بالأخرى وهما أيضا فى نفس الوضع.

فقال الرجل القمىء بصوت مبحوح: — هذا من الجرب.

فسأله توسكا: —كم بقى على موتك؟

— كم بقى على موتى؟ عندنا كثيرون على هذه الشاكلة ولم يمت إلى الآن أحد.

كان الأولاد —ولا أدرى لماذا — غير مرئيين. ففى النادى المليء بالأوساخ والأدراج الموسخة بالبصقات والممرات المزروعة بالغائط كانت تطوف بعض الأشكال الجهمة. وفى المهاجع المنتفشة الفاسدة حيث لا تدخل أشعة الشمس من النوافذ المغطاة بأقذار الذباب، لم يكن هناك أيضا من أحد.

فسألت الرجل المناوب: ـ أين الأولاد؟
فالتفت بصلف وأجاب من أطراف شفتيه:
ـ السؤال لا معنى له.
كان هناك ولد في الخامسة عشرة من عمره ذووجه مستدير يمشي إلى جانبنا ولا يفارقنا. فسألته:
ـ طيب! كيف تعيشون أيها الأولاد؟
فرفع الي وجهه الذي فيه مخايل النجابة ولكنه غير مغسول كسائر أولاد كورياج واجاب:
ـ كيف نعيش؟ أهذه حياة هنا؟ ولكنه يقال عما قريب ستكون الحال اصلح. أليس صحيحا؟
ـ من قال هذا؟
ـ إن الأولاد يحكون بأن الحال سوف تتغير عما قريب، ولكنهم يقولون أننا سوف نضرب بالعصا لأدنى شئ.
ـ تضربون؟ لماذا؟
ـ الذين يسرقون. كثير منهم هنا.
ـ قل لي: لماذا لا تغتسل؟

ــ ليس هناك بما نغتسل! ليس ماء! محطة الكهرباء معطلة والماء لا يصل ولا توجد مناشف ولا صابون...

ــ لا تعطون شيئا منها إذن؟

ــ من قبل كنا نعطى منها... ولكنهم سرقوا كل شئ. الجميع يسرقون عندنا. والآن لم يعد هناك من شيء في المستودع.

ــ ولماذا هذا؟

ــ ذات ليلة اقتحموا المستودع ونهبوه، فقلعوا الأقفال وأخذوا كل شئ. كان المدير يود ان يطلق النار..

ــ وحينئذ؟

ــ لا شئ... لم يفعل ذلك. يقول: سأطلق النار، فيقول له الأولاد: إذن أطلق هيا. ثم لم يطلق ولم يفعل سوى أن أرسل يطلب الميليشيا...

ــ وماذا فعلت الميليشيا؟

ــ لا أعرف.

ــ ألم تأخذ شيئا من المستودع أنت أيضا؟

ــ لا، لم آخذ شيئا. كنت أود أن آخذ بنطلونا،

بيد أنه لم يكن فيه سوى بنطلونات كبيرة وعندما وصلت لم آخذ سوى مفتاحين كانا مطروحين على الأرض.

ــ مضى وقت طويل على هذا؟

ــ في الشتاء.

ــ طيب... ما إسمك؟

ــ ماليكوف بيوتر.

وتوجهنا إلى المدرسة. كان يوريبف يصغي صامتا إلى حديثنا. أما خالابودا الذى إفترق عنا فقد تبعنا محاطا بأولاد اصلاحية غوركى: لديهم حاسة شم عجيبة للأشخاص المسلين. كان خالابودا يمد رأسه بلحيته الشقراء ويتكلم مع الاولاد عن الغلة الجيدة وكانت عصاه الخشبية تنجر وراءه وهى تخط الأرض.

ها نحن أخيرا قد دخلنا المدرسة. إنها مهجع الدير سابقا أعيد بناؤه من قبل لجنة حماية الطفولة. أما البناء الوحيد الذى لا يوجد فيه مهاجع فهو ممر طويل وفي كل طرف صفوف طويلة وضيقة. لماذا وضعت المدرسة فيه؟ هذه الحجرات لا تصلح إلا لمهاجع.

وقدم لنا أحد الصفوف مفروشا باعلانات ورسوم رديئة للاطفال وذلك على أنه ركن الاحداث الطلائع. لقد احتفظ به للتفتيشات من الناحية الظاهرية، وإحتراما للمواضعات السياسية: وقد إستغرقنا نصف ساعة من الانتظار حتى عثر على مفتاح ركن الأحداث الطلائع.

جلسنا على مقعد لنستريح. كان أولادى ساكتين. وكان فيتيا يهمس ورائى باحتراس:

ـ يا أنطون سيميونوفيتش، يجب أن ننام فى هذه الحجرة معا جميعا. ولكن لن نأخذ الأسرة. ففيها قمل هناك أوه يالله!

وإنحنى جيفيلى على من فوق ركبتى فيتيا قائلا:

ـ يوجد هنا أولاد ليسوا سيئين. وإنما يجب أن نرى مقدار بغضهم للمربين ولكنهم لن يعملوا هكذا....

ـ وكيف؟

ـ إنهم لن يعملوا بدون فضيحة...

وإبتدأ الكلام عن الطريقة التى سيجرى حسبها تسليم الاصلاحية. كان المدير قد سارع عائدا من المدينة

بعربة اجرة. كنت أفكر وأنا أنظر إلى وجهه المشدوه الذى حال لونه: فى الحقيقة لا يمكن المرء حتى أن يحاكمه؛ من وضع هذا المخلوق المسكين فى موضع المدير المقدس؟

وإتخذ المدير لهجة هجومية وبين أنه لا بد من أن يجرى التسليم بأسرع ما يمكن وأنه ليس مسئولا بصورة عامة عن شئ.

فسأل يورييف:

— ماذا يعنى: ليس مسئولا عن شئ؟

— هذا هو الأمر. إن الأولاد مستاءون جدا. وقد تجرى حوادث مختلفة، ففى حوزتهم اسلحة.

— ولماذا لديهم الاستياء؟ ألست أنت الذى اوحى لهم بذلك؟

— أنا سأحتاج لاثارتهم؟ إنهم يشمون بأنفسهم ما فى الهواء. أتظن أنهم لا يعرفون ذلك. إنهم يعرفون كل شئ!

— ماذا يعرفون بالضبط؟

ـــ إنهم يعرفون ما ينتظرهم، هذا ما قاله المدير بلهجة معبرة وبطريقة أكثر تعبيرا التفت إلى طرف النافذة مبينا أن منظرنا يتوجس منه الأولاد.

فهمس فيتيا في أذني:

ـ يا للوسخ! يا للوسخ!

فقلت: ـ أسكت يا فيتيا. مهما كانت الحوادث التي تحدث فأنك مسئول عنها بحال من الأحوال بأنها ستكون بعد تسليم الاصلاحية أم قبله. إنني أطالب أيضا بانجاز جميع الشكليات باسرع ما يمكن.

وقررنا أنه ينبغي أن يجرى التسليم فى اليوم التالى الساعة الثانية بعد الظهر. إن جميع الجهاز الادارى ـ أربعين شخصا هم المربون ـ قد أعلن أنهم مسرحون ويجب أن يخلوا المساكن خلال ثلاثة أيام. وحددت مهلة اضافية قدرها خمسة أيام لتسليم الادوات.

ـ ومتى سيأتي وكيل املاككم؟

ـ لا يوجد عندنا أحد. سوف نكلف أحد الأولاد باجراء التسليم.

فانتفش المدير:

ــ لن أسلم شيئا إلى ولد.

إن هذا التركيز من الحماقات بدأ يغيظني ويثيرني. وفي الواقع ماذا سوف يسلمني؟

قلت له: ــ لعلك تعرف ــ فيما يخصني ــ لا يعنيني كثيرا إن كان أي ضبط موجودا أم لا. إن الذي يهمني هو أن لا أرى أحدا منكم بعد ثلاثة أيام.

ــ ها! ها! يعني أننا مضايقون؟

ــ هذا هو تماما!

فوثب المدير كالمهان على قدميه واسرع الى الباب وركض وراءه المربي المناوب، وقال المدير عند العتبة:

ــ سوف لا نعترض ولكن غيرنا سيضايقونكم!

وضحك الأولاد، وتنهدت جورينسكايا، وكان يورييف يتأمل شيئا وهومستند على النافذة حائرا. وكان خالابودا يتفحص الاعلانات التي تغطي الجدار بلا مبالاة.

فقال يوريبف: ــ هيا فلنذهب. سوف نعود غدا أليس كذلك يا ليوبوف سافيليفنا؟

فنظرت الى نظرة حزينة.

فطلبت منهم قائلا: ــ لا تأتوا.

ــ طيب ولماذا؟

ــ ولماذا تأتون؟ إنكم لن تقدموا لى أى معونة بل على العكس سوف نضيع الوقت فى الحديث.

ودعنا يوريبف وهو مجروح النفس قليلا وصافحتنا ليوبوف سافيليفنا بقوة وسألت:

ــ ألا تخافون؟ لا؟

وعادوا أدراجهم الى المدينة.

خرجنا إلى الباحة. كانوا يقدمون الطعام لأنهم كانوا ينقلون الحساء من المطبخ إلى المهاجع بالقدور. وجذبنى كوستيا فيتكوفسكى من كمى وهو يضحك: ميتيا وفيتيا اوقفا ولدين يحملان أحد هذه الأوانى.

فسأل فيتيا لائما: ــ هل يسمح شئ من هذا القبيل؟

ولكن ما هؤلاء الأشخاص؟ أ لم تفهم؟ هل أنت من أكلة لحوم البشر إذن؟

ولم أدرك السبب في بادئ الأمر. رفع كوستيا باصبعيه يد أحد موزعي خبز كورياج بكمه. وتحت الذراع الآخر حمل خبزا انتزع نصف قشرته. كان كوستيا يهز الولد المضطرب من كمه: كان هذا الكم مغموسا في المرقة التي تسيل منه؛ وكانت قطع من الملفوف والشمندر ملتصقة به حتى الكتف.

— وأنظر الى هذا — كان كوستيا يكاد يغشى عليه من الضحك ولم نستطع نحن أن نتملك زمام أنفسنا ففعلنا فعله: كان الولد يقبض على قطعة لحم في يده.

— والآخر؟

— نفس الشيء!... — إنفجر ميتيا ضاحكا. إنهم في الطريق يتصيدون اللحم من الحساء. ألا تخجل أيها الأبله لقد أحسنت لو شمرت كملك!

فقال كوستيا: — أوه، الحياة ستكون قاسية هنا يا أنطون سيميونوفيتش.

وتفرق اولادنا لأ أدرى أين. وأشرق نور أيار اللطيف على رابية الدير التى لم تعد له بسمته الدافئة. وتخيلت الدنيا منقسمة الى قسمين بسطح أفقى شفاف: فى الأعلى السماء الحافلة ببريق ازرق، الهواء الحى والشمس و طيران الطيور وذرى الغيوم العالية الهادئة. وفى أذيال السماء الهابطة الى إلأرض تتعلق مجموعات بعيدة من الاكواخ وغابات صغيرة و هذا النهر الصغير الذى يجرى كالحية الرقطاء. والحقول السوداء والخضراء والحمراء تنبسط فى ترتيب دقيق تحت الشمس كأنها بساط العيد. كل هذا حسن او سئ، من يدرى، ولكنه يروق النظر ويبدو بسيطا وادعا ويود المرء أن يكون جزءا من هذا اليوم الصاحى فى أيار.

ولكن تحت قدمى أرض كورياج القذرة، وجدارنها العتيقة المشربة برائحة العرق والبخور والفسفس وآثام الرهبان الغابرة وأوساخ الأولاد المهجورين. حتما ليس هذا هو الدنيا، ولكنه شئ مغاير، ويبدو ملفقا.

ضربت فى أرجاء الاصلاحية: ما من أحد إقترب منى، ولكن الأولاد كانوا يبدون أكثر عددا. كانوا يرمقوننى من بعيد. دخلت الى المهاجع. كانت هى كثيرة للغاية ولا أستطيع أن أتصور مكانا حيث ليست هذه المهاجع وكم عشرات من الأبنية والأروقة والآجنحة محشوة بالمهاجع حشوا. الآن كان أولاد كثيرون فيها. كانوا جالسين على كومة من الخرق والألواح الخشبية المجردة أو على حواف الأسرة الحديدية. كانوا يضعون أيديهم بين ركبهم الممزقة ويهضمون الطعام. وكان بعضهم يقتل القمل، وفى الزوايا كانوا يلعبون بالورق بينما فى مكان آخر ينهوون تناول الحساء البارد من القدور التى يلبسها الشحار، فلم يعيرونى أى إنتباه: كأننى لم أكن!

وفى أحد تلك المهاجع سألت جماعة من الأولاد الذين كانوا ينظرون الى تصاوير عدد قديم من مجلة «نيفا» (٣) مما أثار دهشتى.

— قولوا لى أيها الأولاد: أين ضاعت وسائدكم؟

فرفعوا أنظارهم جميعا اليّ، وقابل نظرتى ولد ذو أنف دقيق بهيئة ساخرة:

ـ وسائدنا؟ أنت ـ أ ليس كذلك ـ الرفيق ماكارنكو؟ أنطون سيميونوفيتش؟

ـ نعم.

ـ هذا أنت تمر هنا وتتفقد؟

ـ بالضبط أمر وأتفقد.

ـ غدا، إعتبارا من الساعة الثانية... فقاطعته:

ـ نعم غدا إعتبارا من الساعة الثانية ولكن لم تجب على سؤالى: أين وسائدكم؟

ـ أ تريد أن نقص عليك، نعم؟

وباشارة لطيفة من رأسه دعانى الى الجلوس على فراشه المزفت المرقع، فجلست.

ـ ما إسمك؟

ـ فانيا زايتشنكو.

ـ هل تحسن القراءة والكتابة؟

ـ كنت فى الصف الرابع فى العام الماضى؛ بيد

أن هذا الشتاء... أنت تعرف ولا شك... ما كانت الدروس...

ـ حسنا، أين إذن الشراشف والوسائد؟

وتطلعت عينا فانيا الرماديتان الى رفاقه بنظرة وقادة من الهزء ثم جلس على الطاولة، فاستند حذاؤه الجلدى الممزق على ركبتى، وجلس رفاقه على السرير متراصين تراصا وثيقا على بعضهم بعضا، وتعرفت فجأة على وجه ماليكوف المستدير بينهم:

ـ وأنت هنا أيضا؟

ـ نعم ... هؤلاء أصحابي! هذا تيما اوداريوك وذاك ايليا.... فونارنكو ايليا!

كان تيما ولدا اشقر ذا جلد مبقع، وعينين لا أهداب لهما، وإبتسامة باهتة. كان لايليا بوز سميك ابيض ذو البثور، ولكن عينيه من نوع جيد: فهما متوضعتان توضعا قويا حسنا. كان زايتشنكو يتفحص من فوق رؤوس رفاقه المهجع الفارغ تقريبا وبدأ بصوت مختنق كأنه صوت متآمر:

ـ تسأل أين الوسائد أليس كذلك؟ وأنا سأقول لك ببساطة: لا توجد وسائد، هذا كل شئ!

وبضحكة مفاجئة داوية يفتح أصابعه. وإنفجر الباقون بالضحك أيضا.

قال زايتشنكو: ـ نحن نتسلى كثيرا هنا، لأن هذا مضحك! لا وسائد... لقد كانت موجودة فى البدء، ثم فش... طارت!

وضحك مرة ثانية:

ـ نام الاشقر مع وسادته وإستيقظ بدون...فش... طارت!..

ونظر زايتشنكو الى أوداريوك من شقوق عينيه الصغيرة المرحة. فقد انقلب الى الوراء ضاحكا ودفعت قدمه ركبتى بشكل أشد.

ـ يا انطون سيميونوفيتش قل: من أجل أن توجد وسائد لا بد من أن يسجل كل شئ، أليس كذلك؟ يجب إحصاء الاشياء وتسجيلها أليس هذا صحيحا؟ متى وعلى من وزعت كلها؟ ولكن عندنا لا يوجد من يسجل الوسائد،

حتى الأشخاص لا يسجلون!.. ولا يحصيهم... أحد!

ـ كيف هذا؟

ـ على هذه الشاكلة ببساطة! لعلك تظن أن احدهم قد سجل أن ايليا فونارنكو يعيش هنا؟ لا، ما من أحد! ما من احد يعرف ذلك! وما من أحد يعرفني. أوه! أ أنت تعرف أ أنت تعرف! وهناك كثير من أمثالي: نعيش هنا ثم نذهب لنعيش في مكان آخر ثم نعود بعدئذ. أنظر. هل تعتقد أن أحدا جاء بتيما الى هنا؟ لا ما من أحد! لقد جاء بنفسه. وهو هنا.

ـ هذا معناه أنه مسرور هنا.

ـ لا، لقد وصل منذ أسبوعين هاربا من اصلاحية بوغودوخوف، وكان يود أن يذهب الى اصلاحية غوركي.

ـ هل هم في بوغودوخوف على علم باصلاحية غوركي؟

ـ بلى! إن الجميع يعرفون ذلك وكيف لا؟

ـ طيب، ولماذا جاء وحده الى هنا؟

ـ هذا منوط بمن يروقه ذلك طبعا. يوجد كثير من

الأولاد الذين لا يحبون النظام. يقال أن النظام عندكم صارم: «سمعا وطاعة»، والنفخ فى البوق، يعنى أنه يجب تنفيذ الأمر راكضا، والاصطفاف ــ واحد، إثنان، ثلاثة. أرأيت؟ وبعدئذ يجب العمل. عندنا أيضا لا يريد الأولاد شيئا من هذا القبيل...

قال ماليكوف: ــ سوف يهربون.

ــ أولاد كورياج؟

ــ نعم... سوف يهرب أولاد كورياج فى كل جهة. يقولون هكذا: «إنكم ما تزالون لا تعرفون ماكارنكو؟ إنه يود أن يُمنح منحة، بينما نحن، يجب أن نعمل». سوف يهربون جميعا.

ــ إلى أين؟

ــ هل يعدمون الأماكن؟ أوه! إلى أى اصلاحية كانت.

ــ وأنتم؟

فسارع زايتشنكو الى القول مرحا: ــ نحن لنا رفقتنا. نحن أربعة معا. وهل تعرف؟ نحن لا نسرق.

5—1328

لا نحب هذا نحن. هذا كل شيء! أنظر الى تيما... لن يسرق لنفسه مدى الحياة بل للرفقة...

وعلت حمرة الخجل خدى تيما وهو جالس على السرير بينما كان يحاول أن ينظر إليّ من بين أجفانه التى انغلقت بحياء.

فقلت: — طيب، فالوداع أيها الرفقة. فسوف نعيش معا.

فقال جميعهم: — وداعا — وهم يبتسمون.

وتابعت طريقى. اذن أولاء الاربعة اصبحوا الى جانبى. ولكن عدا هؤلاء بقى مئتان وست وسبعون ولدا وربما أكثر. ولعل زايتشنكو كان على صواب؛ لم يكن الأولاد هنا مسجلين ولا محصيين هذا العدد المريع وغير المحصى قد هالنى فجأة. كيف إندفعت بهذه الخفة فى هذا المشروع المشئوم؟ أنا لا أخاطر فيه فقط بنجاحى بل أجازف بوجود الجماعة كله. وما دام هؤلاء الـ ٢٨٠ يبدون لى بشكل ثلاثة أرقام مكتوبة على الورقة كنت أعتد بقوتى، ولكن هؤلاء المئتين والثمانين ها هم الآن أمامى

قد طغوا بمجموعهم الكبير على عدد أولادى الضئيل، فانتابنى برد خانق وارتعدت فرائصى واجتاحنى ضعف وكدر مقلق.

ودنا ثالوث منى وسط الباحة. كانوا أولادا فى السابعة عشرة من أعمارهم روؤسهم حليقة بشكل استثنائى وأحذيتهم فى حالة جيدة. كان الأول يرتدى جاكيتا كستنائيا جديدا نوعا ما ولكن كان تحته قميص «مجعلك» وملوث بشئ من الطعام وكان الثانى يرتدى معطفا جلديا والثالث يرتدى قميصا أبيض نظيفا. كان صاحب الجاكيت يضع يديه فى جيوب بنطلونه وهو مائل برأسه الى كتفه، وفجأة صفر أمامى لحنا «أوديسيا» معروفا وهو يبدى أسنانا جميلة بيضاء. لاحظت عينيه الكبيرتين العكرتين تحت حاجبين أشقرين كثيفين. وبجانبه كان الاثنان الآخران يمسكان بأكتاف بعضهما ويدخنان، ولساناهما ينقلان السيغارة من طرف الفم الى الطرف الآخر. وإقتربت منا بعض اشباح من كورياج.

قال الأشقر بصوت عال وهو يغمز بعينه:

ـ ماكارنكو هذا؟ أليس كذلك؟

وقفت قبالته وأجبته بهدوء وأنا احاول بكل قواى أن لا أترك شيئا يستشف من وجهى:

ـ نعم هذا إسمى. وأنت ما إسمك؟

فعاد يصفر دون أن يجيب عليّ، وهو يتأملنى بعينه نصف المغلقة ويتأرجح على ساقه. ثم أدار فجأة ظهره وهز كتفيه وإبتعد بخطوات كبيرة وهو يفتش فى جيوبه ويصفر بلا إنقطاع. ولحق به رفيقاه وهما لا يزالان متشابكين وطفقا يغنيان بصوت مدو:

أنا فى ميعة الصبا
أسعى وراء اللذائذ فى المدن...

أما الأشكال التى كانت تحيط بنا فقد إستمرت تتفحصنى، وقال أحدهم بصوت خافت لجاره:

ـ المدير الجديد....

فقال الآخر كذلك: ـ لا فرق...

ـ بأى شئ تعتقد أن تبدأ ايها الرفيق ماكارنكو؟

والتفت فوجدت إمرأة صبية ذات عينين سوداوين تبتسم لى. إنه لمن الغريب أن يرى المرء هنا عقدة رقبة سوداء على قميص أبيض نظيف جيدا:

ـ أنا غوليايفا.

أعرفها إنها مرشدة ورشة الخياطة وعضوة الحزب الوحيدة فى كورياج. كان مرآها مبهجا للنفس: كانت بدينة نوعا ما ولكن قامتها ما زالت لدنة مرنة، وكان لها عقيصتان سوداوان تلتمعان وهما فتيتان أيضا؛ وكان ينبعث منها قوة روح لم تنفق بعد. فأجبتها بابتهاج:

ـ فلنبدأ معا.

ـ أوه لا، قد أكون لكم مساعدة سيئة، لا أدرى.

ـ سأعلمك.

ـ فى هذه الحالة، حسنا.... جئت لأدعوك الى رؤية البنات، إنك لم تذهب اليهن بعد. إنهن ينتظرنك.. بفارغ الصبر. إننى لأعتز بهن: فقد كن واقعات تحت تأثيرى وبينهن ثلاث من الشبيبة الشيوعية. هيا فلنذهب.

وإتجهنا صوب البناء المركزى بطابقين.

قالت غوليايفا: — لقد أحسنت فعلا بطلبك تسريح جميع الجهاز الادارى. أطردهم جميعا عن بكرة أبيهم دون أن تلتفت إلى احد... وأنا أيضا.

— أنت لا، لقد إتفقنا عنك. وأنا أعتمد تماما على مساعدتك.

كان مهجع الفتيات واسعا جدا يحتوى على ستين سريرا. لقد دهشت: كل سرير له لحاف عتيق وفقير إن صح التعبير وتحته شراشف ووسائد كذلك.

كانت الفتيات ينتظرننا فعلا. كن يرتدين فساتين رثة مرقعة، وكانت كبراهن سنا تبلغ الخامسة عشرة.

قلت لهن: — صباح الخير يا بناتى!

— ها قد جلبت لكن أنطون سيميونوفيتش: فقد كنتن تردن أن ترينه.

وهمسن بكلمة تهنئة ثم اقتربن بهدوء وهن يصلحن الأسرة لدى مرورهن. وفجأة شعرت بالشفقة على أولاء الفتيات الصغيرات وأحسست برغبة جامحة بأن أبهج

نفوسهن قليلا على الأقل. جلسن حولنا على الأسرة وأخذن ينظرن الى بحياء. ولم أستطع مطلقا أن أدرك لماذا أثرن الشفقة فى نفسى. ولربما بشحوبهن وشفاههن الشاحبة ونظراتهن الوجلة أو ربما بسبب فساتينهن المرقعة. وخطرت لى خاطرة: ليس من المسموح أن تلبس أمثال هذه الأسمال الرثة للفتيات فانهن يحتفظن بالخزى منها مدى الحياة. وسألتهن:

ـ هل من الممكن أن تقصصن عليّ قصة حياتكن يا بناتى؟

فسكتن ينظرن الىّ باسمات بشفاههن فقط. وإستبنت الأمر بوضوح فجأة: لا يوجد شئ يبتسم غير شفاههن. وأولاء الفتيات الصغيرات ليس لديهن حتى فكرة عما هى البسمة الحقيقية الحية. وتفحصت بتؤدة جميع الوجوه ثم رفعت وجهى صوب غوليايفا وسألتها:

ـ لعلك تعرفين أنا لدى تجربة، ولكن يوجد هنا شئ لم افهمه.

ـ ما هو؟

وفجأة إنبرت تلك الفتاة السمراء التى تجلس قبالتى بتنورة وردية قصيرة تظهر ركبتاها منها فقالت وهى تنظر الىّ بعينين شاخصتين.

— تعالوا بسرعة مع أولاد اصلاحيتكم لأن الحياة هنا خطيرة...

وإذ ذاك فهمت بسرعة البرق: إن وجه هذه السمراء الصغيرة ونظرتها المحدقة والتجعدت الوقتية على فمها كل هذا كان ينبعث منه الروع، وهذا ما يدعى ببساطة الخوف. فقلت لغولياليفا:

— إنهن مرتاعات.

— إن حياتهن شاقة قاسية يا أنطون سيميونوفيتش...

وإحمرت عينا غولياليفا وإبتعدت بسرعة إلى النافذة. فألححت فى السؤال:

— مم تخفن؟ إحكين!

وعرضن على لوحة حياتهن، فى أول الأمر كن يحكين بحياء وهن يتدافعن ويتكلمن متناوبات ثم إنطلقن بصراحة قاتلة، فعرفت انهن:

لا يشعرن باطمئنان نسبى إلا فى المهجع ،إنهن يخفن الخروج إلى الباحة لأن الأولاد يطاردونهن ويمسكونهن ويقولون لهن كلاما بذيئا، وينظرون إليهن فى دورة المياه ويفتحون عليهن الباب. وكثيرا ما يجعن لأنهم لا يتركون لهن ما يأكلنه فى المطعم. كان الأولاد يختطفون الأغذية ويحملونها الى مهاجعهم. وقد كان من الممنوع نقل الطعام الى المهاجع ؛ ولم يكن مستخدمو المطبخ ليسمحوا بذلك ولكن الأولاد ما كانوا ليعيروا إلتفاتة الى المستخدمين فكانوا ينقلون القدور والخبز ، أما الفتيات فلم يكن ليستطعن أن يفعلن ذلك. كن يذهبن إلى المطعم وينتظرن ثم يقال لهن بعدئذ أن الأولاد قد سلبوا كل شئ ولم يبق شئ للأكل. وفى بعض الأحيان كن يعطين قطعة خبز. وكان من الخطر البقاء فى المطعم لأن الأولاد يأتون إليه يتقاتلون ويسمونهن مومسات وأسوأ من ذلك أيضا ويسمعونهن جميع أنواع الكلمات البذيئة. كانوا يطلبون عدا ذلك أن يعطوا أشياء ليبيعوها ولكن الفتيات لا يعطين؛ وحينذاك كان الأولاد

يقتحمون المهجع فيتناولون لحافا أو وسادة ليبيعوها فى المدينة. وما كانت الفتيات يستطعن أن يغسلن ثيابهن إلا فى الليل، وقد صار هذا فى الليل شيئا خطرا: كان الأولاد يكمنون فى المغاسل ويعملون أشياء لا يستطيع المرء أن يقولها. كانت فاليا غورودكوفا ومانيا فاسيلنكو قد ذهبتا اتغسلا، ثم عادتا وظلتا تبكيان طيلة الليل. وفى الصباح رحلتا على الفور وهربتا ولا ندرى إلى أين. وإشتكت إحدى رفيقاتهن إلى المدير، واذ ذاك فى اليوم التالى بينما كانت ذاهبة الى المراحيض أمسكوا بها ولطخوا وجهها بذلك الشىء... فى تلك الاماكن. يحكى الجميع الآن بأن الأمور سوف تتغير ولكن كان هناك بعض الأولاد يقولون أن هذا سيان، لا جدوى منه لأن أولاد اصلاحية غوركى ضئيلو العدد وإنهم على كل حال سوف يطردونهم.

وبينما كنت أستمع اليهن كانت غوليايفا لا تحول نظرها عنى. فابتسمت وكانت إبتسامتى للدموع التى كانت تذرفها أكثر مما كانت لها.

وحينما إنتهين من سرد حكايتهن المؤثرة سألتنى برصانة فتاة ينادينها جميعهن سمينا:

ـ قل: هل مثل هذه الأشياء ممكنة فى ظل النظام السوفييتى؟

فأجبت:

ـ إن ما أتيتن على حكايته لفضيحة شنعاء وهذا غير مقبول بتاتا فى ظل النظام السوفييتى ولكن بعد عدة أيام يتبدل كل شئ ستكونن سعيدات ولن يمسكن أحد بسوء وسوف نطرح جانبا جميع هذه الفساتين.

فسألت إحدى الفتيات ذات شعر أشقر كانت جالسة على حافة النافذة متأملة: ـ عدة ايام؟

فقلت: ـ بعد عشرة أيام بالضبط.

وشرعت أتجول فى الاصلاحية إلى أن خيم ظلام الليل، فكنت مضطربا بأشق الخواطر.

فى هذا النطاق الدائرى الذى يحيط به منذ اقدم الأزمنة أسوار سميكة عتيقة، وحول هذه الكنيسة الخرقاء المقشورة كلها وفى كل متر مربع من هذه الأرض القذرة،

كانت القضايا التربوية قد نبتت بكثافة طاغية مثل الاعشاب الضارة وفي الاصطبل القديم المتداعى والغارق في زبلة؛ وفي زريبة الأبقار التي تستخدم مأوى لمجموعة من الفتيات القديمات من نوع البقر. وفي باحة المزرعة كلها، وفي سياج البستان المعدوم، الذى قطع منذ أمد بعيد، وفي جميع هذا النطاق الذى كان يحيط بي، أقول: في كل اولئك كانت تغرس السوق اليابسة للتربية الاجتماعية. ففي مهاجع الأولاد وفي مساكن الجهاز الادارى الخاوية وفي النوادى المزعومة وفي المطبخ وفي المطعم كانت تتأرجح على هذه السوق الأثمار المنتفخة السامة التي لا بد لى من أن التقمها في الأيام المقبلة.

بهذه الخواطر فار الغضب في رأسي. فأخذت أتحسس حنق عام ١٩٢٠. وبرز من ظهرى فجأة شيطان الغواية للحقد المسعور. فأردت على الفور في نفس اللحظة أن أمسك بأحدهم من خناقه وأدس رأسه في هذه الأكوام وهذه الحفر المائية النتنة، وأن أتطلب منه أكثر الأعمال

بساطة.... لا من التربية ولا من نظرية التربية الاجتماعية، ولا من الواجب الثورى، ولا من الحماسة الشيوعية لا، لا، بل من الحس السليم المجرد، من إستقامة البورجوازية الصغيرة العادية الزرية. لقد خنق الغضب فى نفسى الخوف من الفشل. أما بوادر القلق التى ظهرت فى لحظة فقد أزالها الوعد الذى قطعته للفتيات. إن أولاء العشرات من الفتيات الشاحبات القابعات بصمت وهن مرتاعات، اللواتى ضمنت لهن دون تفكير حياة إنسانية فى مهلة عشرة أيام، أقول ان أولاء الفتيات قد اصبحن فجأة فى روحى ممثلات ضميرى.

خيم الظلام شيئا فشيئا؛ ولم يكن من إضاءة فى الاصلاحية. ومن جدران الدير كان يدلف إلى الكنيسة غسق كئيب باهت. وأخذت جميع الزوايا والأخاديد تعج بالأولاد المشردين، يختطفون الحساء ويبيتون الليل. ولا يصل إلى الاسماع ضحك ولا غناء ولا صوت نشيط. وفى بعض الأحيان كانت تسمع غمغمة مخنوقة وبعض المشادات المبتذلة. كان سكرانان يصعدان سلم

المهجع معدومة الدرجات وهما يتفوهان بألفاظ نابية، ومن خلال الظلمات التى تخيم كان فيتكوفسكى و فولوخوف يراقبانهما بازدراء صامت.

٣. حياة

فى اليوم التالى فى الساعة الثانية، وقع المدير بصلف صلك تسليم السلطات مع تسريح جميع الجهاز الادارى وركب عربة أجرة ومضى. وبينما كنت أنظر الى قفاه يبتعد، كنت أحسد نجاح هذا الرجل الباهر: إنه طليق كالعصفور بعد اليوم وما من إمرئ سوف يلاحقه حتى بحجر.

تعريت من تلك الأجنحة ولذلك أتنقل بتثاقل وسط أشخاص كورياج الأرضيين ومعدتى قد إنتابتها عضة فراغ شديد.

ها هو فانيا شيلابوتين وقد غمرته أشعة شمس أيار. إنه يتلألأ كالألماس من الحياء والابتسامة. وكان الناقوس

النحاسي المثبت في جدار الكنيسة يحاول جهده أن يتلألأ معه. ولكنه كان عتيقا ووسخا فما كان ليعرف غير إظهار قسمات شاحبة الى الشمس. زد على ذلك أنه مصدوع، أما فانيا فقد جهد عبثا فلم يظفر منه بطائل. ومع ذلك كان لا بد من أن يقرع نداء الى الاجتماع العام .

إن شعور المسئولية المقلق الثقيل مخالف للعقل بطبيعته. فهو يماحك ويؤنب على كل أمر تافه ثم يحاول بمكر أن يتسلل الى أصغر ركن ليقبع فيه مرتعدا من الغضب والقلق. وبينما كان شيلابوتين يقرع الناقوس تعلق به: كيف يمكن المرء أن يقبل أن اصواتنا مشوهة كهذه تنهال على الاصلاحية؟

كان فيتيا غوركوفسكي واقفا الى جانبي يتفحص وجهي بانتباه. وإلتفت بنظره مهتما الى برج الناقوس عند أبواب الكنيسة، وإتسعت حدقتاه وفجأة غامتا وإتقدتا خبثا. فاطلق فيتيا ضحكة صامتة وهو يمد عنقه وإحمر قليلا وقال بصوت أجش:

— وأيم الحق، سوف ننظم هذا على الفور!

وسارع الى برج الناقوس وعقد اجتماعا مع فولوخوف أثناء الطريق، ومع ذلك فإن فانيا للمرة الثانية يرغم الناقوس على أن يسعل فضحك قائلا:

ــ هل لا يفهمون؟ أقرع وأقرع وليست أية نتيجة.

كان النادى قد إستقر قراره فى كنيسة الشتاء القديمة. كان ذا نوافذ عالية لها شبك حديدية، مليئا بالغبار وفيه مدفأتان. وفى المحراب النصف دائرى، طاولة صغيرة شاحبة على مصطبة مثقوبة. إن الحكمة الصينية التى تؤكد أن «الجلوس أفضل من الوقوف» لا تعترف بها فى كورياج؛ فلا شئ للجلوس عليه فى هذا النادى. وأولاد كورياج لا يفكرون فى ذلك. وفى بعض الأحيان كان أحدهم يمد من الباب رأسه المشعث وسرعان ما يختفى. إنهم يضربون فى الباحة جماعات مؤلفة من ثلاثة أولاد أو أربعة وهم ينتظرون بفارغ الصبر الطعام إذ أنه فى هذه الفترة من إزدواج السلطة سوف يقدم فى وقت متأخر اليوم. ولكن ليس هناك سوى السوقة: أما المحركون الحقيقيون لحضارة كورياج فقد ظلوا مختبئين.

لم يعد هناك من مربين. أعرف الآن السبب. فى تلك الليلة لم نذق طعم النوم على طاولات قاسية فى غرفة الأحداث الطلائع، وكان الأولاد يقصون على الحكايات الجذابة المستقاة من حياة كورياج.

كان المربون الأربعون فى الاصلاحية لهم أربعون غرفة. فقبل عام ونصف كانوا قد ملأوا هذه الغرف بشواهد مادية من الثقافة، أغطية طاولات مطرزة وتخوت وثيرة. وكان لديهم أيضا قيم أخرى منقولة وأكثر سهولة فى الانتقال من مالك إلى آخر؛ وهى ما إبتدأ يتنقل إلى أيدى أولاد كورياج بأيسر طريقة، كانت معروفة فى روما القديمة باسم السرقة بالكسر. هذا الشكل القديم للاكتساب إنتشر إنتشارا واسعا فى الاصلاحية حتى أن المربين كانوا يسرعون واحدا بعد الآخر لنقل أخر أغراضهم ذات الاستعمال المدنى إلى المدينة؛ بحيث لم يبق فى مساكنهم سوى أثاث وادع جدا وذلك إذا إستطاع المرء أن ينعت أعداد جريدة «ايزفيستيا» المنشورة على الأرض بالأثاث، إذ كان المربون المناوبون يستخدمونها فراشا.

ولكن لما كان المربون فى كورياج قد إعتادوا ان يقلقوا ليس فقط على أغراضهم بل أيضا على حياتهم وبصورة عامة على سلامتهم، فان غرفهم الأربعين قد أتخذت بوقت قليل طابع الحصون و بين جدرانها كان الجهاز التربوى يمضى بشرف ساعات مناوبة الخدمة هناك. لا قبلئذ ولابعدئذ لم أر فى حياتى إستعدادات هائلة للدفاع كتلك التى ثبتت فى النوافذ والأبواب وغيرها من المنافذ فى مساكن مربى كورياج: من مزالج ضخمة وقضبان حديدية ثخينة وأقفال أوكرانية وأقفال روسية يزن واحدها حوالى عشرين اوقة وهى معلقة مجموعات فى أطر النوافذ.

ومنذ أن وصلت الكتيبة المختلطة الطليعية لم أجد أحدا من المربين فكان قرار التسريح رمزيا، حتى مساكنهم تلقيتها كاصطلاحات لأن زجاجات الفودكا والفسفس هى الاشياء الوحيدة التى كانت تدل على وجود حياة إنسانية كانت فى هذه الغرف.

ومر شخص يدعى لوجكين وهو بشكل وعمر غير محددين مر كالبرق أمامى. وحاول أن يبرهن لى عن قدرته

التربوية وأن يبقى فى اصلاحية غوركى كى «أتابع تحت رئاستكم قيادة الشبيبة نحو التقدم» وقد دار حولى نصف ساعة كاملة و هو يتمنطق بأنواع تفاصيل دقيقة من القواعد التر بو ية.

ـ هنا الفوضى، فوضى كاملة! أنظر: إنك تقرع الجرس ولا يأتون. لماذا؟ سأقول لك: إن ما يلزم هو اللباقة التربوية. إنهم لعلى صواب بالقول بأنه يلزم سلوك شرطى. ولكن كيف يكون ـ معذرة ـ ما دام الولد يسرق ولا يجد من يردعه؟ أنا أعرف كيف أعاملهم، إنهم يقصدوننى دائما ويحترموننى. ومع ذلك... حينما ذهبت مدة يومين الى حماتى المريضة، نزعوا الزجاج ونهبوا كل شئ من بيتى بحيث أننى بقيت كما ولدتنى أمى ما عدا القميص. وتساءلت لماذا هذا؟ إسرقوا الذين يسيئون اليكم، أنا موافق، ولكن لماذا تسرقون الذين يحسنون معاملتكم؟ أقول: إن ما يلزم هو اللباقة التر بو ية. أجمع الأولاد وأتحدث معهم مرة وثانية وثالثة. أفهمت؟ أثير إهتمامهم فيمشى الحال. أطرح عليهم مشكلة صغيرة. فى جيبى بسبعة كوبيكات أكثر مما فى الجيب

الآخر وفى الكل ثلاثة وعشرون كوبيكا، فكم فى كل جيب؟ هذه طريقة بارعة موفقة أليس كذلك؟

وحول لوجكين عينيه بمكر.

فقلت له بأدب: ــ طيب ماذا؟

ــ لا، قل أنت كم يوجد؟

ــ كم يوجد؟ من أى شئ؟

ــ قل كم يوجد من الكوبيكات فى كل جيب.

ــ أتريد أن أقول لك؟

ــ نعم قل كم يوجد من الكوبيكات فى كل جيب.

فقلت غاضبا: ــ إسمع أيها الرفيق لوجكين: ــ هل درست فى أحد الأمكنة؟

ــ وكيف لا؟ ولكن أنا على الأخص قد علمت نفسى بنفسى. إننى طوال حياتى أتعلم نفسى بنفسى. لم أدخل دور المعلمين ولا معاهد التربية. وأقول لك: كان لدينا من تخرج من المعاهد العالية، فواحد لديه شهادة بالاختزال وواحد قضائى ولكن حاول أن تدفع إليهما هذه المشكلة الصغيرة... او أيضا: أخوان لهما تركة...

– إذن هل المختص بالاختزال هو الذى وضع هذا على الحائط؟

– نعم هو. كان يود على الدوام أن ينشىء حلقة للاختزال، ولكن بعد ما نهبوه قال: لا أريد أن أعمل وسط هذه الجهالة فهجر الحلقة، وإنصرف الى أعماله كمرب.

وفى النادى كانت قطعة من الورق المقوى معلقة قرب المدفأة وقد كتبت عليها هذه العبارة:

الاختزال طريق الاشتراكية

تكلم لوجكين طويلا ثم تبخر وزال بسرعة. وإننى لأذكر فقط أن فولوخوف همس بين شفتيه فى أعقابه هذا الوداع:

– يا له من ثرثار!

كانت تنتظرنا فى النادى أحداث كريهة مزعجة: فلم

يحضر أولاد كورياج الاجتماع العام. كانت عينا فولوخوف تتأملان الجدران العالية العارية تأملا حزينا.

وكان كودلاتي وقد تملكه الغضب وتشنج فكان يغمغم بكلام غير مفهوم. وكانت تعلو فم ميتيا إبتسامة فيها القلق والاحتقار، ولم يكن سوى أوفتشارنكو وحده محتفظا بهدوئه يتابع حديثا بدأه منذ وقت طويل:

— الشي الأساسي هو أن نحرث... ثم أن نبذر. هل هذا ممكن، فكروا إذن: فى شهر أيار تظل الجياد عاطلة عن العمل وكل شئ يبقى على حاله!..

قال فولوخوف: — ما من أحد فى المهاجع، إنهم جميعا فى المدينة، — وإستعمل عبارة أدق، فأطلق شتيمة دون أن يتحفظ من وجودى.

وإقترح كودلاتي: — لن يقدم لهم طعام قبل أن يحضروا الاجتماع.

قلت : — لا.

فصاح كودلاتي: — كيف «لا». وبعبارة صريحة: ماذا نعمل فى البقاء هنا؟ يجب أن نرى فى الحقول

ما فيها من اعشاب ضارة، ولم تحرث كذلك، ما هذا؟ وهم هناك يقصفون. والكسالى طلقاء أحرار، فماذا إذن؟

مرر فولوخوف لسانه على شفتيه الجافتين من الغيظ فقال:

ــ هيا يا أنطون سيميونوفتش الى غرفتنا لنتحدث.

ــ والطعام؟

ــ سوف ينتظرون، ولن يتخطفهم إبليس.. ثم هم فى المدينة على كل حال.

وفي غرفة الأحداث الطلائع، وما إن جلس الجميع على المقاعد حتى ألقى فولوخوف هذا الخطاب:

هل يجب أن نحرث؟ وأن نبذر؟ ماذا أيها المسكين! ماذا يوجد لنبذره ولا يوجد عندهم شئ حتى البطاطا. دعهم إلى جهنم سواء عملوا أم لا... أما نحن فسوف نبذر وحدنا ولكن لا يوجد شئ. ثم... كل هذه القذارة والعفونة. عندما يصل أولادنا سوف نخجل، أن رجلا نظيفا لن يعرف أين يضع رجله. ثم المهاجع والفرش والأسرة والوسائد؟ والطقوم؟ والجميع حفاة وأين الثياب البيضاء؟

ثم تأملوا، الصحون والملاعق، لا شئ؟ بأى شئ سنبدأ؟ يجب البدء بشئ ما!

كان الأولاد ينظرون إلىّ نظرة تأمل متلهف كأنما أعرف بأى شئ سوف نبدأ.

إن ما كان يقلقنى ويقض مضجعى، لم يكن أولاد كورياج بقدر التفاصيل التى لا تحصى لعمل مادى صرف كان يشكل متاهة معقدة جدا لا تحل حتى أن الأولاد الثلاثمئة قد يضيعون فيه.

كان ينبغى لى بموجب العقد مع جمعية حماية الطفوله، أن أستلم عشرين ألف روبل كى أصلح كورياج وأرممها، ولكننى كنت أرى أن هذا المبلغ إن هو إلا نقطة ماء من بحر خضم من الحاجات الماسة. لقد رأى الأولاد من اصلاحية غوركى رؤية صحيحة عندما وضعوا قائمة الأشياء الناقصة. إن عوز كورياج العجيب قد إنكشف ستره بشكل كامل عندما عمل كودلاتى على إستلام العتاد المادى. كان المدير يقلق عبثا من أن وثيقة التسليم سوف تمتلئ بالتواقيع التى لا قيمة لها.

وكان المدير وقحا: الصلك كان قصيرا. كانت المعامل تحتوى على عدة آلات للعمل، والاصطبلات فيها عدة خيول هرمة ولا شئ غير ذلك: لا أدوات ولا مواد أولية ولا آلات زراعية. وفى زريبة الخنازير الحقيرة كانت عدة خنازير تقبع بحالة مزرية غارقة فى البول ولم يستطع الأولاد أن يمسكوا أنفسهم عن الضحك لدى رؤيتها لأن هذه الحيوانات الخفيفة والخبيثة ذات الرأس الغليظ القائم على قوائم نحيلة كانت تذكرنا بشبهها قليلا لخنازيرنا الانكليزية. وعندما نبش كودلاتى محراثا فى ركن من الباحة سر به سرورا كأنما لقى قريبا له. وقبل ذلك إكتشف مشطا للحقل تحت كومة من القرميد القديم. ولم يكن فى المدرسة سوى عدة أرجل الطاولات والكراسي، وكذلك حطام ألواح الصف وهذه ظاهرة طبيعية تماما لأن كل شتاء له نهاية ويمكن أن يبقى عند رب البيت للربيع ذخر صغير من المحروقات.

كان يجب أن نشترى كل شئ وأن نعمل كل شئ وأن نبنى كل شئ. وقبل كل شئ أخر كان يجب بناء

المراحيض. إن الطريقة التربوية لا تقول شيئا عن المراحيض وربما لهذا السبب أستغنى فى كورياج عن هذه المؤسسة المفيدة.

كان دير كورياج مبنيا على مرتفع ذى سفوح منحدرة من كل جانب وكان المنحدر الجنوبى وحده تنقصه أسوار، ومن هناك من فوق بركة ماء تحولت إلى مستنقع كان المشهد ينفسح على سقوف القش فى بودفوركى. مشهد لا بأس به على كل حال؛ منظر أوكرانى لطيف يؤثر فى قلب كل شاعر عاطفى تذهب على هذه الكلمات فى الشعر: أم، كوخ وفتيات مع كمية خفيفة مضافة من بركة ماء واشجار الكرز. كان سكان كورياج يتمتعون بهذا المنظر الجميل ويكافئون سكان بودفوركى بجزاء سنمار. فلا يقدمون الى أبصار هؤلاء السكان سوى مشهد الأولاد المقرفصين بصف طويل فوق الأخدود... وهكذا يعملون فى التحويل الأخير للملايين المخصصة فى ميزانية التربية الاجتماعية، الى نتاج لا تعود له قيمة.

ان القضية المنوه عنها قد سببت كثيرا من العذاب

لأ ولادى. وقد كان ميشا أوفتشارنكو جادا كل الجد وفصيحا كل الفصاحة حينما قدم هذه الشكوى:

ـ ولكن ماذا يعنى هذا اخيرا؟ كيف سنعمل؟ هل يجب أن نذهب الى خاركوف من أجل هذا؟ وبأى شئ إذن؟

ولذلك لدى خروجنا من الاجتماع كان نجاران من بودفوركى عند مدخل غرفة الأحداث الطلائع، وكان أكبرهما سنا رجل ذو هيئة عسكرية بقبعة من الخاكى فأيد مشروعى بحماسة:

ـ طبعا ليس هذا مقبولا، ما دام المرء يأكل فلا يمكن أن يبقى على هذه الحال.... وبصدد ألواح الخشب، يوجد مستودع فى ريجوف. لا تثقل على نفسك فإن الجميع يعرفوننى هناك. سلمنى المبلغ اللازم ونحن سنصنع لكم مكانا لم ير الكهان له مثيلا. وإذا أردت طبعا أن يكون البناء رخيصا أو تكون الألواح دقيقة فان هذا سيجعل لكم بناء خفيفا، ولكن هذا حسب مشيئتكم ورغبتكم . أما أنا فأنصحك بألواح

خشبية بسمك بوصة ونصف او بوصتين. فسوف يكون هذا كما يقال: أفضل وأصح: فالريح لا تحدث تيارا من الهواء، وفى الشتاء تشعرون بالهدوء، وفى الصيف لا تشقه حرارة الشمس.

ولأول مرة فى حياتي — على ما كان يبدو لى — كنت أشعر بحنان حقيقى فى تأمل هذا الرجل الممتاز؛ بنّاء ومنظم للشتاء والصيف، والرياح و«الهدوء». حتى إسمه كان حلوا: بوروفوى. فسلمته حزمة من الأوراق النقدية وتلذذت أيضا بالطريقة الممتعة التى أوحى فيها مساعده الولد غض الاهاب:

— أنا ذاهب الآن يا فانيا لأجلب الخشب، وأنت ابدأ. أركض وأجلب رفشك وإجلب معها رفشى. وفى خلال هذه الفترة سنبنى لهم بيتهم. ولكن لا بد أن يأتى أحد ليرينا المكان والشكل...

كان قزغيزوف وكودلاتى يبسمان فذهبا ليقدما هذه الايضاحات بينما كان بوروفوى يربط الدراهم فى خرقة ويؤكد لى مرة أخرى تأييده المعنوى:

ـ سنعمل لكم هذا ـ أيها الرفيق المدير ـ كن مطمئن البال والنفس.

كنت مطمئن البال والنفس. كان بالى يشعر بارتياح كبير، فقد نفضنا البلادة والركود للمرحلة التحضيرية وبدأنا العمل التربوى فى كورياج.

وإن المشكلة الثانية التى حللناها حلا مرضيا فى تلك الليلة مرتبطة أيضا بمجرى الحياة العادية: إنها مشكلة الصحون والملاعق. ففى المطعم ذى القبة الذى كانت على جدرانه تظهر من تحت الجبصين الصور القاتمة الرصينة للأحبار والسيدة العذراء وفى بعض الأماكن أصابعهم المباركة، كانت هناك طاولات ومقاعد، ولكن فى كورياج لا يعرف المرء أى نوع للصحون وبعد نصف ساعة أمضاها فولوخوف فى الاصطبل فى جهود وتمثيلات دبلوماسية أجلس إيفغنييف على عربة عتيقة وأرسله الى المدينة بمهمة ليشترى أربعمئة زوج من الصحون ومثلها من الملاعق الخشبية.

وعندما كانت العربة تتخطى الباب حياها الأولاد بصياح البهجة وتبعتها العناقات والمصافحات بالأيدى. لقد وصلت إلى خياشيم الأولاد نفحة مألوفة من الفرحة فأخذوا ينطون عند المدخل. وقد فعلت أنا مثلهم كذلك؛ ووقعت على الفور بين يدى كارابانوف الذى إعتاد منذ قليل أن يرى قوته على قفصى الصدرى.

كانت الكتيبة المختلطة السابعة هناك بأكملها بقيادة زادوروف، وشعرت فى قرارة نفسى أن مجموعة مواطنى كورياج المخيفين قد إستحالت فجأة الى مشكلة صغيرة تافهة حتى إن لوجكين نفسه قد رفض أن يأخذها مأخذ الجد.

وقد كانت فرحة كبيرة لنا أن نجد فى هذه الساعة الحرجة جميع طلابنا فى الكلية العمالية: بورون الشديد البأس والرصين، وكارابانوف الذى يبهج المرء أن يتبين فى قرارته المتحمسة الشغوفة تهذيب الثقافة الذى يضعه العلم، وأنطون براتشنكو الذى إتسعت نفسه الرحبة الاطار الضيق لمهنة البيطرة: وماتفى بيلوخين المرح الكريم

وأوسادتشي الرصين المشرب بالفولاذ، وفيرشنيف المثقف والساعى وراء الحقيقة وماروسيا ليفتشنكو الذكية ذات العينين السوداوين وناستيا نوتشيفنايا، وغيورغيفسكى «ابن حاكم إركوتسك» وشنيدر وكرابينيك وغولوس وأخيرا ولدى المفضل آلكسندر زادوروف قائد الكتيبة المختلطة السابعة. كان أولاد الكتيبة القدماء سيغادرون الكلية عما قريب، وما كنا لنشك أبدا فى أنهم سوف ينجحون فى التعليم العالى. على أنهم قد ظلوا فى أعيننا أولاد الاصلاحية أكثر منهم طلابا، وفى هذا الحين لم يكن لدينا الوقت لاحصاء مآثرهم المدرسية. وبعد كلمات الترحيب الأولى إجتمعنا من جديد فى غرفة الأحداث الطلائع. وتسلل كارابانوف وراء الطاولة وتربع على الكرسى وقال:

ـــ نحن نعرف يا أنطون سيميونوفيتش، أن الأمر واضح بيّن: النصر أوالقبر! وهنا نحن جئنا!

وسردنا قصة يومنا الأول، فعلت جباههم سحب قاتمة وتبادلوا نظرات القلق فى حين كانت الكراسى

تحتهم تصرف صريفا حادا. نظر زادوروف الى النافذة متأملا مغمضا عينه قليلا:

ــ ولكن لا... القوة لا سبيل إليها الآن.

إنهم كثيرون حقا!

فحرك بورون كتفيه الثقيلين وقال باسما:

ــ أنت تفهم يا ساشا. لسنا بصدد عددهم. فليكونوا كثيرين فلا قيمة لكثرتهم. ليس العدد الذى يعوقنا ولكن ــ لعنة الله ــ بما نتمسك؟ تقول إنهم كثيرون ولكن أين هم؟ أين اذن؟ بمن نبدأ؟ لا بد بشكل من الاشكال... نعم لا بد من لـّم شعثهم، وكيف السبيل الى ذلك؟

دخلت غوليايفا لتسمع حديثنا وأجابت بابتسامة تشفعها نظرة ارتياب من كارابانوف وقالت:

ــ لم شعثهم جميعا، لن تتوصلوا أبدا إلى ذلك: ما من سبيل إلى ذلك!

قال سيميون حانقا: ــ سنرى! كيف «ما من سبيل إلى ذلك»؟ سوف نعمل ذلك! مئتان وثمانون ربما لا

يكونون ولكن سيكون حتما مئة وثمانون، سوف يأتون. إذن سوف نرى. ماذا نعمل على هذه الكراسى؟

وضعت خطة العمل الآتية. سوف نقدم الطعام على الفور. إن شعب كورياج خاوية بطونهم، فقد كانوا ينتظرون جميعا الأطعمة فى المهاجع. طيب، دعوا هؤلاء الأوباش ليأكلوا! ولكن كان يجب علينا جميعا أن نطوف فى المهاجع أثناء الطعام لنقوم بالدعوة. يقال لهؤلاء الأوغاد: تعالوا إلى الاجتماع، انتم بشر أم ماذا! تعالوا. هذا بالنسبة لكم — يا حفنة الديدان — شئ ممتع: إن حياة جديدة تنفتح آفاقها لكم، ولكنكم، كل واحد منكم يزحف إلى ثقبه كحمير القبان. فاذا كان هناك أحد يسعى وراء الشجار لا نشتبك معه. ولعل الأفضل أن يقال له: أنت يا بطل قدر الحساء، تعال إلى الاجتماع واحلك كل ما تشاء لا أكثر. وبعد الطعام يقرع جرس الاجتماع.

وعند مدخل المطبخ كان عدد من الأولاد جالسين ينتظرون توزيع الطعام. وكان ميشا أوفتشارنكو

واقفا في الباب يلقى درسا على ذلك الأشقر الذى إهتم البارحة بإسمي.

— ينبغى أن لا يكون طعام لمن لا يشتغل. وأنت تقول عكسه. لا يوجد من أجلك. أ فهمت أيها الأ خ؟ ينبغى لك أن تفهم جيدا إذا كان فى رأسك دماغ. وإذا كنت قد قدمت لك الطعام فهذا تكرم منى وفضل؛ لأنك لم تحصله أنت. أفهمت يا حبيبى؟ كل إمرئ ينبغى أن يعمل لأجل رزقه، وأنت بما أنك كسول متوانٍ يا صديقى الصغير، فلا يوجد شئ لك. يمكننى أن أقدم لك صدقة، هذا كل شئ.

كان الولد الأشقر يلقى نظرة الوحش المهان على ميشا. أما العين الأخرى فلم تكن تنظر، وكانت هيئته بصورة عامة قد طرأت عليها منذ اليوم الفائت تحولات كبيرة، فبعض أقسام الوجه قد إنتفخت كثيرا وأخذت لونا مزرقا. أما الشفة العليا والخد الأيمن فكانا ملوثين بالدم. هذه الملاحظات سمحت لى أن أسأل ميشا سؤالا جديا:

— ما هذا؟ من رتبه هذا الترتيب؟ —

ولكن ميشا إبتسم برصانة وشك أننى قد طرحت السؤال طرحا صحيحا:

ـ لماذا تسألنى أنا يا أنطون سيميونوفيتش؟ هذا ليس بوزى، هذا بوز خوفراخ. أنا أعمل ما على من عمل، يمكننى أن أقدم تقريرا مفصلا عن عملى لمديرنا، قال لى فولوخوف: إبق عند الباب ولا تسمح لأحد أن يدخل المطبخ! وها أنذا بقيت. هل سعيت وراءه أم ذهبت لألقاه فى المهجع أو بالأصح هل سعيت إلى الشجار معه؟ ليقل خوفراخ نفسه. فجاء إلى هنا حيث لا عمل له، وكان فى وسع أن إصطدم بشئ بسبب حماقته.

وأخذ خوفراخ فجأة يبكى ويهز رأسه باتجاه ميشا وعبر عن وجهة نظره:

ـ طيب! تريد أن تجوعنا، طيب، ولكن هل يخولك هذا الحق بضربى على وجهى! أنت لا تعرفنى؟ طيب، سوف تعرفنى!..

ولم يكن تحديد المعتدى قد صيغ فى ذلك الوقت فكان علىّ أن افكر. إن حالات غامضة كهذه قد حدثت

فى التاريخ، وإن حلها قد ترك دائما مجالا الى صعوبات كثيرة. وتذكرت كلمات نابوليون بعد قتل الأمير أنغيينسكى:

«قد يكون ذلك جريمة ولكنه ليس خطأ». (٤)

فاتخذت الحد الوسط بشكل فطن:

ـ بأى حق ضربته؟

كان ميشا ما يزال يبتسم، فمد لى يده بسكين حادة:

ـ أرأيت هذه السكين؟ من أين أخذتها؟ ربما سرقتها من خوفراخ؟ لقد ألقيت خطب كثيرة هنا. قال فولوخوف: لا تسمح لأحد بدخول المطبخ فلم أتحرك من هنا، ولكنه هو الذى جاء مع سكينه وقال لى: أعطنى دربا! وأنا طبعا لا أسمح له يا أنطون سيميونوفيتش، ولكنه ما لبث أن عاود الكرة قائلا: أعطنى دربا وإقتحم. وإذ ذاك دفعته بلطافة وتهذيب. لقد دفعته ولكن هذا الأحمق لوخ بسكينه بيده. إنه لا يمكنه أن يفهم ماذا يعنى الأمر، وكأنه مهووس.

ـ ومع ذلك فقد ضربته، أنظر... حتى الدم... هل فعلت هذا بقبضة يدك؟

نظر ميشا الى قبضتى يديه وخجل:

— يداى ماكى طبعا، أين تريد أن أضعهما؟ واكن لم أتحرك من مكانى! قال لى فولوخوف: إبق هنا فبقيت. ولكنه هو الذى أخذ يلوح بسكينه كالمهووس.

— ولكن أنت لم تلوح فى الهواء بشىء؟

— ومن يستطيع أن يمنعنى من ذلك؟ أنا فى مركزى، واكن لى مع ذلك الحق أن أنقل ساقى، ولنفرض أنه لا حاجة لى بذراعى بهذا الجانب، فيمكننى أن أنقله إلى الجانب الآخر. فهو يصطدم به. فالذنب على من؟ عليك أن تعرف أين تذهب يا خوفراخ! لنفرض أن قطارا يمر.. أنت تراه يمر فابتعد وإفتح عينك. ولكن إذا وقفت فى طريقه مع سكينك، وبما أنه طبعا ليس لديه الوقت ليحيد عنك فلا يبقى منك شيئا أو بشكل آخر: إذا إقتربت من ماكينة تعمل فيجب أن تنتبه فلست طفلا رضيعا!

كان ميشا يقدم إلى خوفراخ كل هذه الشروح بصوت وديع فيه شئ من الحنان وهو يستعين بحركة

واضحة مقنعة بيده اليمنى ليبين خط سير القطار وأين ينبغي لخوفراخ أن يقف. كان خوفراخ يعيره إنتباها صامتا؛ وأخذت أشعة شمس أيار تجفف الدم على خديه. كانت جماعة طلابنا تتابع برصانة أحاديث ميشا أوفتشارنكو الذى كانوا يقدرون موقفه الحرج فأعطوه ما يستحقه من الحكمة المتواضعة فى حججه.

كان أهل كورياج قد تجمهروا اثناء حديثنا. فميزت على وجوههم علامات الاعجاب التى أضفاها جدال ميشا المنطقى الحازم الذى فيه صفة جذابة فى نظرهم لأنه كان يخرج من فم الغالب القاهر. ولاحظت برضى أننى قد توصلت إلى استكناه شئ على وجوه أولادى الجدد. وإهتممت بشكل خاص بالاشارات الخفية لفرحة ماكرة كأنما هى حروف برقية ممحوة، كانت تبرز من خلال طبقات الوسخ ولطخات الحساء. ولم يكن هذا الشعور يبدو بحروف واضحة إلا على وجه فانيا زايتشنكو كأنما كتب على شريط لافتة العيد. كان واقفا ويداه على حزام بنطلونه الصغير ورجلاه الحافيتان متباعدتان

وهو يتفحص باهتمام حاد ضاحك هيئة خوفراخ. وفجأة أخذ يفحص الأرض برجليه ويغنى أكثر مما يقول وهو يقلب إلى الوراء قامته الخفيفة.

– إذن لا يروقك يا خوفراخ أن تتلقى ضربات على بوزك؟ هذا لا يروقك لا؟.

فقال الآخر بصوت متجهم: – أسكت أيها الجرادة!

– ها!.. لا يحب هذا! وأشار فانيا إلى خوفراخ باصبعه. ضربوا على بوزه. وهذا كل شئ!

فهجم خوفراخ على زايتشنكو ولكن كارابانوف وضع يده فى الوقت المناسب على كتفه التى هبطت إلى الأسفل كثيرا حانيا قامته كلها فى جاكيته المدنى. غير أن فانيا لم يرتع وإنما إقترب من ميشا أوفتشارنكو. إلتفت خوفراخ صوب سيميون بفم مبروم وتملص فجأة. فابتسم سيميون إبتسامة طيبة. أما عينا خوفراخ الصافيتان ذات البريق الشرس فقد كانتا تدوران فى حلقة الحاضرين وحدقتا من جديد فى عين فانيا البنية المرحة. كان خوفراخ مضطربا بشكل بيّن: فالهزيمة والوحدة والدم ما كاد

يجف من على خديه وتوبيخ ميشا وإبتسامة كارابانوف، كل هذا كان يتطلب وقتا للتحليل مما زاد الأمر صعوبة عليه بالانفصال عن وضاعة فانيا الكريهة وبتهدئة عناده في تحديه العنيف بالوقاحة الشديدة. ولكن فانيا رد على هذا التحدى بهيئة قوية جدا من السخرية اللاذعة:

ـ لقد أصبحت رهيبا مخيفا... لن أنام اليوم! سأموت من الخوف. ثم هذا كل شئ... ثم هذا كل شئ!

وطفق أولاد غوركي وأولاد كورياج يضحكون؛ وقال خوفراخ مصفرًا:

ـ يا وغد! ـ وتهيأ للانقضاض بوثبة على شاكلة وثبات الصعاليك الأفاقين.

قلت:

ـ يا خوفراخ!

فسألنى بانتهار: ـ طيب، ماذا تريد؟

ـ تعال الى هنا!

لم يسارع لاطاعتى، فكان يتفحص حذائى وهو

ينقب في جيبه كعادته. وبصرامة إرادتي الحازمة أردفت القول:

— قلت لك، إقترب!

وسكت الجميع حولنا ما عدا بيتيا ماليكوف الذي كان يهمس بصوت مرتاع:

— أوهو!

وإتجه خوفراخ اليّ وهو ممتعض وينظر اليّ شزرا محاولا أن يزعجني. فوقف على بعد خطوتين مني وأخذ يتأرجح على ساقه كالأمس.

— خذ وضع التهيؤ!

فغمغم خوفراخ قائلا: — وضع التهيؤ، كيف ذلك؟ غير أنه صحح وضعه وأخرج يديه من جيبه، ومع ذلك وضع اليد اليمنى بميوعة على خصره وأصابعه متباعدة وممتدة الى الأمام.

وأصلح كارابانوف له وضع هذه اليد قائلا:

— يا صديقي الصغير، عندما يقال لك: «تهيأ» فليس ذلك لترقص الدبكة يجب ان ترفع رأسك عاليا!

وقطب خوفراخ حاجبيه و لكنني و جدته قد تهيأ. فقلت :

ـ أنت الآن ولد في اصلاحية غوركي، يجب ان تحترم رفاقك، ولن تعامل أبدا الصغار معاملة قاسية. أ ليس كذلك؟

أخذت حواجبه ترف رفا قويا وعلت شفته السفلى إبتسامة خفية. كان في سؤالي تهديد أكثر مما فيه من وداعة، فوجدت أنه قد إتخذ وضعا حسنا لهذا الظرف. فأجاب بايجاز :

ـ هذا ممكن!

فقال بيلوخين بصوت عال داو:ـ لا يقال «هذا ممكن» وإنما يقال : «سمعا وطاعة».

وفتل ماتفيبى خوفراخ من كتفيه بدون إهتمام ثم ضربه على طرفي يديه المتهدلتين ضربة؛ ورفع له يده بخفة ودقة في وضع التحية، وقال بعنف :

ـ سمعا وطاعة، لا أعامل الصغار معاملة قاسية أبدا، كرر!

ففغر خوفراخ فاه قائلا :

– طيب لماذا تلاحقوننى أيها الأولاد؟ ماذا فعلت؟ أنا لم أفعل أى سوء. وهو الذى ضربنى ولم أصنع له شيئا أنا...

كان شعب كورياج قد سحرته هذه الأحداث سحرا يفوق الوصف فازداد تقربا. فضم كارابانوف لخوفراخ من كتفيه وقال له بحرارة:

– يا صديقى، يا أخى الحميم! أنت ذكى فطن! إن ميشا فى مركزه لا ليدافع عن مصالحه بل عن مصالح المجموع. تعال نتجول قليلا فى ظلال أشجار البلوط فسوف أشرح لك.

كانا محاطين بخلق كثير من هواة القضايا الأخلاقية فابتعدا إلى الحديقة.

وأعطى فولوخوف الأمر بتقديم الطعام. وكان رأس الطاهى ذو الشاربين والمرتدى قبعة بيضاء الذى برز منذ زمن طويل من وراء ظهر ميشا قد أبدى إشارة ودية إلى فولوخوف قبل أن يختفى. كان فانيا زايتشنكو يشد بقوة أكمام جميع رفاقه ويهمس عاليا:

ـ أرأيتم، لقد وضع قبعة بيضاء، ماذا يعنى هذا؟ يا تيما فكر فى هذا!

إحمر تيما خجلا وخفض بصره وقال:

ـ هذه قبعته الخاصة، اعرف ذلك.

إفتتح الاجتماع العام فى الساعة الخامسة. وسواء كانت دعاية طلابنا قد نجحت أم أن أسبابا أخرى هناك، فان أهل كورياج كانوا يشكلون جمهورالا بأس به من الحاضرين. وحينما وضع فولوخوف ميشا أوفتشا رنكو عند المدخل، وحينما أخذ أوسادتشى وشيلابوتين يسجلان الحاضرين، بداية الاحصاء الضرورية للعمل التربوى، كان المتأخرون يسدون مدخل الباب ويسألون بقلق:

ـ والذين لم يسجلوا، ألن يعطوا العشاء؟

كانت فسحة الكنيسة القديمة تضم بصعوبة كبيرة هذه الكتلة من المعدن البشرى. وبينما كنت أرقب الأولاد المشردين من أعلى المذبح كنت متأثرا من عددهم وفقدان شخصيتهم. وفى نقاط نادرة كانت تتألق وجوه

مثيرة للاهتمام وفيها حيوية؛ ويتعالى تفجر كلام بشرى ورنة ضحكة بهيجة من طفل من الأطفال. كانت الفتيات يحتشدن عند المدفأة الخلفية وكان يسود بينهن صمت المرتاع. وعلى سطح هذا البحر ذى الثياب المسودة الموحلة بالأسمال والرؤوس المشعثة والروائح المزنخة، كانت تطوف وجوه خامدة بدائية ذات مظهر ميت وأفواه فاغرة ونظرات حادة وعضلات رخوة.

حدثتهم حديثا موجزا عن إصلاحية غوركى وعن حياتها وعملها. وحددت بكلمات قليلة أغراضنا: نظافة وعمل ودراسة وحياة جديدة وسعادة إنسانية جديدة، حيث لا يوجد أسياد ولا رأسماليون وحيث يستطيع الانسان أن يترعرع حرا طليقا ويتطور فى نشاط مرح بهيج. وتعبت بسرعة وذلك لأنى لم أشعر بانتباه حى من المستمعين. كنت كأنما أتوجه بالحديث الى خزانات وبراميل او صناديق. وأعلنت أن الأولاد يجب أن ينتظموا بكتائب

مؤلفة من عشرين فردا، وطلبت منهم أن يعينوا أربعة عشر إسما لانتخاب القادة. فظلوا خرساء صامتين. ورجوتهم أن يطرحوا أسئلة. فظلوا صامتين أيضا. فصعد كودلاتى الدرج وقال:

— بالعبارة الصريحة: ألا تخجلون؟ تلتهمون الخبز وتزدردون البطاطا وحساء الملفوف ولكن من هو المجبور بأن يصنع هذا لكم؟ قولوا لى: من؟ وإذا لم أقدم لكم طعاما غدا فماذا يكون حينئذ؟

أسئلة لم يجب عليها أحد! وظل الشعب صامتا.

فاستشاط كودلاتى من الغضب:

— اقترح إذن أنه إعتبارا من الغد سنبدأ بالعمل ست ساعات فى اليوم. فيجب أن نقوم بأعمال البذار مع ذلك أيها الكلاب. هل سوف تعملون؟

فصاح أحدهم من ركن قصى:

— سوف نعمل!

وإستدار الجمهور كله بدون إستعجال صوب ذلك الركن ثم عاد إلى وضعه الأول بوجوه متجهمة.

نظرت إلى زادوروف، فأخذ يضحك ردا على هيئتى المضطربة ووضع يده على كتفى قائلا:

ـ ليس بذى شأن هذا يا أنطون سيميونوفيتش سيمضى هذا.

٤. «كل شيء على ما يرام»

لقد إنهمكنا جميعا حتى خيم الليل فى محاولة تنظيم سكان كورياج. كان طلابنا يجوبون المهاجع لاعادة إحصاء الأولاد، وتكوين كتائب. كنت أضرب أيضا فى أرجاء الغرف مع غوركوفسكى الذى إتخذته بصفة أداة قياس. كان يجب علينا أن نكشف النقاب عن الدلائل الأولى للمجتمع، ولو بنظرة العين وأن نجد آثارا «للصمغ الاجتماعى» وإن كان عن بعيد. وكان غوركوفسكى يبحث بأنف دقيق فى ظلمات أحد المهاجع وسأل:

ـ أى جماعة هنا؟

على أنه لم يكن هناك تقريبا جماعات ولا وحدات. وما من أحد يعرف أين ذهبوا واندسوا ـ أهل كورياح.

كنا نسأل الحاضرين عن الذين كانوا يسكنون هذه المهاجع والذين كانوا أصدقاء: أيهم الاشرار أو الأخيار؟ ولكن الأجوبة ما كانت شافية. كان أغلب أولاد كورياج لا يعرفون حتى جيرانهم وكانوا يعرفون أسماء هم فى النادر القليل ويعينونها — فى أفضل حالة — بالألقاب: «الأذن» و«النعل» و«البعوضة» و«السائق»؛ او يتذكرون بعض العلائم الخارجية:

— ينام هنا رجل مجدر، وهناك واحد من فالكى.

وشممنا فى بعض الأماكن روائح عفنة ضعيفة للصمغ الاجتماعى ولكن الذى كان يلصق لم يعننا أمره.

وفى الليل خطرت لى فكرة عن تكوين كورياج.

إنهم طبعا أولاد مشردون حقيقيون؛ ولكنهم ليسوا — إن صح التعبير — الأولاد التقليديين للشوارع. ففى أدبنا ولدى مثقفينا إن نموذج الولد المشرد قد تشكل — ولا أدرى لماذا — على صورة نوع من بطل بايرون. فهو قبل كل شئ كما يزعم فيلسوف نكات فوضوى هدام، وهو شخص معتوق، خصم عنيد لكل قواعد الآداب والاخلاق. إن رجال التربية الاجتماعية المرتاعين

المتباكين قد زينوا هذا النوع بريش أنيق نوعا ما إنتزعوه من ذنب علم الاجتماع والانعكاس وغيرهم من أقاربنا الأغنياء: وقد إقتنعوا عميقا بأن الأولاد المشردين كانوا قد نُظموا وأن لهم قوادهم ونظامهم وأن لهم خطة كاملة ونظاما داخليا. وقد تشرفوا بتعريفهم بعبارات علمية رفيعة: «مجتمع عفوى تلقائى»... إلخ

إن الصورة البراقة للولد المشرد قد تلقت زينات جديدة بفضل أعمال البورجوازيين الصغار (من روس واجانب). كان الأولاد المشردون جميعا: لصوصا وسكيرين وفاسقين ومعاقرين للمخدرات ومصابين بالأمراض الزهرية. إن التاريخ العام لا يعرف غير بطرس الأول الذى تنسب إليه آثام مثل هذه. ولنقل فيما بيننا أن هذا مما ساعد مساعدة قوية لملفقى أقاويل اوروبا الغربية فى تأليف أبشع الحكايات عن حياتنا وأكثرها إثارة...

ومع ذلك فلا شئ من قبيل هذا فى الواقع.

يجب أن نطرح بحزم نظرية ثبات مجتمع للأولاد المشردين الذين يعتبرون أنهم يملأون شوارعنا ليس فقط

«بجرائمهم المريعة» وأزيائهم الغريبة بل «بايديولجيتهم».
إن ملفقى الحكايات الرومانتيكية حول فوضوى الشارع السوفييتى لم يلاحظوا أنه بعد الحرب الأهلية والمجاعة كانت ملايين من هؤلاء المشردين الضالين قد ألجئوا وأنقذوا فى بيوت الأطفال بفضل المجهود العظيم الذى بذلته البلاد بأسرها. وفى أغلب الحالات قد شبوا منذ وقت بعيد وعملوا فى المصانع والمؤسسات السوفييتية والمسألة الأخرى هى أن يعرف المرء حدا وصل تطور تربية هؤلاء الأولاد اليه بدون ألم.

إن عمل بيوت الأطفال إنتظم بشكل صعب جدا بسبب خطأ هؤلاء الرومانتيكيين الى حد بعيد وهذا أدى فى كثير من الحالات الى نشوء مؤسسات من نموذج كورياج. وكثيرا ما يرى المرء أيضا أولادا فتيانا (لا أتكلم إلا عن الأولاد) يهجرون هذه البيوت ليذهبوا الى الشارع لا لأنهم كانوا يختارون هذه الحياة أبدا ولا لأن حياة أطفال الشوارع فى تقديرهم كانت هى تلائمهم أفضل من غيرها. وما من إيديولوجية للشارع كانت خاصة

بهم ولكنهم كانوا يذهبون إليها أملا فى أن يجدوا إصلاحية أفضل أو بيتا للأطفال أفضل. كانوا يزدحمون على اعتاب دوائر الدفاع الاجتماعى والقضائى عن الطفولة ومؤسسات التربية الاجتماعية وحماية الطفولة واللجان ولكنهم كان لديهم إيثار للأماكن التى كانوا يلمحون فيها حظا بالاشتراك بعملنا الانشائى متجنبين خيرات التأثير التربوى. وهذا ما لم يكونوا لينجحوا فيه فى الغالب. إن الجمعية التربوية العنيدة الوافية ما كانت لتدع فرائسها تفلت بسهولة وبصورة عامة ما كانت لتدرك الحياة الانسانية بدون أن تعمل فيها مسبقا آلة التربية الاجتماعية. ولهذا السبب كان أغلب الفارين مضطرين لأن يخضعوا مجددا للتطور التربوى فى أحضان إصلاحية أخرى حيث كان فى إمكانهم أن يهربوا منها أيضا. وبين إصلاحيتين كانت الحياة تجرى طبعا فى الشارع، ولما كانوا — فيما يخص المسائل المبدئية والأخلاقية — لا يملكون وقتا ولا عادة — زد على ذلك — ولا طاولات للدراسة لينكبوا عليها، فقد كان من الطبيعى أيضا أن

يحلوا المسائل الغذائية ــ مثلا ــ خارج نطاق الأخلاق والمبادئ. وفي الميادين الأخرى لم يكن سكان الشوارع ليصروا على التطابق الدقيق بين أفعالهم وبين المبادئ الشكلية لعلم الأخلاق: وبحسب القاعدة العامة لا يميل الأولاد المشردون إلى الشكلية. وبما أنهم يعرفون بعض المعرفة شيئا عن الصلاحية فقد كانوا يعتقدون إعتقادا راسخا أنهم يسيرون في خط مستقيم إلى مهنة عامل في صناعة التعدين، أو سائق، وأنه لا بد لبلوغها من شيئين ضروريين: التشبث بقوة بسطح الكرة الأرضية حتى ولو إقتضى هذا سرقة حقائب السيدات والمحافظ؛ والاقامة أقرب ما يمكن من مرأب أو معمل للميكانيك.

إن أدبنا العلمي قد عرف عددا من المحاولات لانشاء نظام مرضٍ لتصنيف الطبائع البشرية، وقد حاولوا أن يحتفظوا للأولاد المشردين بالمكان الذي يناسبهم تحت فصل: معادي الأخلاق والناقصين عقليا. ولكنني أعتبر أصح جميع هذه التصانيف، التصنيف

الذى وضعه أعضاء كومونة دزرجنسكى فى خاركوف لتطبيقه العملى.

ففى فرضية العمل التى تبنوها، ينقسم الأولاد المشردون ثلاثة أقسام ويؤلف «النخبة الاولى» أولئك الأولاد الذين يساهمون أنشط مساهمة فى إنشاء حظهم وطالعهم دون أن يتراجعوا أمام أى صعوبة: هؤلاء الذين هم فى سعى وراء المثل الأعلى كحرفة عامل تعدين، مستعدون للالتحاق بأى قسم من قطار المسافرين، وهم يعجبون أكثر من أى شخص آخر بأعاصير القطارات السريعة ولا تسحرهم عربات المطاعم ومفروشات عربات النوم وأدب عمال القطار. ويوجد أناس رغبة منهم فى تسويد صفحة هذا النوع من السائحين يعمدون إلى أن يؤكدوا أن سياحتهم بطريق السكة الحديدية وجهتها النسائم العبقة لشبه جزيرة القرم ومصيف سوتشى. هذا خطأ. إن أول ما يثير إهتمامهم هو عمالقة دنيبرو بيتروفسك والدونتز وزابورجيه وسفن أوديسا ونيقولاييف ومشاريع خاركوف وموسكو.

أما «النخبة الثانية» مع تميزها بصفات عديدة فلم

تكن تملك مع ذلك جميع باقة الخصال الخلقية التى للنخبة الأولى. كان هؤلاء يسعون أيضا ولكنهم ما كان بصرهم ليحيد بازدراء عن مصانع النسيج والدباغة وكانوا يتآلفون حتى مع معمل الأخشاب وأقل أيضا فينحدرون إلى حضيض صناعة الورق المقوى، وما كانوا ليعتريهم الخجل من الانصراف إلى جمع النباتات الطبية.

كانت «النخبة الثانية» تسافر أيضا ولكنهم كانوا يفضلون مؤخرة حافلة الترام وهم يجهلون المحطة الجميلة الموجودة فى جميرينكا وقسوة موسكو.

إن أعضاء كومونة دزرجنسكى كانوا يفضلون دائما أن لا يجلبوا إليهم سوى أفراد «النخبة الأولى» وكانوا يكملون صفوفهم أيضا بالدعاية فى القطارات السريعة. وكان أفراد «النخبة الثانية» ـ حسب رأيهم ـ أضعف بكثير.

غير أن ما كان طاغيا فى كورياج ليس النخبة الأولى ولا الثانية بل «النخبة الثالثة». ففى عالم الأولاد المشردين كما فى دنيا العلماء يوجد قليل جدا من «النخبة الأولى» وأكثر بقليل من «النخبة الثانية». والأغلبية الساحقة

تتألف من «النخبة الثالثة»: هذه الأغلبية الساحقة لا تطوف فى أى مكان ولا تسعى وراء شئ إنها تسلم بكل بساطة شمع نفوسها الفتية للتأثير المنظم للتربية الاجتماعية.

لقد وقعت بأحكام فى كورياج على ركيزة غنية من «النخبة الثالثة». وفى قصة حياة هؤلاء الأولاد القصيرة، تعد ثلاثة أو أربعة بيوت للأطفال او إصلاحيات وأكثر فى بعض الأحيان حتى أحد عشر ، وهذا ليس نتيجة مطامحهم نحو مستقبل أفضل ولكن بتأثير التقلبات الخلاقة لارادة مفوضية التعليم العام التى هى فى غالب الأحيان غائمة حتى إن أكثر الآذان تمرسا لا تصل دائما الى التمييز أين تبدأ وتنتهى إعادة التنظيم والتكثيف والتخفيض والنشر والتصفية والاصلاح والتمديد وتوحيد الزى وتوحيد المنتجات والتخلية وإعادة التخلية.

وبما أننى كنت قد جئت أنا أيضا إلى كورياج ونفسى مليئة بالرغائب التنظيمية فقد كان علىّ أن أصطدم بنفس هذه اللامبالاة التى هى الوضع الدفاعى الوحيد لكل ولد مشرد ضد عبث التقلبات التربوية للتعليم العام .

هذه اللامبالاة المتبلدة التى هى ثمرة تطور تربوى طويل، تبين نوعا ما القوة العظيمة لأساليب التربية.

إن غالبية أولاد كورياج تتراوح اعمارهم بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة ولكن هيئاتهم كانت تحمل طابعا عميقا للوراثات المختلفة. وكان أول ما يبرز لأول وهلة هو الانعدام الكامل لديهم لكل ما هو إجتماعى، وعلى الرغم من أنهم قد ترعرعوا منذ ولادتهم فى ظل «التربية الاجتماعية». فقد كانت هناك عفوية بدائية نامية تتراءى فى كل حركة من حركاتهم، ولكنها لم تكن عفوية الطفل التى تستجيب بسذاجة برد الفعل على كل ظواهر الحياة. فانهم لم يعرفوا أية حياة ــ كان أفقهم محدودا بلائحة المنتجات الغذائية التى كانوا يخضعون لسحرها بفعل منعكس خامل وكئيب وكان الوصول إلى القدر حيث يشبع الولد نهمه وسط جمهور من الصغار المتوحشين أمثاله، كان هذا هو المشكلة كلها. فكان فى بعض الأحيان يحلها حلا موفقا وفى مرات أخرى لا يواتيه الحظ فى ذلك. وكانت دفة توازن حياتهم الشخصية

لا تعرف غير هذه التذبذبات. وما كانوا يسرقون بحركتهم الخاصة على الأقل غير الأشياء التى أغفلت حراستها أو تلك الأشياء التى تنقض عليها جماعتهم كلها. وإن إرادة هؤلاء الأولاد قد سحقتها منذ أمد بعيد تدابير العنف والصفعات والقسوة الوقحة للكبار و «القواد» الذين إزدهروا إزدهارا رائعا تحت ظل عدم المقاومة من قبل التربية الاجتماعية و «نظامها الذاتى».

وعلى الرغم من كل شئ، لم يكن هؤلاء الأولاد أبدا بلهاء بل كانوا أولادا كسائر الآخرين، وضعهم القدر فى وضع خاطئ: محرومين من جهة من جميع خيرات التطور الانسانى ، ومن جهة أخرى أبعدوا عن الشروط الصحيحة للنضال البسيط فى سبيل العيش، بفضل هذا القدر من الطبيخ السئ الذى كان يوضع كل يوم أمامهم كيفما كان الأمر.

ومن قاع هذه الصورة كانت تبرز جماعات ذات طابع آخر. ففى مهجع كورياج حيث نام خوفراخ كان يوجد بلا ريب هيئة أركان «القادة». فقد كان أولادنا

يحكون أنه كان هناك خمسة عشر منهم وأن كوروتكوف كان يلعب الدور الرئيسي. ولم يقدر لى أن أراه، ولا غرابة فان هذا النوع من الأولاد كان يقضى أغلب وقته في المدينة. وإن افيغنييف الذى عثر على بعض الأصدقاء القدماء بينهم كان يؤكد أنهم جميعا كانوا مجرد لصوص فى المدينة، وليست الاصلاحية سوى مأوى لهم. ولم يكن فيتيا غوركوفسكى ليوافقه على هذا:

ـ هم لصوص؟ نفاية أوباش!

وحكى فيتيا أن كوروتكوف وكذلك خوفراخ وبيرتز وتشوريلو وبودنيبيسنى وجميع الرهط كانوا يمارسون صنعتهم فى الاصلاحية وقد إبتدأوا أول ما إبتدأوا بسرقة مساكن المربين والمعامل والمخازن. كان هناك أشياء تمكن سرقتها من الأولاد: فقد أعطى عدد كبير منهم أحذية جديدة بمناسبة عيد أول أيار، وهذه الأحذية ـ على حد قول غوركوفسكى ـ كانت تؤلف الغرض الرئيسى من تجارتهم، وقد بسطوا مواهبهم ـ علاوة على ذلك ـ على القرية وبعضهم وصلت بهم هذه المواهب

الى الطرق. فقد كانت الاصلاحية تقع على الطريق الرئيسى لمدينة آختيركا.

وغمز فيتيا بعينه فجأة وطفق يضحك:

— إنكم لا تعلمون ماذا إستنبط الآن هؤلاء الأوباش؟ إن الصغار يخافونهم وترتعد فرائصهم منهم. فماذا يصنع المنظمون، سأقول لكم. إن هؤلاء الأولاد يسمون«الجراء» ولكل ولد جراوءه. ففى الصباح يقولون لهم: إذهبوا أين شئتهم ولكن يجب أن تعودوا ومعكم شئ من الأشياء فى المساء. وكان منهم من يسرق فى القطارات وفى الأسواق، ولكن أغلبهم كان غير قادر على السرقة فكانوا يستجدون ويشحذون فيقفون فى الشارع أو على الجسر أو فى ريجوف فيجمعون من روبلين الى ثلاثة روبلات فى اليوم، على ما يقال. وكان تشوريلو هو الذى لديه أفضل «الجراء» فكانوا يجلبون حتى الخمسة روبلات. وكانت القاعدة أن يأخذ الجرو الربع والباقى لسيده. أوه! لا تنخدع إذا لم يكن هناك من شئ فى المهاجع. إنهم يملكون الطقوم والمال ولكن كل شئ فى الخفاء.

وفى بودفوركى يوجد عدد من هذه البيوت وخونة بقدر ما يريد المرء. وهناك يتلهون كل مساء.

وهناك جماعة أخرى تتألف من أولاد أمثال زايتشنكو وما ليكوف وحينما تعرفنا تعرفا أوسع على الاصلاحية بدا لنا أنهم بعدد كاف، حوالى الثلاثين. وبنوع من المعجزة قد نجح هؤلاء بالاحتفاظ خلال أعاصير الحياة بعيون براقة وبشراسة طفولية ساحرة وبمواهب غضة تحليلية تسمح لهم أن يعطوا رد فعل على كل حادثة باندفاع خفيف مقاوم. إننى أحب كثيرا هذا النوع من الطبائع أحبها لجمال حركات روحها ونبلها، ولاحساسها العميق بالشرف وحتى لأنهم جميعا عزابا قانعين وكارهين للنساء. ومنذ الخطوات الأولى لكتيبتى المختلطة الطليعية، فقد رفعوا أنوفهم لينشقوا هذا الهواء النقى العليل ثم أخذوا يجوبون المهاجع مبادرين لوضع مواهبهم المشار إليها موضع العمل. كانوا يخافون أن يمروا سافرا من جانبى ولكن تأييدهم كان على كل حال متأكدا لى.

وعثرت أنا و فيتيا عرضا على وسط إجتماعى ثالث وقف عليه صاحبى كما يقف الكلب أمام الارنب تتملكه الدهشة. كان فى أقصى ركن من الباحة جناح منعزل تزينه شرفة من الخشب، فقال زايتشنكو وهو يشير إلى هذا البناء:

ـ هناك يقطن المهندسون الزراعيون.

ـ أى مهندسين زراعيين وما عددهم؟

ـ أربعة عشر.

ـ أربعة عشر مهندسا زراعيا؟ لماذا هذه الكثرة؟

ـ هم الذين زرعوا الجودار، والآن هذا منزلهم.

تنسمت روائح خالابودا فازددت إحتراسا وتحفظا:

ـ هل دعوتهم هكذا لتغيظهم؟

ولكن فانيا إتخذ وضعا جديا وهز رأسه بالحاح مضاعف باتجاه الجناح:

ـ لا. إنهم مهندسون زراعيون حقيقيون. لقد حرثوا الأرض وزرعوها بالجودار ثم نبت وإرتفع إلى هذا الحد.

وحدجه فيتيا بحنق:

ـ هؤلاء الذين يلبسون قمصانا زرقاء؟ ولكنهم أولاد من الاصلاحية؟ أتريد أن تمزح؟

فقال فانيا: ـ لا، لا أمزح، لا أمزح. سوف يستلمون شهاداتهم، وحالما يستلمونها سوف يرحلون...

ـ طيب! هيا نذهب لنرى مهندسيكم الزراعيين.

كان الجناح يشتمل على مهجعين. وكان يجلس على الأسرة ذات الألحفة النظيفة نوعا ما، أولاد يلبسون قمصانا زرقاء ممشوطي الشعر بأناقة تبدو عليهم مخايل الفضيلة. وكانت ملصوقة على الجدران بطاقات بريدية وقطع من المجلات والمرايا الصغيرة في إطارات خشبية. وكان يتدلى من حواف النوافذ أكاليل من الورق النظيف.

هؤلاء الأولاد الرصينون ردوا على السلام ببرودة ولم يبدوا أي غيظ حينما قدمهم لنا فانيا بهذه العبارات الحماسية:

ـ هؤلاء هم جميعا مهندسون زراعيون كما قلت لك. وهذا هو رئيسهم فوسكوبوينيكوف!

نظر الي فيتيا غوركوفسكي بهيئة كأنما دعينا لنتعرف

لا على مهندسين زراعيين بل على عفاريت وأبالسة وما كان بوسع فيتيا أن يصدق بوجودهم أبدا.

ـ هيا أيها الأولاد قولوا لى دونما حرج لماذا تسمون المهندسين الزراعيين؟

كان فوسكوبوينيكوف شابا كبيرا والشحوب على وجهه يصارع الرصانة والوقار، وكلا الشحوب والرصانة كانا عاجزين عن إخفاء ظلمة دماغ بليد جامد؛ فنهض من فوق سريره ودس يديه فى جيوب بنطلونه الضيقة بصعوبة كبيرة وقال:

ـ نحن مهندسون زراعيون؛ وسوف نستلم شهاداتنا عما قريب...

ـ من سوف يسلمكم إياها؟

ـ من؟ المدير!

ـ أى مدير؟

ـ المدير القديم.

فأغرق فيتيا بالضحك:

ـ ربما سوف يعطينى واحدة أيضا.

فقال فوسكوبوينيكوف: — لا داعى إلى السخرية، إنك لا تفهم شيئا، فأسكت إذن. ماذا تفهم؟

فاستشاط فيتيا غضبا وقال:

— أنا أعرف أنكم جميعا أغبياء، إشرحوا لى كما يجب، من هذا الحمار هناك؟

فبدأ فوسكوبوينيكوف على البديهة: — قد تكون أنت الحمار — ولكن فيتيا لم يعد يستطيع أن يحتمل أى شيطنة:

— كفى؛ أقول لك!.. هيا إحلك!

جلسنا على الأسرة، وهيمن المهندسون الزراعيون على رصانة نفوسهم الفاضلة وقاوموا وتأذوا ورصعوا كلامهم الشحيح بامتعاضات مريبة يشوبها الازدراء، وأخذوا يكشفون النقاب عن أسرار جودار خالابودا وترقيهم الذى لا يُصدق. ففى الخريف المنصرم كان يعمل فى كورياج شخص من قبيل الوكيل عن خالابودا، فكلفه بمهمة خاصة لبذار الجودار. فاقنع خمسة عشر ولدا من أكبر الأولاد بأن يكلفهم بهذا العمل وعاملهم معاملة كريمة جدا: فأسكنهم فى جناح على حدة، وإشترى لهم

الأسرة والشراشف والألحفة والطقوم والمعاطف وأضيف إلى ذلك خمسون روبلا لكل واحد، وتعهد لهم بأنه سوف يعطى كل واحد شهادة خبير زراعى لدى إنتهاء العمل. وبما أن جميع شروط العقد: من الأسرة وسائر الباقى قد تحققت فلم يبق لهؤلاء الأولاد أى داع للشك بحقيقة الشهادات وإن كانوا جميعا ضعيفى الثقافة جدا ولم يجتز أى واحد منهم الصف الثانى من مدرسة العمل. وقد إمتد أجل تسليم الشهادات حتى الربيع. وهذا الحادث مع ذلك لم يقلقهم كثيرا على الرغم من أن وكيل خالابودا قد غرق فى ضباب عقد المشاريع الصناعية التابعة لدائرة حماية الأطفال وقد كان مدير الاصلاحية قد قام بأعباء إلتزاماته على خير وجه. وفى عشية رحيله كان يؤكد أن الشهادات جاهزة ولم يبق سوى إرسالها إلى الاصلاحية كى يقام بتسليمها رسميا إلى المهندسين الزراعيين.

فقلت لهم:

— يا أولادى لقد لعب عليكم. هذا كل شئ. فقبل

أن تصبحوا مهندسين زراعيين لا بد من دراسة وافية تستغرق عدة سنوات. ويوجد لهذا الغرض مدارس تكنيكية ومعاهد، ولأجل دخولها لا بد أيضا من دراسة عدة سنوات فى مدرسة عادية. ولكنكم انتم... كم تساوى: سبعة مضروبة بثمانية؟

فأجابنى صبى أسمر جميل بدون تأكد، بعد ما طرحت عليه السؤال فجأة:

— ثمان وأربعون.

فبحلق فانيا زايتشنكو بسذاجة وصاح متعجبا:

— أوه! تأمل! هؤلاء مهندسون زراعيون! ثمان وأربعون! إنها نكتة طيبة! وماذا يمكن القول؟

فصاح به فوسكوبوينيكوف: — بم تحشر نفسك؟ أ هذا من شأنك؟

فقال فانيا وقد أشرق وجهه: — ست وخمسون. إنها تساوى ستا وخمسين.

فسأل ولد مدبب وعريض الكتفين يدعوه الجميع سفاتكو: — طيب، لقد وعدونا بأن نعطى أمكنة

فى إحدى المزارع الحكومية، والآن ماذا بصدد هذا؟

فأجبت أنا: ـ هذا ممكن. إن العمل فى إحدى المزارع الحكومية شئ حسن، ولكن لن تؤخذوا هناك مهندسين زراعيين بل عمالا.

كان المهندسون الزراعيون وقد أصبحوا يغلون من الحنق والغيظ، يتحركون على أسرتهم، وأمتقع وجه سفاتكو من الغضب:

ـ تعتقدون أننا لن نجد الحق بذلك؟ لقد فهمنا، لقد فهمنا كل شئ! كان المدير قد أنبأنا، نعم! يجب عليكم أن تقوموا بأعمال الحراثة الآن؛ وبما أنه ما من أحد لا يريد ذلك، هذا هو الأمر إذن، وتقومون باللف والدوران! وقد فتنتم أيضا الرفيق خالابودا. ولكن لن يكون كما تشاؤون، لن يكون!

وعاد فوسكوبوينيكوف ووضع يديه فى جيوبه، ونشر من جديد قامته الطويلة حتى السقف.

ــ هل جئتم إلى هنا لأجل أن تغبنونا وتخدعونا؟ إن أناسا على إطلاع قد قالوا لنا ذلك. وبعدئذ تسلبون منا ما بذرناه وتغتصبون أتعابنا. وأنتم يلزمكم أناس لتستغلوهم. كفى!

فتفوه فيتيا بهدوء قائلا: ــ يا لهم من عصابة عجول!

ــ سأضرب على بوزه!.. يا لهم من اصلاحية غوركي!.. هل جئتم لكى تغتنوا على حساب الآخرين؟

نهضت من على السرير فأدار المهندسون الزراعيون صوبنا وجوها غليظة ساخطة فحاولت أن أودعهم بأهدأ ما يمكن فقلت:

ــ هذا شأنكم يا أولادى! أنتم تريدون أن تكونوا مهندسين زراعيين على هواكم... أما نحن فلسنا بحاجة الى خدماتكم الآن. فلسوف نستغنى عنكم.

وإتجهنا إلى باب، فلما بلغه فيتيا وصار فى العتبة قال بحزم:

ــ انتم مع ذلك بلهاء!

هذا القول أثار إستياء شديدا لدى المهندسين الزراعيين

حتى أن فيتيا أضطر إلى أن يهبط الدرج بسرعة شديدة.

وفى غرفة الأحداث الطلائع كان جورا فولكوف يستعرض أولاد كورياج الذين عينوا قادة كيفما كان! فأنبأته بأنه لا جدوى من الأمر، وأننا لسنا بحاجة إلى أمثال هؤلاء القادة. ولكنه أراد أن يتأكد من ذلك بالتجربة.

وعلى المقاعد كان المرشحون المعينون يحكون سيقانهم الواحد بالآخر على منوال الذباب. وكان جورا يشبه فى هذا الحين نمرا إذ كانت عيناه الحادتان تلمعان. كان المرشحون يظهرون مظهر من يجتذب ليلعب لعبة جديدة، ولكنه يجد أن القواعد معقدة متشابكة، وأن اللعبة القديمة أفضل على كل حال. كانوا يحاولون أن يبتسموا بلباقة للشروح الجادة التى يقدمها جورا، ولكن هذه الشاكلة لم تعجبه كثيرا:

ـ قل: ما داعى الضحك؟ ومم تضحك؟ أ تفهم ما يقال لك! انتهى عهد الحياة كالطفيليين! أ تعلم ماذا تعنى السلطة السوفييتية؟

وتضرجت وجوه المرشحين بالصرامة والجد وإفترت خدودهم عن إبتسامة خجول.

ـ أنظروا، سأشرح لكم: أنتم قادة، ويجب أن تُنفذ أوامركم.

فأجاب ولد أشقر ذو جبين عريض وقد إبتسم مرة أخرى، وهو يبدو صعلوكا متثاقلا إسمه بيتروشكو: ـ وإذا لم يريدوا؟

كان سبيريدون خوفراخ أيضا بين المدعوين، وكان تحادثه الجديد مع كارابانوف وبيلوخين قد لين من عريكته على ما يظهر، ولكنه الآن لم يعد معجبا بالأمر. فقد طلب منه أن يستعمل عبارات غير جميلة ومزعجة مع رفاقه.

في ذلك المساء بعد تلك الخطب الحماسية التي ألقاها جورا وسط الابتسام غير المكترث من قبل أولاد كورياج، لم نؤلف مجلس القادة فحسب بل أحصينا سكان كورياج كلهم ووضعنا جدول أعمال اليوم التالي. وكان فولوخوف وكودلاتي يصلحان في غضون ذلك

الأدوات الزراعية اللازمة. إن مجلس القادة والأدوات كانت لهما هيئة غير مرضية، وذهبنا لنرقد وفي نفوسنا شعور بالعناء والفشل. وعلى الرغم من أن بوروفوى ومساعده أخذا يعملان، وأن شظايا خشب أخذت تلمع حول تراب الأرض السوداء المحفورة فلا زالت مشكلة كورياج العامة مستعصية ينقصها ذلك الذيل القصير الذى ينقذ المرء، ولا بد مطلقا من البدء فى الاعتماد عليه.

وفى اليوم التالى رحل الطلاب بأكرا إلى خاركوف. وكما هو متفق عليه فى مجلس القادة قرع جرس النهوض من النوم فى الساعة السادسة. وعلى الرغم من أن ناقوسا قوى الصوت كان معلقا فى حائط الكنيسة الا أن صوته الصباحى لم يحدث أى تأثير فى نزلاء كورياج. فذهب المربى المناوب قرغيزوف مع شارة يده الحمراء النضيرة ليلقى نظرة على بعض المهاجع فما عاد منها بغير نفس منقبضة. كانت الاصلاحية تغط فى النوم: ولم يكن يرى سوى كتيبتنا الطليعية أمام الاصطبل تستعد للذهاب

إلى الحقول، وساروا بعد عشرين دقيقة مع ثلاثة أزواج من الخيل ومحاريث وأمشاط الأرض. وأخذ كودلاتي العربة وذهب إلى المدينة ليشترى بطاطا للبذار. فالتقى بأشكال شاحبة ندية كانت تجر نفسها من المدينة فى طريق العودة. ولم تكن قد بقيت لدىّ القوة فى التدبر لأوقفهم وأفتشهم وأستجوبهم عن الشكل الذى قضوا فيه ليلتهم؛ فتسللوا دونما عائق إلى المهاجع بحيث أصبح عدد النائمين متزايدا.

وبموجب البرنامج الذى وضع البارحة ووافق عليه مجلس القادة بالاجماع فقد كان ينبغى لجميع قوى كورياج أن تعمل فى تنظيف المهاجع والباحة وفى نزع أنقاض الأرض لأجل المنابت، وفى قلب تربة البستان وهدم جدران الدير. وفى خلال خواطرى المتفائلة أخذت أشعر فى نفسى بشعور جديد وطيب من القوة. أربعمئة ولد! تصورت كم يكون أرخميدس مبتهج النفس فيما لو عرض عليه هذا القدر. إنه لممكن جدا بأن يكف عن كل نقطة إستناد

ليقلب الدنيا. نعم حقا، كان مئتان وثمانون ولدا من كورياج يمثلون فى عينى كتلة من الطاقة غير المألوفة إذا قورنت بطاقة المئة والعشرين ولدا من إصلاحية غوركى.

ولكن هذه الكتلة من الطاقة ظلت تتمرغ على أسرتها القذرة دون أن تبادر حتى لتناول طعام الفطور. وقد كان لدينا صحون وملاعق، وكل هذا موضوع بنسق نسبى على الموائد، ولكن وجب على شيلابوتين أن يزعج الناقوس ساعة كاملة قبل أن تظهر طلائعهم فى المطعم؛ وإمتد الفطور حتى الساعة العاشرة، ألقيت خلالها عددا من الأحاديث مكررا للمرة العاشرة من يشترك فى هذه الكتيبة أو تلك وإسم قائده وطبيعة العمل المسند إلى هذه الوحدة. كان الأولاد يستمعون إلىّ دون أن يرفعوا رؤوسهم من الصحون. ولم يحسب هؤلاء الزعران حسابا إلى أننا صنعنا لهم حساء لذيذا دسما ووضعنا على خبزهم قطعا من الزبدة. إزدردوا دون أن يعبأوا بالحساء او الزبدة وحشوا جيوبهم بالخبز ولحسوا

أصابعهم الوسخة وإنسلوا متجاهلين نظراتى المليئة بأمل أرخميدس.

وما من أحد جاء لمقابلة ميشا أوفتشارنكو الذى أعد عند مدخل الكنيسة على درجات الأبواب: المعازق وأمشاط الحقول والمكانس التى إشتريناها من المدينة. كان ميشا ممسكا بدفتر صغير جديد حصل عليه فى اليوم نفسه، وكان ينبغى له أن يسجل عليه عدد الأدوات الموزعة على كل كتيبة. لقد كان ميشا فى تحير شديد عند سوقه التى لم يدن منها احد؛ حتى فانيا زايتشنكو قائد الكتيبة العاشرة التى تشكلت من أصدقائه فى إصلاحية كورياج والذى كنت أعتمد عليه إعتمادا خاصا، لم يأت ليأخذ الأدوات ولم ألمحه فى المطعم. وقد جاءنى خوفراخ وهومن القادة الجدد ووقف إلى جانبى فى المطعم يتفحص بخفة الجمهور الذى كان يمر أمامى. كانت كتيبته هى الرابعة، وعليها أن تهدم سور الدير: كان لدى ميشا لهذا الغرض أمخال ولكن خوفراخ لم يتذكر عن العمل الذى أوكل إليه. فكعادته بنفس الخفة

الوقحة، أخذ يتحدث معي عن أشياء ليس لها أى صلة بسور الدير:

— قل لى: أصحيح أنه توجد فى إصلاحية غوركى فتيات جميلات؟

فأدرت له ظهرى وإتجهت صوب الباب ولكنه أخذ يصحبنى ويتابع حديثه وهو يتأملنى:

— ويقال أيضا إنه يوجد لديكم مربيات... هكذا جميلات. ها، ها، سيكون هذا شيئا ممتعا عندما سوف يجئن، وعندنا أيضا كانت فتيات جميلات ولكن هل تعرف؟ ولكنهن يخفن من نظرتى. يكفى أن أنظر اليهن حتى إحمررن، ومن أين جاء هذا وهو إننى ذو عين خطرة الى هذا الحد؟ هل تصدق؟

— لماذا لم تذهب كتيبتك الى العمل؟

— وما أدرانى؟ هذا ليس من شأنى! ولم أذهب أنا كذلك...

— ولماذا؟

— لا اشعر برغبة... ها، ها، ها...

ونظر إلى صليب الكنيسة وهو يرف بعينيه:

ـ عندنا ـ في بودفوركي هناك توجد أيضا فتيات صغيرات جذابات ... ها، ها... إذا شئت يمكنني أن أعرفك عليهن.

كان حنقي منذ البارحة قد ألجم بين فكي مكابح قوية جدا. وفي قرارة نفسي أيضا شيء كان يندفع حادا وعنيدا، ولكن على سطحها ما كنت لأسمع سوى صريف حاد ودسامات قلبي تحترق. كان أحدهم في دماغي يأمر «قف!» ومشاعري وافكاري حتى أدناها كانت تسارع لتقويم موج صفوفها. وكان هذا الشخص نفسه يأمر بصرامة قاسية:

«يجب أن تترك خوفراخ! ويجب أن يوضح على عجل لماذا لم تذهب كتيبة فانيا زايتشنكو الى العمل؟ ولماذا لم يتناول فانيا طعام الفطور»؟

فلهذا السبب ولغيره قلت لخوفراخ:

ـ أغرب من وجهي!.. أيها القاذورة!

أخذته الدهشة والبهتة لهذا النداء، فابتعد من أمامى خوفراخ بسرعة. وذهبت على وجه العجلة إلى مهجع زايتشنكو.

كان فانيا مطروحا على فراشه وحوله كانت جماعته تجلس. فوضع يدا تحت رأسه، فبدت هذه اليد الصغيرة النحيلة الشاحبة نظيفة على الوسادة الوسخة.

فسألت: — ماذا حدث؟

ففتحوا لى طريق الوصول حتى السرير. وقال أوداريوك وهو يحاول أن يبتسم، بصوت لا يكاد يسمع:

— لقد ضربوه.

— من ضربه؟

فقال فانيا من على وسادته بقوة غير متوقعة:

— لقد ضربنى أحدهم، هل يمكنك أن تتصور؟ لقد جاءوا فى الليل فوضعوا علىّ اللحاف ثم... ضربونى ضربا قاسيا! إن صدرى يوجعنى!

كان صوت فانيا زايتشنكو الداوى يتباين تباينا غريبا مع وجهه الصغير النحيل الأزرق.

كنت أعرف أن أحد أجنحة كورياج كان يدعى المستوصف للمرضى. وفى إحدى حجره الخاوية القذرة

كانت تعيش إمرأة عجوز طيبة وهى الطبيبة المعاونة. فأرسلت ماليكوف ليحضرها. فاصطدم ماليكوف فى الباب بشيلابوتين:

ـ يا أنطون سيميونوفيتش! هناك أناس جاءوا بالسيارة يطلبونك!

وجدت قرب سيارة كبيرة سوداء بريجيل والرفيقة زويا وكلامير. فابتسمت بريجيل بأبهة:

ـ إستلمت الاصلاحية؟

ـ نعم!

ـ و كيف؟

ـ كل شئ على ما يرام.

ـ على ما يرام تماما؟

ـ يمكن أن نعيش.

كانت الرفيقة زويا تتفحصنى باحتراس. وكان كلامير يلقى نظراته فى كل جهة. لعله كان يريد أن يرى المربين الذين هم عندى يتقاضون مئة روبل. مرت الطبيبة المساعدة مسرعة بخطى متعثرة من الشيخوخة لتصل إلى سرير

فانيا زايتشنكو. وكنا نسمع أحاديث فولوخوف من الاصطبل مغتاظا:

ـ يا لهم من عصابة أرذال! لم يكتفوا بافساد الناس فوصل شرهم الى الخيل! لم يعد هناك زوج من الخيل لقد افسدها ـ هؤلاء الأرذال ـ هذه ليست خيلا وإنما قحبات!

إحمر وجه الرفيقة زويا خجلا وإرتعدت والتفتت برأسها قائلة:

ـ هذه هي التربية الاجتماعية، إذا لم أكن غلطانة!

فانفجرت ضاحكا:

ـ لا، ليست هذه! ولكن هذا الولد لم يجد الكلمات.

فقال كلامير بابتسامة ماكرة: ـ كيف؟ لقد وجدها جيدا على ما يبدو؟.

ـ طيب نعم. لم يكن يجدها في أول الأمر ثم عثر عليها.

أرادت بريجيل أن تقول شيئا، فنظرت في عينيّ تحدجني ولم تقل شيئا.

٥. «حياة سعيدة»

فى اليوم التالى أرسلت إلى كوفال بالبرقية التالية:

«كوفال، إصلاحية غوركى. عجلوا بالرحيل ننتظر جميع المربين فى أول قطار».

ومساء اليوم التالى تلقيت الجواب:

«تأخرنا بسبب عربات القطار. رحل المربون اليوم».

نقلت العربة الوحيدة إلى كورياج فى الساعة الثانية من الليل من محطة ريجوف كلا من إيكاتيرينا غريغوريفنا وليديا بيتروفنا وبوتزاى وجوربين وغوروفيتش. فاخترنا لهم حجرات فى الحصون التربوية التى لا تحصى؛ ووضعنا فيها الأسرة وكان علينا أن نشترى لها فرشا من المدينة.

لقد قامت أفراح عيد بلقائنا. وتعانق شيلابوتين وتوسكا على الرغم من أن عمرهما لم يتعد الخامسة عشرة، وتلاثما كما تفعل الفتيات الصغيرات. فكانا يعلقان باعناقهم وهما يزقزقان ويحركان ساقيهما فى

الهواء. وصل أهل إصلاحية غوركي نشيطين ومسرورين بالعيش وقرأت على وجوههم تقرير حالة الأمور عن الاصلاحية. فأكدت إيكاتيرينا غريغوريفنا بايجاز:

— كل شئ جاهز هناك. فالحزم قد حزمت ولم يبق ناقصا سوى عربات القطار.

— والأولاد؟ —

— انهم يتحرقون بفارغ الصبر على صناديقهم. أعتقد أنهم سعداء جميعا. وأخيرا على ما يبدو لى نحن جميعا سعداء. وأنت؟

فاجبت بتحفظ: — وأنا أيضا ملئ بالسعادة، ولكن لا بد من الاعتقاد أنه فى كورياج لا يوجد أحد سعيد.

فانفعلت ليدا قائلة: — طيب، ماذا حدث؟

فقال فولوخوف بلهجة إزدراء: — أوه، لا شئ يروع، ولكننا بحاجة إلى القوة. وليس هذا كل شئ. فهناك أعمال الحقول. ونحن الآن الكتيبة المختلطة الأولى والكتيبة المختلطة الثانية وكل ما تريدون.

— وهؤلاء هنا؟

فأخذ الأولاد يضحكون:

ـ سوف ترون هذا...

عض بيوتر إيفانوفيتش غوروفيتش شفتيه الجميلتين وأجال بانتباه نظره فى الأولاد وفى النوافذ المعتمة وفيّ أنا:

ـ هل تريدون الأولاد بأسرع ما يمكن؟

فقلت: ـ نعم بأسرع ما يمكن، يجب على الاصلاحية أن تسارع إلى هنا كما يسارعون الى الحريق وإلا فسوف نضيع.

فتنحنح بيوتر إيفانوفيتش:

ـ الأمور لا تسير... يجب أن ترحلوا الى الاصلاحية حتى ولو وجدنا صعوبات فى كورياج. إنهم يطلبون أجرا غاليا لعربات القطار ولا يجرون أى تخفيض وبكلمة واحدة: كأنما رجلهم تمشى على البيض! يجب ان تذهب أنت الى هناك لمدة يوم... لقد تشاجر كوفال مع رجال المحطة.

فأطرقنا مفكرين. وهز فولوخوف كتفيه وأخذ يهمهم كرجل عجوز:

ـ لا بأس... أسرعوا فى الرحيل، سندبر الأمور.. هذا سيان، ولن يكون أسوأ حالا، فقط يجب أن لا يبقى أولادنا هناك يضيعون الوقت سدى.

كان إيفان دينيسوفيتش جالسا على حافة النافذة فابتسم بهدوء ونظر الى ساعته:

ـ القطار بعد ساعتين، وعلام قر قراركم أخيرا؟

ـ قرارى الاخير؟ إلى جهنم ! ماذا تسألنى؟ ولكن لن تلجأ الى القوة على أى حال. أنتم الآن ستة. فاذا إستطعنا أن نضع من جانبنا كتيبتين أو ثلاثا فهذا يكون شيئا كافيا وافيا. ولكن حاولوا أن تجتذبوهم لا على انفراد بل بجماعة مشكلة.

فسأل غوروفيتش بلهجة كئيبة: ـ الدعاية إذن؟

ـ الدعاية، ولكن ليست بشكل ظاهر جدا. تكلموا على الأخص عن الاصلاحية وعن مراحل حياتها وبنائها. ولكن ما لدى لأعلمكم إياه! فأنتم لن تفتحوا أعينهم بسرعة طبعا ولكن أعطوهم شيئا يتنسموه.

كان ضجيج شديد جدا يعصف فى رأسى. وجميع

أنواع الأفكار والصور تضج فيها وتزحف وتسقط حتى في حالة إغماء وإذا حدث لاحداها أن تصيح صيحة الفرح فقد كنت أحسب مرتابا بها أنها فى حالة سكر.

يوجد ميكانيك وفيزياء وكيمياء وهندسة حتى ميتافيزيا تربوية يسمح لى بالتساؤل، لماذا تركت هنا فى كورياج هؤلاء النساك الستة فى ظلمة هذا الليل البهيم ؟ كنت قد وعظتهم بفضائل الدعاية، وها هو حسابى فى الواقع: غدا سوف يظهر فى مجتمع كورياج هؤلاء الأشخاص الستة الطيبون المثقفون الرصينون. كان هذا - وأيم الحق - كمن يضع ملعقة من العسل فى برميل من القطران... وفى الواقع هل هذا قطران؟ يا لها من كيمياء! ثم رد الفعل الكيمياوى كان ينذر بأن يكون مبهور النفس لا حد له. فإذا اقتضت الصدفة كيمياء، طيب فلتكن كيمياء أخرى: الديناميت، النيتروغليسيرين، إنفجار غير منتظر رهيب ومقنع يطير إلى عنان السماء جدران الكنيسة مع «الأسمال» وأرواح الأولاد و«القواد» وشهادات مهندسى الزراعة.

دع عنك هذا فضلا عن ذلك؛ فقد كنت على إستعداد لأن أدس نفسى مع كتيبتى المختلطة الطليعية فى أى برميل كان: لقد كنا نمثل — وأقسم لك — قوة إنفجارية كافية وافية. تذكرت عام ١٩٢٠. كنا آنئذ نهاجم بقوة أخرى. كان ذلك بهذه المتفجرات التى قذفتنى إلى أجواء الفضاء مثل فاكولا من رواية غوغول (٥)، وما كنت لأخشى شيئا فى ذلك الحين. ولكن الآن رأسى المقشعر بجميع هذه الأنواع من الزخارف التى كانت — على ما يزعم — ضرورية لتزيين هذه الجواهر المزيفة من التربية. «تفضلى أيتها الجدة وإسمحى بأن أطلق البارود مرة واحدة فى الفضاء» — « فتقول: على هواكم ولكن لا تزعجوا أولادكم الصغار»!

ليس هناك مجال للتحدث عن الانفجارات.

— هيئ العربة يا فولوخوف. سأذهب.

وبعد ساعة كنت واقفا أمام شباك مفتوح من عربة القطار أتأمل النجوم. كان القطار من الدرجة الرابعة، فلا مكان يجلس فيه المرء.

ألم أهرب بخزى من كورياج خوفا من مخزوناتى الخاصة من الديناميت؟ كان من المهم أن أتأكد بنفسى. فالديناميت مادة خطيرة، وما الفائدة من اللعب بها ما دام لدىّ أولادى الرائعون من اصلاحية غوركى؟ بعد أربع ساعات سأغادر هذه العربة من القطار الخانقة والوسخة لأكون فى مجتمعهم النقى.

وصلت إلى الاصلاحية التى تحيطها أشجار الصنوبر فى ساعة كانت الشمس فيها قد أشرقت. فسارع الأولاد من كل حدب وصوب للقائى. هل هم أولاد أم إشعاعات راديوم؟ إن غالاتنكو نفسه الذى رفض حتى ذلك الحين رفضا قاطعا أن يعتبر الركض شكلا للانتقال أرسل نظرة من باب معمل الحدادة وإنطلق كالسهم يزلزل الأرض بعدوه كأنه فيل من فيلة الحرب التى إستعملها الملك داريوس ابن كسرى. وفى وسط صياح الترحيب الصاخب والدهشة والأسئلة الفارغة الصبر قدم أيضا مساهمته:

ـ كيف هذا الأمر هناك، هذا يساعد أو لا يساعد يا أنطون سيميونوفيتش؟

من أين جاءتك يا غالاتنكو هذه البسمة الرجولية المشرقة، ومن أين أخذت هذا العضل اللطيف الذى يمسك بزمام جفنك السفلى إمساكا لطيفا، بأى شئ دهنت عينيك، بالبريلينتين؟ أم بالك الصينى؟ أم بماء نقى من المنبع؟ وبالرغم من أن لسانك الثقيل ما يزال بطيئا فى الحركة فقد عبر عن الانفعال تعبيرا وافيا، نعم عبر عن الانفعال!

سألت الأولاد: ـ لماذا أنتم بهذه الأناقة، هل كنتم فى حفلة الرقص؟

فاجاب لابوت: ـ تماما إنها لحفلة رقص. إن هذا لأول يوم لا نعمل فيه. فى هذا المساء ـ آخر تمثيلية ـ «البرغوث» ثم سوف نودع الفلاحين... آه ولكن قل كيف تجرى الأمور هناك؟

كان الأولاد يبدون بمظهر العيد فى سراويلهم الجديدة وهم يلبسون قبعات المخمل الجديدة التى صنعت خصيصا

لتبهر أولاد كورياج. كان أعضاء الكتيبة المختلطة السادسة تركضون في كل إتجاه ليقوموا باعداد التمثيلية. وفي أركان المهاجع وفي المدرسة وفي المشاغل وفي النادى صناديق مسمرة وأشياء ملفوفة باللفائف والفرش المدروجة وأكوام من الصرر. لقد كنسوا كل مكان ورشوه بالماء مثلما يصنعون للمواسم الكبيرة. وكان مسكني قد سلم للكتيبة الحادية عشرة التي يقودها شورا جيفيلي. وكانت الجدة أيضا فوق الحقائب ولكن الصبيان قد تركوا لها بكرم سريرها المطوى وكان شورا مزدهيا بالخيلاء لهذه اللفتة الكريمة:

ـ الجدة لا يمكننا أن نعاملها مثلنا! أرأيت؟ الأولاد الآن ينامون كلهم على البيدر، القش أفضل حتى من السرير. البنات ينمن في العربات. ولكن كما تعلم: منذ البارحة أصبح نيستيرنكو الرئيس، وهو الآن يخلق مشاكل: فيتأسف على القش. أنظر: لقد أعطيناه الاصلاحية كلها ثم ينازعنا على القش. ولكن ألم نحزم أغراض الجدة حزما لا بأس به. ما رأيك ايتها الجدة؟

فابتسمت الجدة إبتسامة وادعة للأولاد ولكن رأيها كان يخالف رأى الأولاد فى بعض النقاط.

ـ لقد حزمتم حزما جيدا ولكن أين سوف ينام مديركم؟

فصاح شورا: ـ يوجد مكان! إن كتيبتنا الحادية عشرة لديها أفضل القش من نبات الانجيل؛ حتى أدوار نيقولايفيتش قد صاح قائلا: هل يسمح أن ينام على قش كهذا؟ ولكننا نمنا عليه وبعدئذ قدمناه علفا للجواد «الصبى» فأكله بشهية. سنعمل له سريرا لا تخافى!

كانت فئة من الأولاد تشغل مساكن المربين حيث يكونون مشاريع حقيقية فى النقل والحراسة. كان لابوت وكوفال قد أقاما هيئة أركان حرب فى حجرة ليديا. وكان كوفال أصفر الوجه من شدة الغضب، جلس على حافة النافذة يهز بقبضة يده ويتدفق لسانه بسيل من الشتائم ضد موظفى السكة الحديد:

ـ يا لهم من موظفين بيروقراطيين أكاكيين (٦). أقول لهم: هؤلاء أطفال، فلا يصدقون. فقلت لهم:

هل تلزمكم شهادات الميلاد؟ إن أولادنا لم يروا لونها منذ ولدوا. ولكن ماذا يمكن أن يقال لهذا المخلوق إذا كان لا يفهم؟ يقول: إن الطفل الذى يسافر مع شخص كبير لا يدفع أجرة، ولكن إذا لم يكن سوى أطفال... شرحت لهذا الرجل: أى أطفال، طيب: أى اطفال، هل كنت ترضع عند الشيطان؟ ولكن ما دامت هذه إصلاحية للعمل وبعدئذ: نريد عربات قطار شحن... ياله من صعلوك! ثم يطقطق فى أداة حسابه: حمل، نقل... فيعرض عليك كومة من الأنظمة: الخيل، الأثاث المنزلى لها تعريفة معينة؛ وللبذار تعريفة أخرى. فقلت له: بماذا تملأ أسماعى؟ أى اثاث منزلى؟ أرأيت هذا كيف؟ أتحسبنا عائلة بورجوازية تذهب مع كل أملاكها. يالك من حثالة! هل حسبت حسابا أن هذا جاوز الحد، يا حثالة هؤلاء البيروقراطيين، هذا الصعلوك الجالس على كرسيه لا يريد أن يعرف شيئا: إننا لا نعرف بورجوازيين صغارا ولا فلاحين. نحن لا نعرف غير الاسفار والرحلات. لقد حدثته أنا من وجهة نظر طبقية،

وهو يخرجنى قائلا: ما دام الآن توجد تعريفة فلا إعتبار لوجهة النظر الطبقية.

فاتت لابوت حكاية كوفال الأليمة عن رجال السكة الحديدية مضافا إليها حوادثى المحزنة في كورياج، فنقل كل شئ إلى مواضيع محادثة مرحة كأنه لم تكن كورياج، وكأنه لا يجب عليه بعد عدة أيام أن يدير مجلس قادة ذلك الصقع المهمل. فقد أخذت خفته تغيظنى ولكن هذا الشعور تحطم على صخرة دعابته المشرقة. ضحكت مع الجميع ومثل الجميع نسيت كورياج، إن لابوت الآن قد تحرر من المتاعب اليومية لذلك فان أصالته قد نمت وتفتحت: إنه لجامع عجيب: ضعيفو العقل والمختلون عقليا والمرضى نفسانيا والبلداء يدورون دائما حوله ويلتفون فيلاطفونه ويمحضونه ثقتهم وإعجابهم. وإن لابوت يعرف كيف يجرهم ويصنفهم ويضعهم فى علب صغيرة. وهو يحب أن يدللهم ويفحصهم على راحة كفه. فيجعلون فى أصابعه تلألؤا من الجمال

باختلافات من الالوان الدقيقة لا حد لها، ويبدون عينات للطبيعة الانسانية تثير إهتماما بالغا.

قال لغوستويفان الشاحب ذى الهيئة التائهة الصامتة، بشكل مؤثر تأثيرا عميقا.

ـ نعم... ـ عندنا هذه الكنيسة وسط الباحة. فهل نحتاج الى شماس غريب؟ سوف تكون أنت شماسنا.

حرك غوستويفان شفتيه الورديتين الرفيقتين. فقبل الاصلاحية دس أحدهم فى روحه المائعة أفيون التقوى بكميات كبيرة ولم يعد هناك من سبيل إلى العمل حتى الآن ليتوصل إلى إستفراغه. كان يصلى فى المساء فى الأركان المظلمة من المهاجع ويتقبل نكات الأولاد كعذاب لذيذ. ولكن صانع الدواليب كوزير لم يكن مصدقا:

ـ لماذا قلت هذا أيها الرفيق لابوت؟ سامحك الله. كيف يمكن غوستويفان أن يكون شماسا إذا لم يهبه الله البركة الروحية؟

فرفع لابوت أنفه المبقع:

ـ البركة، أنظر وهذه قصة! هل سيضع جبته على ظهره حلة للقداس، تأمل! فسوف يكون شماسا مدهشا!

فبين ثانية كوزير قائلا بصوت حنون: ـ لا بد من البركة. ويجب أن يباركه السيد الأسقف ويخوله ذلك.

جاس لابوت القرفصاء أمام كوزير وهو يحدق به ويرف بأجفانه التى لا أهداب لها.

ـ لعلك تعلم ـ أيها الجد العجوز: السيد يعنى أنه يسود، أى الذى يملك السلطة أليس كذلك؟

ـ السيد يملك السلطة.

ـ طيب ومجلس القادة ماذا تظنه؟ فاذا خوله مجلس القادة، طيب فماذا يضير الأمر؟

ـ إن مجلس القادة ـ يا ولدى الصغير ـ لا يستطيع. إنه لا يعطى المباركة، ـ قال هذا كوزير وقد مال رأسه رقيق الصوت من حنان هذه المحادثة.

بيد أن لابوت وضع يديه على ركبتى كوزير وأكد له بنبرة من الوداعة:

– بلى! يستطيع – يا كوزير – يستطيع. إن مجلس القادة يستطيع أن يمنح مباركة، فلا يبقى لسيدك إلا أن يتمتم!

كان كوزير العجوز الطيب يصغى بانتباه إلى حديث لابوت الذى يندس فى النفس ويميل إلى أن يتنازل عن الجدال. وماذا أعطاه السيد وجميع قديسى السماء؟ لاشئ فى حين أن مجلس القادة قد أنزل عليه المباركة الحقيقية الكريمة: فحماه من زوجته وأعطاه غرفة وضيئة نظيفة فيها سرير وقدم لرجليه جزمة جميلة متينة صنعتها الكتيبة الأولى التى يرأسها غود. ومن المحتمل أنه فى جنة الفردوس عندما سيموت كوزير العجوز فسوف يكون له أمل فى أن يحظى من الله الكريم بتعويض، ولكن فى هذه الدنيا فان مجلس القادة لن يحل محله شئ مطلقا.

فقال غالاتنكو وقد ظهر وجهه المتجهم من النافذة فجأة: – يا لابوت، هل أنت هنا؟

فأجاب لابوت وهو ينتزع نفسه من غمار هذه الأحاديث: – نعم وماذا يوجد؟

وقف غالاتنكو متريثا ووضع مرفقيه على حافة النافذة ووجهه يتطاير منه الغضب ويتصاعد منه بخار الألم الانسانى بطيئا. كانت هناك دمعات ثقيلة كبيرة تترقرق فى عينيه الكبيرتين الرماديتين:

ــ قل له يا لابوت، قل له... وإلا فأنا قادر على كسر رقبته....

ــ لمن؟

ــ لتارانتز.

وأبصرنى غالاتنكو فى الحجرة فابتسم وكفكف من دموعه.

ــ ماذا حدث لك يا غالاتنكو؟

ــ هل له الحق؟ إنه يظن ذلك، لأنه قائد الكتيبة الرابعة، ولكن هل هذا حق؟ لقد أمر بعمل مربط للجواد «الصبى» وهو يقول: للجواد «الصبى» ولغالاتنكو.

ــ ولمن قال هذا؟

ــ لأولاده فى معمل النجارة.

ــ صحيح؟

ـ المربط من أجل الجواد «الصبى» كيلا يقفز من القطار وهم يمسكوننى ليأخذوا قياسى ويقول تارانتز: الجواد إلى اليسار وغالاتنكو إلى اليمين.

ـ ماذا؟

ـ المربط.

حك لابوت وراء أذنه وهو يتظاهر بالتفكير بينما غالاتنكو كان واقفا ينتظر صابرا قراره:

ـ طيب، أ صحيح أنك سوف تقفز من عربة القطار؟ لا سبيل إلى تصديق هذا!

ومن الجهة الأخرى من النافذة كان غالاتنكو يرقص برجليه ويلتفت ليلقى عليه نظرة:

ـ ولماذا أقفز؟ الى أين سأقفز؟ ولكنه هو يقول اصنعوه له متينا وإلا فانه سوف يحطم عربة القطار.

ـ من هذا؟

ـ أنا!..

ـ ولن تحطمها أنت؟

ـ ولماذا أفعل ذلك؟...

— يحسبك تارانتز قويا جدا شديد البأس. ولكن لا تتأذى.

— اذا كنت شديد البأس فهذا شئ آخر.. ولكن المربط لا علاقة له بالموضوع!

قفز لابوت من النافذة وركض الى معمل النجارة، فتبعه غالاتنكو بخطى وئيدة.

كان أركادى أوجيكوف ممثلا أيضا فى مجموعة لابوت. وكان لابوت يعتبره عينة نادرة جدا ويتحدث عنها بحرارة مخلصة:

— إن نموذجا كأركادى هذا يأتى مرة واحدة فى الدهر. إنه لا يفارقنى عشر خطوات، يخاف من الأولاد، فهو يأكل وينام الى جوارى.

— هل يحبك؟

— صدقا! ولكن كوفال أعطانى المال ثمنا للحبال فسرقه...

ويطلق لابوت ضحكة فجائية ويطلب من أركادى وهو جالس على كرسى:

ـ قل لى لأرى : أين خبأت المال؟ فيجيب أركادى بعدم إكتراث مكدر دون أن يغير من جلسته أو يضطرب :

ـ فى بنطلونك العتيق!

ـ وماذا حدث بعدئذ؟

ـ بعدئذ أنت وجدته.

ـ أنا لم أجده يا بنى، وإنما قبضت عليك بالجرم المشهود. أهكذا؟

ـ نعم، هكذا.

وما كانت عينا أركادى الملطختان لتفارقا وجه لابوت، ولكنهما ما كان فيهما شئ انسانى، انهما أداتان اصطناعيتان زجاجيتان ميتتان.

ـ إنه قادر حتى على سرقتك يا أنطون سيميونوفيتش — وأيم الحق ـ وقد يفعل ذلك! ألن تفعل ذلك؟

فسكت أوجيكوف.

ـ سيفعل ذلك! ـ قال هذا لابوت متحمسا، بينما كان أوجيكوف يتتبع بعدم إكتراث حركته. ونيترينكو أيضا لصق بلابوت. وهو ذو عنق طويل نحيل وتفاحة

آدم عنده بارزة ورأسه يتأرجح على كتفيه كخيلاء الجمل التافهة. قال لابوت عنه:

— من هذه الحطبة يمكن أن يصنع المرء كل ما يشاء: جرارات عربة، ملاعق، أحواض للسقاية ومعازق ولكنه يعتبر نفسه لصا حقيقيا.

لقد هنأت نفسي برؤية كل هؤلاء الصحاب يدورون حول لابوت. وهكذا فقد كان يسيرا عليّ جدا أن أعزلهم عن صفوف الأولاد. إن الحكم التي يلقيها على أسماعهم بوفرة كانت تؤثر فيهم تأثيرا مطهرا، وهذا ما عزز في نفسي الانطباع بحسن النظام والالمام الذي تحدثه في نفسي الاصلاحية. وعليه فان هذا الانطباع أخذ في الوقت الحاضر في نظري وضوحا كبيرا حتى بدا لي جديدا ولا أعرف لماذا؟

إن الأولاد جميعا طلبوا مني أخبارا عن كورياج ولكنني رأيت أن هذا بدافع الأدب فحسب كما يقال لك عندما تلاقي أحد الأشخاص: «كيف حالك»؟ وفي بعض الأركان النائية من مجتمعنا أخذ الاهتمام

الفعال بكورياج يجف ويتبخر. وكانت شواغل أخرى تعيش في الخواطر، وكانت إنفعالات أخرى تهيمن: عربات القطار، المربط المخصص للجواد ولغالاتنكو، ومساكن المربين وأشياء أخرى أوكل أمرها الى الأولاد ومبيت الليالى على القش و «البرغوث» و بخل نيستيرنكو والصرر والصناديق وقبعات المخمل الجديدة والوجوه الحزينة لماروسيا وناتالكا وتاتيانا من غونتشاروفكا ونوامي الحب اللطيفة التي كتب عليها أن تجف. كانت تجرى على سطح الاصلاحية الحكايات والنكات والضحك يتدفق بدفعات من السخرية الودية و بدون خبث. كان كل شئ كالموجات التي تجعد صفحة حقل الحنطة الناضجة، كان هذا يبدو لك بخفة ممتعة. ولكن في الواقع كانت القوى الكامنة في كل سنبلة تتابع حلمها الوادع، والسنبلة تتأطر بهدوء وتتمايل تحت دغدغة الهواء العليل دون أن تسقط منها أى ذرة من غبار الطلع ولا قلق يسيطر عليها. كان الأولاد لا يجدون سبيلا إلى التوجس من

كورياج كما كانت السنبلة لا تهتم بالدراس. إن الدراس سيأتى فى أوانه كما سيصل عملهم هناك أيضا.

كانت أقدام الأولاد الحافية تدوس الدروب الدافئة بخطى وئيدة وكانت قاماتهم المرصوصة برباط وثيق تتذبذب ذبذبة خفيفة لدى الراحة. كانت أعينهم تبتسم لى إبتساما هادئا، وكانت شفاههم بارتعاد لا يكاد يبين، توجه إلى ترحيبا وديا. ففى الحديقة وفى البستان، وعلى المقاعد المهجورة الكئيبة وعلى ضفة النهر كانت جماعات صغيرة تتجمع هنا وهناك. وكان الصبيان الذين رأوا كثيرا من الأشياء يذكرون الماضى: أمهاتهم والعربات المسلحة برشاشات الأنصار والكتائب التى كانت تجوب السهوب والغابات. وعلى رؤوسهم الأغصان وطيران النحل وعطور «ملكات الثلوج» والأكاسيا البيضاء تكللها صامتة ساكنة.

أخذت أستبين «الحياة السعيدة» بارتباك خجل. كان تعبر رأسى صور ساحرة للرعاة والنسائم والحب. ولكن صدقنى صدق اليقين، أن الحياة قادرة على أن تمزح وفى بعض الأحيان يكون مزاحها فيه وقاحة. كان

هناك ولد ذو أنف مرفوع ووجه مقطب يلقب «موبسيلك» جالسا في ظلال خميلة من الليلك يعزف بالناى. على أنه ليس نايا بل شبابة وربما هو مزمار، وكان ذا وجه ماكر كوجه اله الغابة. وعلى حافة المرج كانت الفتيات يضفرن الزهور، وناتاشا بيترنكو المكللة بالزهر قد أثرت في نفسى حتى كدت أبكى من فرط جمالها الساحر. وها هو ذا «بان» (اله الجمال) يبرز من بين الأشجار على الدرب بابتسامة من شاربيه المرتجفين الأشيبين، ورف عينيه الزرقاوين البراقتين:

— وأنا كنت أبحث عنك. أبحث عنك! كانوا يقولون أنك ذهبت إلى المدينة. طيب، هل أقنعت هؤلاء الطفيليين؟ يجب أن يرحل الأولاد وهؤلاء الأغبياء يهزأون بالناس بتلفيق الحكايات...

قلت: — إسمع يا كالينا إيفانوفيتش، لعلك تحسن صنعا بالذهاب إلى المدينة والاستقرار عند إبنك ما دام الأولاد ما يزالون هنا، وإلا فسوف يكون صعبا عليك أن تفعل ذلك عندما سوف نرحل.

ودس كالينا إيفانوفيتش يده في جيوب جاكيته الواسعة، يبحث فيها عن غليونه:

ـ أنا كنت أول من جاء إلى هنا وسوف أكون آخر من يرحل. جلبنى الفلاحون إلى هنا وسوف يأخذنى الفلاحون، هؤلاء الطفيليون! لقد أتفقت مع ذلك هناك مع موسى! ولا يصعب نقلى! ربما قرأت أنت فى الكتب منذ كم يوجد العالم. طيب فى غضون ذلك الوقت كله كم نقل أمثالى من العجائز الشيوخ دون أن يضيعوا واحدا. سوف أنقل حسنا. هيه، هيه...

تابعنا سيرنا على الدرب القصير. إشتعل غليون كالينا إيفانوفيتش، وكانت عيناه اللتان ترفان، تهيمان فى أعالى الأجمات وفوق منعطف نهر كولوماك والفتيات المتوجات بالازهار و «موبسيلك» مع نايه.

ـ لو كنت أعرف تلفيق الأكاذيب كبعض الطفيليين لقلت: سأذهب لأقوم بجولة فى كورياج لأرى. ولكننى أقول بجرأة: لن أذهب. لعلك تعرف: إن الانسان ـ وهو غير مصنوع صنعا موفقا ـ إنما هو مخلوق ضعيف وليس

العمل يرديه التهلكة بقدر الهموم. لا يهم ما صنعت أو ما لم تصنع، أنظر: أنا من الناحية النظرية رجل، ولكننى من الناحية العملية أصلح لأن تغلى غطامى ليؤخذ منها الغراء. فعندما سيصبح الناس أكثر ذكاء وفهما فانهم سوف يستعملون العجائز ويستفيدون منهم هكذا. إنهم يعطون غراء جيدا...

وبعد ليلة لم أنم فيها وبعد جولاتى فى المدينة وجدت نفسى فى حالة مبلورة نوعا ما: كانت الدنيا ترن رنينا هادئا وتتلامع بأمواج دائرية. وتذكر كالينا إيفانوفيتش أحداثا مختلفة من حياته، ولم أملك إلا أن أشعر بشيخوخته الحاضرة وآسى عليه:

ـ حياتك جميلة يا كالينا...

ـ سأقول لك ـ وتوقف ليحشو غليونه ـ لست أنا أى أبله غبى، أنا افهم الأمور. إن الحياة قد رتبت ترتيبا سيئا، تأمل: حالما تمتلئ البطن يخرج المرء لحاجاته قبل أن ينام، وعند اليقظة أيضا الخبز واللحم.

ـ أنتظر، والعمل؟

ـ ولأى شئ يصلح هذا العمل؟ أنت تفهم كيف كان هذا الميكانيك: إن العمل كان يستفيد ممن لا يفعل شيئا، من الطفيلى، وأولئك الذين ما كانوا ليستفيدوا منه بشئ كانوا يكدون منذ الصباح حتى المساء كثيران الحراثة.

وسكتنا.

وتابع كالينا إيفانوفيتش كلامه قائلا: ـ خسارة أننى عشت قليلا فى عهد البلاشفة. هؤلاء الشياطين عندهم لكل شئ طرائقهم ثم هم قليلو الأدب. أنا لا أحب عندما يكون الناس غلاظا أجلافا. ولكن الحياة معهم حياة أخرى تختلف عن غيرها، يقولون لك، هيه، هيه... سواء أكلت أم لا أو أنت بحاجة إلى الذهاب إلى مكان ما فهذا سيان، ولكن قم بعملك. أ رأيت هذا؟ لقد أصبح العمل ضروريا لجميع الناس. هناك بلهاء مثلى لا يفهمون شيئا فعندما يعملون ينسون أن يأكلوا، إذا لم تكن المرأة التى توبخهم. وأنت أ لا تذكر؟ جئت ذات مرة وسألتك: هل فطرت؟ وكان ذلك فى

المساء. وها أنت أخذت تفكر،... هيه، هيه. إن فطرت أم لا! كان يبدوعليك أنك نعم فطرت، ولكن ربما هذا البارحة. لقد نسيت، هيه. هيه... أ رأيت هذا؟

ظللنا نتنزه فى الحديقة حتى خيم الظلام. وحينما إنطفأت أضواء النوبتجية فى الغرب وأطبق الظلام سارع كوستيا شاروفسكى وهو يضرب ساقيه العاريين بغصن دقيق وقال حانقا:

ــ نحن نعد التمثيلية وأنتما هنا تتنزهان. يقول الأولاد أنكم جئتم يا إلهى، لقد أصبح القيصر مشعوذا! إن لابوت هو الذى يمثل دوره. وقد صنع لنفسه أنفا هكذا!..

كان جميع اصدقاء القرية والمزارع موجودين بالمسرح. وجاءت كومونة لوناتشارسكى بقضها وقضيضها. كان نيستيرنكو جالسا على العرش وراء الستار المسدل يدافع ضد الأولاد الذين يتهمونه بكونه بخيلا شحيحا وعاقا قاسيا. وكانت أولغا فورونوفا منهمكة فى تزيين ملامح أبنة القيصر أمام مرآة، فاحتدت:

— إنهم يعذبون نيستيرنكو هناك.

ولم تكن هذه أول مرة تمثل فيها مسرحية «البرغوث» ومع ذلك فان إعداد التمثيلية كان يلبكنا كثيرا لأن اللذين يقومان بتزيين الوجوه وهما بوتزاى وغوروفيتش كانا فى كورياج، فنجم عن ذلك ماكياج صارخ. وهذا كان لا يثير أحدا: فالتمثيلية ما كانت سوى حجة لأواخر فيض العواطف. كان فى إمكان مراسم الوداع فى كثير من النقاط أن تستغنى عن الاخراج. وكانت فتيات بيروغوفكا وغونتشاروفكا قد أعدن إلى عهد ما قبل التاريخ لأن التاريخ فى نظرهن كان يبدأ منذ مجئ أولاد اصلاحية غوركى الاشداء الى ضفاف نهر كولوماك. ففى أركان سقائف الطاحون وقرب المدافئ التى خمدت فيها النار منذ شهر آذار وفى منافذ الكواليس المعتمة وعلى المقاعد المصنوعة كيفما كان، وعلى الأخشاب وعلى ملحقات المسرح المختلفة كانت الفتيات يجلسن ومناديلهن المزينة بالزهور كانت قد هبطت على اكتافهن تكتشف روؤسا شقراء محنية بحزن. ولم يكن هناك

من كلام ولا موسيقى سماوية ولا تنهدات تقدر على ملء قلوبهن الطاهرة بالمرح. كانت أصابعهن الرقيقة تعبث على ركبهن بأهداب الأوشحة، ولم يكن هذا أبدا سوى عبث فات أوانه ولم يعد يجدى فتيلا. كان الأولاد قربهن يتخذون هيئة من هو حزين حزنا أليما. وكان لابوت فى بعض الأحيان يلقى نظرة من حجرة الفنانين ويقطب أنفه هازئا على جثمان إله الحب اللطيف ويقول بصوت متهكم تهكما لذيذا:

— بيتيا يا حبيبى!.. تستطيع ماروسيا أن تسكت بدونك، إذهب وإستعد... هل نسيت أنك تلعب دور الجواد؟

إستعاض بيتيا عن الزفرة التى تهدئ لواعجه بتنهدة رقيقة للوداع وترك ماروسيا غارقة فى وحدتها ومن حسن الحظ أن قلب ماروسيا مكون على اساس مبدأ الأجزاء القابلة للتبديل. فسوف يمر شهران لتنزع ماروسيا الصورة الصدئة لبيتيا التى عفى عليها الزمن ثم تنظف قلبها ببنزين الأمل وتضع مكان تلك الصورة صورة أخرى

جديدة لاهبة كصورة باناس ستوروجيفوى الذى حزن في هذا الحين فى جماعة أولاد الاصلاحية على توديع أصدقاء اصلاحية غوركى الطيبين ومع ذلك ففى أعماق نفسه فقد تهيأ فى فكره لأن يتلاءم مع قلب ماروسيا. وبعبارة موجزة: كل شئ حسن فى هذه الدنيا وإن بيتيا أيضا مسرور بدوره: وهو أحد جياد عربة الزعيم بلاتوف.

إبتدأ إحتفال الوداع ، فبعد خطب حارة طيبة وبعد التمنيات بسلامة السفر وكلمات العرفان والاتحاد بين الشغيلة رفعت الستارة: فحول القيصر التافه الأخرق طاف القواد القدماء بينما كان بواب غليظ ذو شكل غريب يكنس وراء ظهرهم غبار الشيخوخة المتساقط منهم. وظهرت عربة تخب جيادها الثلاثة من الباب الخلفى للسقيفة. كان غالاتنكو وكوريتو وفيدورنكو يعلكون اللجام ويشيلون الرؤوس خيلاء ويحطمون أثاث المسرح فخلقوا ضوضاء واطاروا تارانتز على المسرح وهو العربجى ، فقد كانت الأرض الخشبية العتيقة تصر من ركضهم. كان

يتعلق بحزام تارانتز الزعيم المحارب بلاتوف المروض بصورة مهزئة بشخص أوليغ أوغنيف نجم مسرحنا الجديد. فاطاح جمهور المتفرجين ببقايا الحزن وانغمسوا في أعصار البهجة والجمال المسرحيين. وفي الصف الأول كان كالينا إيفانوفيتش يبكي ويكفكف دمعة باصبع صفراء متجعدة. لكم كان مسرورا!

وتذكرت فجأة كورياج!

لا، ليس الآن الوقت، وقت إستجداء العفو لأنه ما من أحد سيجنبني هذه الكأس ويعفيني منها. وشعرت فجأة أنني متعب منهوك القوى بشكل لا سبيل إلى التعبير عنه تعبيرا وافيا.

كان يسود في حجرة الفنانين مرح لطيف. فقد كان لابوت بثياب القيصر والتاج على رأسه مائل وهو جالس في أريكة واسعة لايكاتيرينا. غريغوريفنا وهو يؤكد لغالاتنكو أنه قام بدور الجواد بشكل موفق أصيل.

— في الحياة — دعك من الكلام عن المسرح— ما رأيت قط مثل هذا الجواد.

قالت أوليا فورونوفا للابوت:
- قم يا فانيا، ودع أنطون سيميونوفيتش يستريح.
ونمت فى هذه الاريكة البديعة دون أن أنتظر نهاية المسرحية. كنت أسمع فى خلال النوم الأصوات الحادة لأطفال الكتيبة الحادية عشرة الذين يناقشون بضوضاء مزعجة:
- نحمله الى غرفته! نذهب الى هناك! هيا نحمله!
وكان سيلانتى بالمقابل يهمس ليصرفهم عن رأيهم:
- أنت الآن لا تعيط كما يقال! إنه نائم. لا تعكر نومه. هذا كل شئ! أ رأيت أي حكاية!

٦. خمسة أيام

رحلت فى اليوم التالى بعد ما عانقت كالينا إيفانوفيتش وأوليا ونيستيرنكو. وقد تلقى كوفال تعليمات بتنفيذ خطة الرحيل تنفيذا دقيقا والرحيل بعد خمسة أيام مع الاصلاحية إلى خاركوف.

شعرت بانقباض وعدم إرتياح. كانت بعض الاتزانات قد إختلت فى نفسى وما كنت لأشعر بالرضى. وصلت من محطة ريجوف إلى ديركورياج حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر. وما كدت أخطو الأبواب حتى إنهال عليّ ما يدعى بالمزعجات.

كانت هناك لجنة تحقيق تقيم فى كورياج: بريجيل وكلامير ويورييف ووكيل النيابة وكان بينهم المدير القديم للاصلاحية ولا أدرى لماذا؟

قالت لى بريجيل بقسوة:

ـ إبتدأ الضرب هنا.

ـ من هم الضاربون ومن هم المضروبون؟

ـ إنهم غير معروفين مع الأسف.... ومن هم المحرضون...

وألقى وكيل النيابة ـ وهو رجل ضخم ذو نظارات ـ نظرة مذنب على بريجيل وقال بهدوء:

ـ أعتقد أن الأمر واضح. وربما ليس هناك تحريض... هو مجرد تسوية حساب نوعاما. والأمر يعنى

بعبارة صحيحة: وسائل العنف بدون خطورة. وسوف يكون من المهم معرفة الجناة. ولكن المدير قد وصل... فربما ستتوصل إلى معرفة ذلك بشكل أكثر زيادة ونحن سوف نُفضى بذلك.

كانت بريجيل بادية الاستياء من سلوك وكيل النيابة. فركبت السيارة بدون أن تزيد كلمة واحدة وإبتسم يوربيف لى إبتسامة ضيق. وعادت اللجنة أدراجها.

كان الصبى دوروشكو قد ضرب ضربا مبرحا فى الباحه بعدما سرق من المهاجع ستة أزواج من الأحذية جديدة نسبيا، وإنسل بها الى الباب. إن جميع ظروف هذا الحادث الليلى تدل على أن الاعتداء كان منظما بشكل جيد وأن دوروشكو كان مراقبا أثناء السرقة. كان قد وصل الى برج الناقوس عند ما ظهر له الأولاد من دغلة الأكاسيا وألقوا على رأسه غطاء ورموه بالأرض وضرب ضربا مبرحا. وكان غوركوفسكى مارا هناك عائدا من الاصطبل فلمح فى الظلمة أشكالا قصيرة القامة تتواثب فى كل جانب دون أن تكترث بدوروشكو ولكنهم أخذوا

الغطاء معهم. وإن الأبحاث التي أتخذت على الفور في المهاجع كي يكتشف الآثمون لم تؤد الى شئ: كان الجميع يغطون في نوم عميق. كان دوروشكو مغطى بكدمات زرقاء، فكان لا بد من إدخاله مستوصف الاصلاحية وإستدعاء الطبيب ولكن الطبيب لم يجد فيه إصابة خطيرة في عضويته. بيد أن غوروفيتش أطلع بوريف على الفور.

كانت اللجنة التي وصلت برئاسة بريجيل، قد أجرت تحقيقها بصرامة. وأستدعيت كتيبتنا المختلطة الطليعية من الحقول وأستجوبت إستجوابا فرديا. كان كلامير بشكل خاص يطلب بينات ضد أولاد إصلاحية غوركي. ولم تسمع شهادة أي واحد من المربين، فقد تحاشوا بصورة عامة الحديث معهم وإكتفوا بأمرهم باستحضار هذا أو ذاك. أما أولاد إصلاحية كورياج فلم يستدع منهم أحد لاستجوابهم في غرفة على حدة ما عدا خوفراخ وبيريتز وكان هذا، لا ريب، لأنهما كانا يصيحان تحت النوافذ:

ـ يجب أن نسأل نحن! لماذا تستجوبونهم! إنهم سيقتلوننا وما من أحد نشتكي إليه.

كان دوروشكو وهو صبي مجدور في السادسة عشرة من عمره، على سريره في المستوصف ينظر الىّ بعين يقظة متوجسة جافة ويهمس:

ـ كنت أود أن أقول لك منذ زمن بعيد...

ـ من ضربك؟

ـ لماذا جاء هؤلاء؟... ومن يعني الذين ضربوني؟ ولكنني أقول لك ليس أولادكم الذين ضربوني وهم يريدون أن أقول أنهم هم. ولو لا أولادكم لقتلونني. فحينما مر ذاك الذي هو قائد ولى الأدبار الذين ضربوني...

ـ ولكن من هم إذن؟

ـ لن أقول... ما سرقت لنفسي؛ إذ أمرني بذلك صباحا... هو...

ـ خوفراخ؟

سكوت.

ـ خوفراخ؟

ودس دوروشكو وجهه فى الوسادة وشرع يبكى.
ومن خلال بكائه ميزت بصعوبة ماكان يقوله:

ـ إنه... سوف يعرف... كنت أعتقد... هذه آخر مرة... كنت أعتقد...

انتظرت حتى سكن وهدأ وأعدت عليه السؤال:

ـ ألا تعلم من ضربك؟

وفجأة إستوى فى جلسته وأمسك رأسه بيديه وأخذ يميل يمنة ويسرى وهو فى غمرة ألم عميق. وبعدئذ إبتسم بدون أن ينزع يديه من رأسه والدمع يترقرق فى عينيه.

ـ ولكن بلى! كيف لا أعرفه؟ ولكنهم ليسوا من أولاد إصلاحية غوركى. إنهم لا يفعلون هكذا.

ـ فكيف إذن؟

ـ لا أعرف، ولكن بلا الغطاء... لا يستطيعون بالغطاء...

ـ لماذا تبكى؟ هل تشتكى وجعا؟

ـ لا، لا أشتكى وجعا، ولكننى كنت أعتقد هذه آخر مرة... وإنك لن تعرف...

ـ لا بأس، عليك أن تشفى وكل شئ سننسى.

ـ أوه، نعم... من فضلك يا أنطون سيميونوفيتش، سوف تنسى!..

وهدأ أخيرا.

أفتتحت تحقيقي الخاص. مد غوروفيتش وقرغيزوف أيديهما وسيطر عليهما الحنق. وقد حاول إيفان دينيسوفيتش أن يتخذ وضعا شرسا فينصب شعر حاجبيه ولكن طبقات قوية من السماحة كانت تغشى وجهه منذ عهد بعيد جدا حتى أن هذه التجعدات لم تفلح إلا باضحاكي:

ـ لماذا جعلت رأسك هكذا يا إيفان دينيسوفيتش؟

ـ كيف لماذا جعلت رأسى هكذا؟ أيذبح المرء هنا وأنا ينبغى لى أن أعرف! لقد ضربوا دوروشكو هذا ضربا مبرحا فماذا، هناك حسابات قديمة...

ـ أشك فى أن هناك حسابات قديمة.

ـ طيب فماذا هناك؟

ـ لعل فى هذا الأمر حسابات جديدة. ولكن قل لى هل أنت متأكد بأنهم ليسوا أولاد اصلاحية غوركى؟

فقال إيفان دينيسوفيتش مندهشا : ـــ ماذا تقول يا لطف الله. ولماذا يفعلون هكذا؟

نظر الىّ فولوخوف نظرة شرسة :

ـــ من؟ نحن؟ هل نضرب هذا الصغير؟ أى واحد منا يصنع هذا الصنيع؟ اذا كنت تقصد ـــ لنفرض ـــ خوفراخ أو تشوريلو أوكوروتكوف فاذن فليس سوى كلمة لتقولها. ذهب ليسرق الأحذية وبعدئذ؟ إنهم يسرقون هكذا كل ليلة. كم يوجد أيضا من هذه الأحذية؟ هذا سيان، فحينما ستصل الاصلاحية لن يبقى شئ هنا أبدا. فليسرقوا إذن حتى يفطسوا. نحن لن نعيرهم إنتباها. لا يريدون أن يشتغلوا هذا شئ آخر...

وجدت إيكاتيرينا غريغوريفنا وليديا فى غرفتهما الخاوية. وهما فى حالة إضطراب شديد. لقد روعهما مجئ اللجنة الى أبعد حد. كانت ليدا جالسة الى النافذة لا تحيد ببصرها عن الباحة التى تراكمت فيها الأوساخ. أما إيكاتيرينا غريغوريفنا فقد تفحصت وجهى بنظرة إعياء وسألتنى :

ـ أنت مسرور؟

ـ من أي شئ؟

ـ من كل شئ: من المنزل والأولاد والرؤساء؟

فكرت لحظة: هل كنت مسرورا؟ ولكن في الواقع أي داع يدعوني الى أن أكون غير مسرور؟ كل هذا يتجاوب تقريبا مع ما كنت أتوقع.

قلت: ـ نعم، وبصورة عامة لا أستشعر شيئا من الفزع لأصيح.

فقالت ايكاتيرينا غريغوريفنا دون إبتسامة وحيوية: ـ أنا أصيح، نعم أصيح. لا أستطيع أن أفهم لماذا نحن وحيدون. هنا مصيبة كبرى، مأساة إنسانية مريعة، ومن يأتي ليرانا؟ أشكال من... السادة المنتفخين بالوجاهة يحتقروننا. ففي هذه العزلة حكم علينا بالاخفاق. لا أريد، لا أستطيع...

وضربت ليدا بيدها برفق على حافة النافذة وأنشأت تكلمها وكادت لا تحبس نحيبها:

ـ أنا صغيرة، شخص صغير... أريد أن أعمل،

أود من كل قلبى أن أعمل... وربما سيكون فى وسعى أن أحرك جبالا... ولكننى واحدة... مخلوقة إنسانية... ولست حشرة.

وإستدارت صوب النافذة. وأغلقت الباب برفق وخرجت إلى الدرج العالى المرتج. كان فى أسفله فانيا زايتشنكو وكوستيا فيتكوفسكى. ضحك كوستيا قائلا:

– وبعدئذ، أكلوا؟

اما فانيا فبحركة رصينة مليئة بالزهو أشار بيده إلى الأفق وقال:

– حقا، لقد أشعلوا النيران وطبخوا البطاطس والتهموها: وبعدئذ تمددوا ورقدوا رقدة القيلولة. كانت كتيبتى تعمل هناك، وكنا نبذر البطيخ، نحن كنا نضحك وقائدهم بيتروشكو يضحك أيضا... وها هو ذا... يقول: أكلنا البطاطا بملئ البطن!

– وفى آخر الأمر أكلوا جميع البطاطا! ومع ذلك فكان يوجد اربعين بودا.

– وهكذا طبخوها والتهموها. وقد خبأوا منها فى

الغابة وتركوا الباقى فى الحقل ثم ناموا. ثم لم يذهبوا أيضا الى المطعم. قال بيتروشكو: لماذا نذهب للغداء ما دمنا بذرنا اليوم بطاطا؟ فقال أوداريوك: أنت خنزير! وإذ ذاك إشتبكوا فى الشجار. وقد كان صاحبك ميشا هناك فى أول الأمر، كان يريهم كيف تغرس البطاطا وبعدئذ أستدعى الى اللجنة.

ما كان فانيا يلبس فى ذلك اليوم سرواله الممزق، كان يرتدى بنطلونا قصيرا ذا جيوب ومثل هذا البنطلون لا يصنع إلا فى إصلاحية غوركي. وما كان يمكن أحد سوى شيلابوتين أو توسكا ليشاطراه الثياب. فبينما كان نقص قصته على فيتكوفسكى بحركات من يده ويضرب الأرض بساقيه الناعمين، كان فانيا يطرق تجاهى بعينيه حيث كانت تتراقص إلتماعات صغيرة حارة من سخرية طفولية لطيفة.

فسألت: — هل شفيت يا فانيا؟

فقال فانيا وهو يمسد صدره بيده: — أنا بخير. كانت كتيبتى اليوم فى الاولى الخاصة «ب» المختلطة.

ها، ها، «ب» يعني البطيخ! لقد إشتغلنا مع دينيس ثم أستدعى بعدئذ فتابعنا الشغل بدونه. سوف ترى كيف ستنبت البطيخات. ومتى سوف يصل أولاد غوركي؟ بعد خمسة ايام؟ آه! طيب سوف تكون شيئا ممتعا رؤيتهم! حقا ستكون شيئا ممتعا.

ـ فانيا! ما رأيك من ضرب دوروشكو؟

التفت اليّ فانيا فجأة بوجه رصين ولم يحد نظره عن نظارتي ثم غضن أسارير خديه وعاد فنشر أساريرهما ثم أدار رأسه هنا وهناك وأدار إصبعه قرب أذنه وإبتسم:

ـ لا أعرف.

ثم مضى بخطى مسرعة كأنما يستدعيه أمر هام.

ـ إنتظر يا فانيا! أنت تعرف وينبغي لك أن تقول لي عنه.

وقف فانيا عند جدران الكنيسة ونظر اليّ عن بعد وبعد لحظة من الاضطراب قال ببساطة وبرودة كأنه رجل وهو يشد على كل كلمة.

ـ سأقول لك الحقيقة: لقد كنت هناك؛ ولكن من كان أيضا لن أقول لك عنه! وليس له أن يعود الى السرقة!

مكثنا أنا وفانيا نفكر. وكان كوستيا قد ذهب. فكرنا وفكرنا وقلت لفانيا:

ـ إذهب الى التوقيف! فى غرفة الاحداث الطلائع. قل لفولوخوف أنك موقوف حتى يقرع الجرس إشارة النوم.

رفع فانيا بصره وهز برأسه صامتا بالموافقة وركض الى غرفة الاحداث الطلائع.

أتمثل هذه الأيام الخمسة فى قاع حياتى كلها كخط أسود طويل. خط لا أكثر. وإننى لأتذكر بصعوبة بعض التفاصيل عن نشاطى آنذاك. ومن المحتمل ـ فى الواقع ـ أن هذا لم يكن نشاطا بل نوعا من الحركة الداخلية ولربما مجرد قوة كامنة وراحة للقوى المنظمة تنظيما جيدا. كان يبدو لى آنذاك أننى كنت أشتغل بحمية وهمة لتحليل المشاكل وحلها. وفى الواقع كنت أنتظر فقط وصول أولاد اصلاحية غوركى.

ومع ذلك فقد كنا نصنع شيئا.

وإننى لأذكر: كنا نستيقظ فى الساعة الخامسة بالضبط وكنا نغتاظ بصبر فى ملاحظة الانعدام الكامل لرغبة الاقتداء بنا وتقليدنا لدى أولاد اصلاحية كورياج. ففى ذلك الحين كانت الكتيبة المختلطة الطليعية لا تكاد تحظى بالنوم. كانت هناك أعمال يستحيل تأجيل القيام بها. وكان شيرى قد جاء بعدى بيوم. وفى مدى ساعتين قاس الحقول والساحات والفسحات بنظر حاد متأثر متجولا فى كل المنطقة بخطى كارهة صامتة يقضم كل نوع من وساخة المنطقة النباتية. وفى المساء عاد أولاد اصلاحية غوركى وقد أحرقتهم الشمس وهزلوا وإغبروا، فبدأوا بتنظيف المكان الذى كان ينبغى إيواء قطيعنا الكبير من الخنازير.

شرعنا فى حفر الحفر لأجل المنابت وأقفاص الانضاج. وبدا فولوخوف إذ ذاك قائدا ومنظما ممتازا فقد وجد السبيل إلى أن يترك للحقول زوجين من الخيل بقيادة رجل واحد وإلى أن يستعمل البقية الباقية من جماعته فى أعمال أخرى. كان بيوتر إيفانوفيتش غوروفيتش يخرج

صباحا مرتديا قبعة ذات حواف عريضة ومسلحا بمعزق من طراز ساحر بشكل خاص، كان يهزه وهو يقول للفيف من أولاد كورياج الفضوليين:

ـ هيا نعزق الأرض يا أصحابى البواسل.

كان «بواسل» كورياج يديرون ظهورهم ليذهبوا وشأنهم. وكانوا يقابلون فى طريقهم بوتزاى أسود كالليل وهو بسرواله القيصر وسمعوا بنفس الحياء دعوته التى يصوغها بأخفض نبرة:

ـ سأعمل طويلا من أجلكم أيها المتقاعسون اللعينون؟

كان بعض طلابنا قد وصلوا مساء وأخذوا رفشا، ولكن هؤلاء قد أعدتهم حالا الى خاركوف: فلا مجال للعبث. فقد كانت دورة إمتحانات الربيع تجرى. كان الفوج الأول من طلابنا يتقدم فى هذا العام إلى معاهد التعليم العالى.

وأذكر: فى تلك الأيام الخمسة، كان قد بدئ وأنجز كثير من الأعمال. ومع بوروفوى الذى كان قد

أنجز بسرعة البرق أماكن لاستعمال خاص واسعة وبدون تيارات الهواء، كان فريق من النجارين يشتغل فى المستودعات والمدرسة والمساكن وفى أقفاص الإنضاج والمنابت. وكان ثلاثة من الخبراء الكهربائيين منهمكين فى المحطة الكهربائية وثلاثة عمال آخرين ينقبون فى أحشاء الأرض. فقد كنا قد علمنا من سكان بودفوركى أن أنابيب ماء كانت توجد فى كورياج منذ عهد الرهبان. فقد كان هناك خزان ضخم يشغل فعلا السطح العلوى لبرج الناقوس وفى أسفل البرج نجحنا بسهولة فى نبش أنابيب المياه.

وفى ظرف يومين كانت الباحة كلها قد تغطت بألواح الخشب والنشارة والعوارض الخشبية ومحفورة بقنوات: لقد إبتدأ عهد إعادة البناء باقوى ما فى الكلمة من معنى.

كنا نبذل جهدا ضئيلا جدا لتحسين الشروط الصحية لسكان كورياج. فكنا نحن والحق يقال قلما نغتسل أيضا. فمنذ الصباح الباكر كان شيلابوتين وسولوفييف يذهبان بالسطول الى العين «العجيبة» فى أسفل

الربوة، ولكنهما بينما يكونان يتسلقان سفحها الوعر والسائل الثمين ينسفح منها نكون نحن قد سارعنا الى مراكز أعمالنا، ويكون الأولاد قد ذهبوا الى الحقول ويبقى سطل الماء لا فائدة له يسخن بين الجدران القائظة لغرفة الأحداث الطلائع. كان الوضع لا يرضى كما يجب فى ميادين أخرى لها صلة واشجة بالصحة. كانت كتيبة زايتشنكو العاشرة التى انتقلت إلى جانبنا دون تفكير طويل قد أقامت — خلافا لجميع الخطط والأحكام — فى حجرتنا حيث رقدت على أرض الخشب متدثرة بألحفتها. وعلى الرغم من أن هذه الكتيبة تكونت من أولاد صغار لطفاء فقد جلبوا مع ذلك إلينا عدة أجيال من القمل.

ومن وجهة نظر القضايا التربوية العالمية لم يكن هذا مصيبة كبرى، ولكن ليدا وإيكاتيرينا غريغوريفنا رجتانا بالحاح فى أن نكف بقدر ما يمكن عن زيارتهما فى غرفتيهما، وأن نستعمل بأقل ما يمكن الأثاث، وأن لا نقترب من الطاولات والأسرة وسائر الاشياء الناعمة. كيف دبرتا أمرهما ومن أين جاء أنهما كانتا تبدوان

موسوستين تجاهنا، قد أحرج فى قول ذلك لأنهما كانتا لا تكادان تغادران فى النهار مهاجع الأولاد حيث كانتا تنشغلان فى توضيح ظواهر عديدة من الحياة فى كورياج بموجب برنامج للتحقيق وضعته خصيصا منظمة الشبيبة الشيوعية.

كنت قد قررت باعادة تنظيم جميع أماكن الاصلاحية تنظيما كاملا وبقلب الغرف الطويلة لفندق الرهبان الى مهاجع. وقد كان هذا الفندق أطلقت عليها كورياج اسم مدرسة. ونجم عن ذلك أننى آويت الأولاد الأربعمئة فى بناء واحد. ولم يكلفنا هذا عناء كبيرا فى تفريغها من أنقاض المواد المدرسية لنسلمها لعمال التبييض والنجارين والدهانين وعمال الزجاج. وإخترت للمدرسة نفس البناء هذا الذى لا أبواب له حيث كانت تسكن «الجماعة الأولى». وغنى عن البيان أن التجديد كان شيئا مستحيلا ما دام أولاد كورياج كانوا ما يزالون يسكنون فيها.

لقد أبدينا نشاطا فذا، ولكنه لم يكن من نوع تربوى. ما من ركن فى الاصلاحية لم يكن فيه أناس

يعملون. كان كل شيء قيد الاصلاح والطلاء والدهان والتنظيف. نقلنا حتى المطعم الى الباحة كي نغطي مرة أخرى صور القديسين الذكور و الأناث بطبقة من الطلاء. ومع ذلك فما كانت فكرة اعادة بناء تخص المهاجع.

كان أولاد كورياج ما يزالون ينامون فيها ويهضمون الطعام ويطعمون قملهم ويسرق بعضهم بعضا جميع أنواع التوافه وهم يشغلون خواطرهم — لا أدري — بأي أفكار سرية تجاهي وتجاه نشاطي. وكففت عن زيارة المهاجع وبصورة عامة أقلعت عن الاهتمام بالحياة الداخلية لتلك «الجماعات» الست الاصيلة. فسويت علاقاتي معهم على أساس الدقة الصارمة. فكانت أبواب المطعم تفتح في الساعة السابعة صباحا والثانية عشر ظهرا والسادسة مساء ويقرع أحد أولادنا الجرس فيتقاطر أولاد كورياج بتراخ الى معالفهم. وفضلا عن ذلك ما كانوا ليمتازوا بالتباطؤ؛ لا لأن المطعم كان يغلق في الساعة المعينة تماما فحسب بل لأن القادمين الأوائل كانوا يلتهمون حصصهم وحصص رفاقهم. فكان المتأخرون

يوسعوننى سبا وشتما ولا ينجو من شتمهم جهاز المطبخ والسلطة السوفييتية أيضا. ولكنهم ما كانوا ليجازفوا باحتجاج أشد لأن قائد مركزنا للتموين كان على الدوام ميشا أوفتشارنكو.

وسرعان ما تملكتنى متعة خفية خبيثة بمراقبة المصاعب التى كان يجب عليهم بعد اليوم أن يذللوها ليبلغوا المطعم ويعودوا منه الى شئونهم حالما يشبعون. ولم يكن فى طريقهم سوى العوارض الخشبية والخنادق والمناشير العاملة والفؤوس صاعدة نازلة وطسوت الطين المجبول وأكوام الاسمنت... هذا دون أن نحسب حسابا لضميرهم الخاص. كنت أرى من بعض العلائم أن أزمات قد ابتدأت تعتمل فى قرارة نفوسهم، لا بشكل هازل بل بالمعنى الشكسبيرى للكلمة. كنت مقتنعا فى ذلك الحين أن كثيرا من أولاد كورياج كانوا يرددون فى قرارة نفوسهم : «هل انا موجود ام غير موجود؟ هذه هى المشكلة».

كانوا يقفون جماعات صغيرة قرب الناس الذين يعملون، ويراقبون بجبن رفاقهم ثم يعودون أدراجهم إلى

المهاجع بمشية آثمة مفكرة. على أنه لم يعد ليبقى هناك شئ يثير الاهتمام، أو يغرى حتى بالسرقة. كانوا يذهبون ليحوموا حول الأعمال ولا يقررون الاستسلام بسبب خجل زائف من زملائهم، ليطلبوا الاذن ولو بنقل شئ من مكان لآخر. كان أولاد إصلاحية غوركى يمشون بخط مستقيم وسطهم وهم مسرعو الخطى يتخطون بخفة العوائق تاركين الآخرين حائرين من مهارتهم المدوخة، وهم يقفون من جديد فى موقف هاملت أو كوريولان. ولكن وضعهم ربما كان أشد فجيعة لأنه ما من واحد منهم صاح فى هاملت بصوت مرح:

– لا تدس نفسك بين أرجل الناس فما زالت هناك ساعاتان للطعام.

ولاحظت بنفس الشعور الخفى من الفرح السئ الارتياع الذى كان يجمد قلوبهم ويعلق خفقانها عند سماع إسم أولاد غوركى. كان اعضاء الكتيبة المختلطة يسمحون لأنفسهم فى بعض الأحيان بكلام ما كانوا

يتلفظون به لو كانوا متخرجين من معهد للتربية والتعليم العالى:

ـ إنتظر لترى حتى يصل رفاقنا؛ وسوف تتعلم ما معنى أن يعيش المرء على حساب الآخرين...

كان البعض من بين أكبرهم سنا وأخفهم يحاولون أن يضعوا موضع الشك أهمية الأحداث المقبلة فيسألون بشئ من السخرية:

ـ آه باه! ما هو الشئ الرهيب الذى سيكون؟

فكان دينيس كودلاتى يرد على ذلك:

ـ ماذا سيكون؟ هذا! سوف يلجمونك ويعقدونك عقدة... وسوف تظل تتذكر ذلك حتى زواجك!

أما ميشا أوفتشارنكو عدو الغمغمة فى الكلام والغموض فقد عبر تعبيرا أوضح:

ـ مهما كان عددكم أيها الكسالى المتوانون ولو مئتين وثمانين، فسوف نضرب هذه الافواه. آه! ما أشنع منظركم حينذاك!

كان خوفراخ يستمع أيضا الى هذا الحديث ويغمغم بين شفتيه:

ـ ستضربون أفواهنا؛ أنتم لستم في اصلاحية غوركي، هنا خاركوف.

قدر ميشا السؤال الذى أثير باهمية كبيرة حتى أنه إستروح من عمله وبدأ بلطافة قائلا:

ـ يا صديقى الطيب، ماذا تقول لى؟ لسنا فى إصلاحية غوركى بل فى خاركوف وكل هذا... ولكن لعلك تفهم يا صغيرى إذن من سوف يتركك تعيش على حسابه؟ ومن يحتاج اليك؟ ولمن تصلح أنت يا صاحبى؟

وعاد ميشا الى عمله والآلة فى يده، وأفلت الكلام النهائى من شفتيه:

ـ ما إسمك؟

فارتعش خوفراخ من الدهشة:

ـ ماذا؟

ـ ما إسمك؟ سوسليكوف؟ أم ماذا؟ ربما إيجيكوف؟

فاحمر وجه خوفراخ من الاضطراب والغيظ:

ـ ماذا يهمك هذا أو يعنيك؟

ـ قل لى إسمك! هل يزعجك هذا أم ماذا؟

ـ طيب! خوفراخ...

ـ آه خوفراخ... صحيح هذا... لقد بدأت أنسى. أرى ولدا أشقر يقف بين رجلىّ ولا فائدة ترجى منك... لو كنت تشتغل يا صاحبى لكانت هناك فرصة للقول لك: «يا خوفراخ هات لى هذا. أتنتهى بسرعة يا خوفراخ؟ يا خوفراخ ساعدنى يا صديقى!» ولكن الآن طبعا يمكن أن ينسى... طيب إذهب وتنزه يا صديقى، أنظر، لدىّ شغل ويجب أن أقلفط هذا الشئ وإلا فلن تكون الحال خيرا؛ لأنه ينقلون فى برميل واحد الماء للحساء والشاى ولغسل الأوانى. ثم لا بد من تغذيتك وإلا فسوف تفطس ثم تنتن ويكون هذا مع ذلك كريها وعند ذلك لا بد من أن نصنع تابوتا لك؛ وهذا هم جديد أيضا...

إنتزع خوفراخ نفسه فى آخر الأمر من أحضان ميشا وخرج، فتبعه ميشا بهذه الكلمات المدغدغة:

– بلى هكذا. إذهب وإستنشق الهواء الطلق قليلا...
إنه صحي جدا، ويفيد...

من يدري هل تأكد خوفراخ فضائل الهواء الطلق ومعه جميع اريستقراطية كورياج؟ لقد أخذوا يحاولون مع ذلك في هذه الأيام الأخيرة أن يقللوا تعرضهم للأنظار ولكنني كنت قد إستطعت أن أتعرف على ذوي الدم الأزرق في كورياج. إنهم أولاد لا بأس بهم بمجموعهم، لهم شخصية، وهذا ما كان يبهج نفسي لأن هناك مأخذا لهم. وكان بيريتز أكثر من يعجبني من بين الجميع. صحيح أنه كان يتكلف مشية مترنحة وأن قبعته مقلوبة الى عينه وأن غرته كانت تغطي حاجبيه وأنه كان يعرف أن يدخن والسيكارة ملصوقة بشفته السفلى، ويبصق بشكل فني. ولكنني قد رأيته : وجهه الذي عاش الجدري به كان ينظر الىّ بفضول، وكان هذا الفضول فضول صبي نشيط ذكي.

ومنذ وقت قريب تقربت من جماعتهم، وكانت ذات ليلة قد جلست على البلاط وانهمكت في التدخين

وهى تتناقش دونما حماس. وقفت أمامها وأخذت ألف سيكارة لأطلب نارا. فألقى بيريتز علىّ نظرة مرحة ودية ثم قال بصوت عال:

– إنك ترهق نفسك أيها الرفيق المدير، وإنك تدخن تبغا تلفه. هل السلطة السوفييتية ليس لديها سجائر ملفوفة لتقدمها إليك؟

وصلت إليه وإنحنيت على يده لأشعل السيكارة. ثم قلت له بعدئذ بنفس الصوت العالى المرح واضعا فيه قدرا ضئيلا من لهجة الأمر:

– طيب إخلع قبعتك!

وإنتقلت عيناه من الابتسام الى الدهشة بينما كان فمه ما تزال الابتسامة ترف عليه.

– ماذا يوجد؟

– إخلع قبعتك! ألا تفهم؟ لا؟

– طيب أخلعها.

ورفعت غرته أتفحص بانتباه هيئته حيث إبتدأ قليل من الذعر يدب فيها.

قلت:

– هناك... هذا حسن.

حدجنى بيريتز شزرا، بيد أننى بعدما أنهيت سكارتى بعدة أنفاس أدرت لهم ظهرى فجأة وغادرتهم لأذهب لرؤية النجارين.

وفى هذه اللحظة كنت أشعر تماما بكل حركة من حركاتى حتى بالبريق الضعيف لبزيم حزامى وتملكنى شعور الواجب التربوى: كان يجب أن أبهج نفوس هؤلاء الأولاد، كان يجب أن يتملك قلوبهم عطف جذاب لا سبيل إلى مقاومته، وكان يجب فى الوقت ذاته أن أقنعهم مهما كلف الأمر بأننى لا أسعى الى الظفر بعطفهم، وإن انجرحت مشاعرهم ووصلوا حتى الى الشتائم والكز بالاسنان!

كان النجارون قد أنهوا عملهم وكان بوروفوى يحاول أن يبرهن لى على تفوق زيت الكتان الجيد المطبوخ، على الزيت السيئ. فاهتممت إهتماما بالغا بهذه المسألة

الجديدة حتى أنني ما لاحظت ان كمي يشد من الخلف. وشد مرة ثانية فالتفت، فكان بيريتز هناك:

— ماذا؟

— إسمع، قل لى لماذا نظرت الىّ، لماذا؟

— أوه، لا شئ ذا بال... طيب، هل تسمعني يا بوروفوي؟ يجب مع ذلك أن تجد زيتا حقا...

فواصل بوروفوي بنفس مبتهجة ثناءه للزيت الجيد... كنت أرى بأي غيظ كان بيريتز يرقبه وهوينتظر نهاية حديثه. وأخيرا رفع بوروفوي صندوقه فقرقع وإتجهنا صوب برج الناقوس. كان بيريتز يمشي الى جانبي وهو يعض على شفته العليا. وتوجه بوروفوي ليهبط الى القرية، ووضعت يدىّ وراء ظهري ووقفت قبالة بيريتز:

— طيب، ماذا تريد؟

— لماذا نظرت الىّ؟ قل!

— إسم عائلتك بيريتز؟

— نعم.

— إسمك ستيبان؟

ـ من أين عرفته؟

ـ أنت من سفيردلوفسك؟

ـ هذا صحيح، نعم، ولكن من أين عرفت ذلك؟

ـ أعرف كل شئ. أنا أعرف أنك تسرق وأنك تسلك مسلك اللصوص. وليس هناك سوى شئ واحد لا أعرفه: هل أنت ولد نبيه أم ابله؟

ـ لماذا؟

ـ لقد طرحت عليّ سؤالاً كله بلاهة حول السجائر... نعم كله بهامة. لا تؤاخذني أرجوك...

حتى في ساعة الغروب كان في إمكان المرء أن يرى حمرة الخجل تضرج وجه بيريتز، وأجفانه تتثاقل، كيف إعترته الحرارة دفعة واحدة! لقد خطا خطوة الى الأمام وهو منقبض الوجه وألقى نظرة إلى الخلف:

ـ آه، طيب... هذا طبيعي... لا شئ يجرح الشعور... ولكن أين البهامة؟

ـ هذا بسيط جدا! أنت تعرف أنه لدى أعمال كثيرة فليس لديّ الوقت للذهاب إلى المدينة لشراء

سجائر. أنت تعرف هذا. وليس لدىّ الوقت لأن السلطة السوفييتية قد كلفتنى بأعباء عمل: لأصنع لك أنت حياة عاقلة سعيدة، لك انت أفهمت؟ أم لم تفهم ربما؟ فى هذه الحالة هيا لننام.

فقال بيريتز بصوت فيه بحة وهو يحك الأرض ببوز حذائه: — لقد فهمت!

— أ فهمت؟

نظرت فى عينيه بازدراء كنت أرى فكرى وإرادتى تغوران فى بؤبؤيه، فخفض بيريتز رأسه:

— أنت تفهم أيها المتوانى ولكنك تعوى على السلطة السوفييتية. ما أشد غباءك.

وسلكت السبيل الى غرفة الأحداث الطلائع. على أن بيريتز مد ذراعه وسد الطريق أمامى.

— طيب، إتفقنا. لنفترض أننى غبى... وبعدئذ؟

— وبعدئذ نظرت الى وجهك. كنت أود أن أتحقق من أنك غبى أم لا.

— وهل تحققت؟

ـ نعم.

ـ فماذا رأيت؟

ـ إذهب وأنظر الى نفسك فى المرآة.

عدت الى حجرتى دون أن ألحظ إنطباعات وجه بيريتز.

لقد أصبحت وجوه كورياج مألوفة لدىّ بشكل أكثر. كنت قد تعلمت أن أقرأ أنواعا من الجمل الصامتة. كان الكثيرون ينظرون الىّ بعطف غير خفى، بينما كانت ترف على شفاههم هذه البسمة اللطيفة التى يشوبها البشر والاضطراب معا والتى لا ترى إلا فى وجوه الأولاد المشردين المهجورين. كنت أعرف الكثيرين منهم من أسماء عوائلهم وتوصلت إلى التعرف على بعض الأصوات.

كان زورين كثيرا ما يحوم حولى. كان له أنف مشمور كثيرا ولم تكن الطبقات المزمنة من زفت الأوساخ لتصل الى تغطية حمرة وجنتيه والظرافة الخاملة لعضلات عيونه. كان زورين فى الثالثة عشرة من عمره، يداه دائما وراء ظهره، يبتسم على الدوام ويسكت. إنه لصبى

جميل ذو أهداب سود مقوسة. كان يفتحها ببطء ويدير زر نور بعيد فى أعماق عينية السوداوين فصمت وإبتسم. فسألته:

– يا زورين، تكلم قليلا فقط فأنا بشوق لأن أعرف نبر صوتك.

فاحمر خجلا والتفت بهيئة كسيرة ثم أطلق تغريدا مبحوحا:

– ن... عم...

كان لزورين صديق ذو لون أرجوانى أيضا يعلو وجهه المستدير وهو: ميتيا نيسينوف، نفس كالبلور صافية طيبة. كانوا فى ظل النظام القديم يجعلون من هؤلاء الأولاد صناعا للاسكافيين وغلمانا للخمارات. وعندما نظرت إليه فكرت: «يا ميتيا ماذا سنصنع بلك؟ كيف سوف نطرز حياتك على الأساس السوفييتى؟»

وإحمر ميتيا خجلا أيضا والتفت دون أن يغرد بـ «نعم» زافرة. وإكتفى بأن يقطب حاجبيه السوداوين المستقيمين ويحرك بشفتيه. ولكن صوته معروف لدى:

صوت رخيم عميق كصوت حسناء مدللة منعمة مع نفس المحسنات والوتيرة غير المنتظرة من البليل. كان يلذ لى أن أسمعه حينما يتكلم لى عن أهل كورياج.

ــ هذا الذى تراه مر راكضا... ولكن أين يركض هذا اللعين؟ فولودكا، أنظر، أنظر، بورياك هناك... نعم هذا بورياك ألا تعرفه؟ يستطيع أن يشرب ثلاثين كأسا من الحليب... لهذا السبب يركض إلى زريبة الأبقار. وذاك الذى ينظر من النافذة أنه مؤذ، أوه، ولكن أى مؤذا إنه مداهن الى حد كبير! ويداهنك أيضا حتما. أوه إننى أرى الذين يصنعون لك هذا الصنيع، أقول لك اننى أراهم!

قال زورين: ــ فانيا زايتشنكو ــ والتفت بهيئة كسيرة... وإحمر.

إن ميتيا لصبى ذكى. كان يلاحظ حركة أنف زورين المعقوف ويرجونى بنظره أن أسمح عن عدم لباقة رفيقه.

فقال: ــ لا، فانيا لا! فانيا له خط سلوك.

ـ أى خط سلوك؟

ـ السلوك الذى إتتخذه...

أخذ ميتيا يرسم شيئا على الأرض بطرف إصبع رجله.

ـ إحك!

ـ طيب ماذا يوجد للحكى؟ فانيا منذ أن وصل الى الاصلاحية شكل له جماعة كما ترى يا فولودكا؟.. وحينذاك ضربوا؛ ولكنهم مع ذلك لهم سلوكهم.

فهمت حق الفهم فلسفة نيسينوف العميقة، هذه «الحكمة المجهولة لدى حكمائنا».

يوجد هنا كثير من هؤلاء الصبيان الصغار الجميلين ذوى الخدود الأرجوانية أو ليسوا جميلين كثيرا والذين لم يحظوا بأن يجدوا خط سلوكهم. ورأيت وسط الوجوه التى ما تزال مغلقة متربصة بتجهم عددا كبيرا تنساب حياتهم فى مسالك ليست لهم. وهذا شئ مألوف فى العالم القديم وهو ما يدعى بالحياة التابعة غير الحرة.

كان زورين ونيسينوف وكذلك سوبتشنكو المشعث المدبب وفاسيا غاردينوف الرصين الكئيب، وسيرغى

خرابرنكو الرفيق ذو الوجه الاسمر يحومون حولى بابتسامات حزينة وحواجب مقطبة ولكنهم لا يستطيعون أن يمروا على المكشوف الى جانبى. كانوا يحسدون بضراوة جماعة فانيا زايتشنكو ويتتبعون صعودها الجرىء على الطرق المفتوحة حديثا بنظرات ملؤها الحنين والشوق... وينتظرون.

الجميع ينتظرون. هذا أمر طبيعى جدا وواضح جدا. كانوا ينتظرون مجىء هؤلاء الأولاد الأسطوريين غير الماديين والذين لا سبيل إلى فهمهم والذين سيأتون من اصلاحية غوركى. لقد كانوا يحدثون فى نفوسهم سحرا بالغا. كانت كل ساعة تمر تقرب من الشقاء — ومن يدرى — أو سعادة. حتى لدى الفتيات إستعرت نار الحياة يوما بعد يوم. إن أوليا لانوفا كانت قد شكلت كتيبتها المليئة بالقوة وهى الكتيبة السادسة. كان مهجعهن يعج بالنشاط، فقد كن يرقعن فيه ويغسلن ويغنين حتى فى المساء. كانت غوليايفا وهى مشغولة كثيرا تسارع إليه كل لحظة وهى تخفى عنى قميصها غير المرتب و «المجعلك» جانبا. كان كودلاتى كثيرا ما يمضى فيه

أمسياته ويمثل بشكل مكشوف دور نصير الفن. ومع ذلك فان الكتيبة السادسة لم تذهب إلى الأعمال الزراعية خوفا من أن تنتقم تقاليد كورياج التى كسرت بهذا الخروج فتدفن الجماعة تحت الأنقاض.

كان كوروتكوف أيضا ينتظر. إنه قطب تقاليد كورياج ودبلوماسى رائع ولا يستطيع المرء أن ينتزع من سلوكه عملا أو كلمة أو خطأ يتيح إتهامه بأى شيء مهما كان وليس هو أكثر آثما من غيره: فهو مثلهم لا يذهب إلى العمل لا غير! كانت الكتيبة المختلطة الاولى كلها يأكلها الغيظ والحنق من كوروتكوف، وتعتبر إعتبار اليقين أنه عدونا الأول فى كورياج.

وقد علمت بعدئذ أن فولوخوف وغوركوفسكى وجوركا فولكوف قد حاولوا أن يسووا الأمور بمؤتمر صغير، فدعوا كوروتكوف إلى مقابلة ليلية على ضفاف البحيرة وطلبوا منه أن يخلى المكان إلى أى جهة يشاء ولكن كوروتكوف رفض الاقتراح بهذه العبارات:

— الآن لا أجد دواعى. سأبقى هنا.

وبهذا انتهى المؤتمر. ما من مرة كوروتكوف وجه اليّ الكلام وأبدى بصورة عامة أي إهتمام بشخصي. بيد أنه عند لقائي كان يرفع قبعته الأنيقة بأدب جم ويقول بصوت عذب:

- صباح الخير أيها الرفيق المدير.

كان وجهه المتظرف بعينيه السوداوين يلتفت اليّ وفيه تعبير من الظرافة وكان يشير اليّ كالسيمافور بلغة واضحة كل الوضوح:

«أرأيت! إن طريقينا لا يلتقيان؛ إمش في طريقك وأنا لي حساباتي انا. السلام عليكم أيها الرفيق المدير».

ومع ذلك فقد كان يحدث أنه في اليوم التالي لهذه الأمسية التي تحدثت فيها مع بيريتز، يلقاني كوروتكوف في ساعة الطعام قرب نافذة المطبخ فينتحي جانبا باحترام حينما أكون أصدر الأمر، ثم يطرح علي هذا السؤال بجد وبشكل مفاجئ.

- قل لي من فضلك أيها الرفيق المدير: هل يوجد سجن في إصلاحية غوركي؟

فأجيبه بجد مثله: — لا، لا يوجد!

ويتابع بهدوء وهو يتفحصنى كأنما يتفحص شيئا معروضا:

— يحكى مع ذلك أنكم تضعون الأولاد فى التوقيف!

فقلت له بجفاف: — فيما يخصك لا داعى لك لأن تقلق: إن التواقيف ليست إلا لأصدقائى، — وتركته على الفور دون أن أهتم بتقلبات وجهه الناعمة.

وفى الخامس عشر من شهر أيار تلقيت هذه البرقية:

«نغادر جميعا قطار الغد مساء. لابوت».

فقرأتها أثناء العشاء وقلت:

— بعد غد سوف نستقبل رفاقنا. أتمنى من صميم فؤادى أن تستقبلوهم إستقبالا وديا لأنكم من اليوم فصاعدا ستعيشون... وتعملون معا.

ظلت الفتيات فى حيرة وصمت ملؤه الروع شأنهن فى ذلك شأن الطيور قبل العاصفة. كان الصبيان من كل صنف ينظرون من طرف العين إلى رفاقهم وفى بعض الوجوه كانت فتحات الأفواه تنفرج وتحتفظ

بهذا الوضع قليلا وقد سيطر عليهم هول المفاجأة.

وفى الركن القريب من الشباك حيث تحيط الكراسى بالموائد ولم يعد هناك مقاعد، كان كوروتكوف وجماعته فى غمرة نوبة من المرح المفاجئ، كانوا يضحكون ضحكا شديدا ويتبادلون النكات.

وفى المساء نوقشت فى الكتيبة المختلطة تفاصيل برنامج إستقبال أولاد إصلاحية غوركى وأستعرض النداء الخاص الذى أصدرته خلية الشبيبة الشيوعية بأدنى تفاصيله. وكان كودلاتى أكثر من أى وقت آخر ليحك قفاه :

ـ وأيم الحق إنه لشئ مخجل أن نستقدم الأولاد إلى هنا.

إنفتح الباب ببطء ودخل جوركا فولكوف بتثاقل. بلغ مقعدا وهو يمسك بطاولات ونظر إلينا بعين واحدة لأن العين الاخرى ما عادت ترى أبدا إلا من شق غير مواتٍ فى ورم اللحم المرضوض والمزرق.

ـ ما هذا؟

فغمغم جوركا: ــ لقد ضربونى.

ــ من؟

ــ وهل اعرف؟ فلاحون... كنت عائدا من المحطة... وعلى مزلقان السكة الحديد... التقيت بهم... فضربونى...

فقال فولوخوف مغتاظا: ــ لحظة! ضربونى، ضربونى... نحن نرى بأنفسنا جيدا ما فعلوه لك... كيف حدث هذا؟ هل كلموك أم لا؟

فأجاب جوركا وهو يمتعض إمتعاضا مريرا: ــ لم نتحدث طويلا. هناك واحد فقط قال: «آها شبيبة شيوعية؟ و... طق! ضربنى على وجهى!

ــ طيب وأنت؟

ــ وأنا أيضا بالطبع قد ضربت. ولكنهم كانوا أربعة.

ــ هل هربت منهم؟

فأجاب جوركا: ــ آه! كلا!

ــ وماذا كان؟

ــ ظللت على المزلقان كما ترى.

ضحك الأولاد مقهقهين قهقهة قوزاق زابوروجييه. ولكن فولوخوف كان يتأمل وجه صديقه المخبول والباسم بنظرة ملؤها العتب والتوبيخ!

٧. القطار ٣٧٣ مكرر

في فجر اليوم السابع عشر ذهبت لأجلب أولاد إصلاحية غوركي من محطة لوبوتين على بعد ثلاثين كيلومترا من خاركوف. كان بعض الناس يمشون على رصيف المحطة ذي المظهر الفقير الوسخ حيث كان فلاحون متجهمون قد أنهكتهم متاعب التنقل يتجولون بتراحٍ ،والخشب يصر تحت جزمات عمال السكة الحديدية الملوثين بالزيوت، وهم محركو نقل البضائع. كان كل شئ في هذا اليوم يتآمر لمعارضة الحلة البهية التي كانت روحي ترتديها، وربما لم تكن الثياب حلة بل أبسط من ذلك: «بزة ميدان رمادية وقبعة مثلثة».

هذا اليوم هو يوم المعركة الفاصلة. ولم يهمني

رجل ضخم حمال حين صدمنى سهوا ولم يرتع من عمله فحسب بل لم يلاحظنى. وكذلك شأن وكيل المحطة الذى لم يبد إعتبارا وافيا ولا أدبا عندما قال لى عن المكان الذى كان فيه القطار ٣٧٣ مكرر فى ذلك الحين. كان هؤلاء الخرقاء يبدون بمظهر عدم الفهم بأن القطار ٣٧٣ مكرر يحمل قواى الرئيسية وهى الفرق المجيدة للمارشالين كوفال ولابوت وأن محطتهم كلها فى لوبوتين كانت مخصصة لأن تصبح رأس الجسر لهجومى على كورياج. كيف أشرح لهؤلاء الناس أن حصيلة نهارى كانت — وأيم الحق — أعظم وأهم من معركة اوستيرليتز. إن شمس مجد نابليون عاجزة عن كسف مجدى الراهن لأنه كان يقوم بالحرب بشكل أيسر منى. وددت لو أعرف ماذا يؤول إليه نابليون لو كانت طرائق التربية الاجتماعية الزامية له مثلما هى لى.

وبينما كنت أمشى على الرصيف سادرا نظرت جانب كورياج وتذكرت أن العدو أبدى فى هذا اليوم بعض علائم الجبن.

ومهما كنت قد بكرت فى إستيقاظى فقد كانت علامات الحركة تظهر فى الاصلاحية. كان لفيف عديد يزدحم دونما سبب مبرر تحت نوافذ غرفة الاحداث الطلائع وكان لفيف غيرهم يهبط إلى النبع «العجيب» والسطول تقرقع فى أيديهم. أما زورين ونيسينوف فكانا يقفان عند باب برج الناقوس:

سأل ميتيا برصانة: — ومتى يأتى أولاد إصلاحية غوركى؟ هذا الصباح؟

— هذا الصباح. لقد نهضتم باكرا فى هذا اليوم.

— صحيح... لا أعرف، لم تكن لدينا رغبة فى النوم... سيأتون بطريق ريجوف؟

— نعم وتستقبلونهم هنا.

— بعد قليل؟

— لديكم الوقت لتغسلوا وجوهكم.

فقال زورين وقد نفذ إقتراحى: — تعال يا ميتيا.

كنت قد طلبت من غوروفيتش أن يصف أولاد كورياج فى الباحة لاستقبال إصلاحية غوركى وتحية

العلم دون اللجوء في ذلك إلى أى وسيلة من وسائل الضغط :
أدعهم فقط!

وأخيرا خرج من المسارب السرية لمحطة لوبوتين جنى بشكل حارس ناتئ يقرع الجرس وحالما تم هذا كشف لى عن معنى هذا العمل الرمزى :

ـ القطار ٣٧٣ مكرر طلب الطريق وسوف يكون هنا بعد عشرين دقيقة.

وفجأة تعقدت خطة الاستقبال الموضوعة بشكل غير متوقع بحيث أن كل شئ أخذ يجرى بعدئذ باضطراب ملئ بالفرحة الصبيانية. وقبل القطار ٣٧٣ مكرر وصل قطار ضاحية من خاركوف وإنهال علىّ من عربات القطار سيل منعش من الشبيبة الشيوعية طلاب الكلية العمالية. كانت في يد بيلوخين باقة من الزهر.

ـ سنستقبل الكتيبة الخامسة كما لو كن كونتيسات يصلن. وهذا مسموح لعجوز مثلى.

كانت أوكسانا ذات الشعر الذهبى تعبر وسط الجمهور عن فيض مشاعرها بصوت عذب، وكانت بسمة راشيل

الهادئة تفتح أكمامها الجميلة للشمس، وكان براتشنكو يلوح بيديه كما لو كان يمسك سوطا وكان يؤكد لا أدرى لمن:

ـ نعم! أنا الآن قوزاقى حر. فى هذا اليوم سأمتطى صهوة الجواد «الصبى».

وسارع أحدهم وهو يصيح.

ـ ولكن القطار وصل إلى هنا منذ وقت طويل إنه على الخط رقم ١٠.

ـ ماذا تقول؟

ـ على الخط العاشر، أقول لكم... منذ وقت طويل هو فى المحطة!..

ما كان لدينا الوقت لندهش من التفاهة غير المتنظرة لهذا النبأ. وظهرت من تحت عربة البضائع على الخط الثالث هيئة لابوت الماكرة وكانت عينه المنتفخة قليلا تنظر بسخرية إلى حفلنا:

فصاح كارابانوف: ـ أنظروا! فانكا يخرج من تحت عربة القطار.

وسارع الجميع إليه ولكنه غار مرة ثانية فى ملجأه وأعلن من هناك برصانة:

ــ بالدور من فضلكم! وعلاوة على ذلك سأدع أوكسانا وراشيل تعانقانى أما البقية فأصافحهم باليد.

رفعه كارابانوف من فخذه إلى الرصيف، فالتمعت ساقاه فى الهواء:

فقال لابوت وهو يترك نفسه تسقط على الارض: ــ هيا عانقونى! ــ ومد خده المرقش.

وقامت أوكسانا وراشيل فعلا، بما يجب، بينما الآخرون دخلوا تحت العربات.

هز لابوت يدى طويلا وكان وجهه يطفح بالبهجة الصافية التى قلما إعتدت أن أراها فى وجهه.

ــ كيف هذه السفرة؟

ــ كالذهاب الى السوق، ولم يكن أحد يتراذل سوى الجواد «الصبى». فلم يكف عن الرفس طوال الليل. ولم يبق سوى جوانب العربة. سنبقى طويلا هنا؟ أمرتهم أن

يظلوا مستعدين، فاذا كان ينبغي لنا أن نحط الرحال قليلا فيجب ان نغسل وبصورة عامة...

– إذهب وإستفهم.

ركض لابوت الى المحطة وسارعت أنا إلى القطار. كان مؤلفا من خمس وأربعين عربة. وكانت وجوه جميلة لأولاد إصلاحية غوركي تنظر إليّ من الأبواب المفتوحة على مصراعيها ومن الكوى العلوية، فيضحكون ويصيحون ويلوحون بقبعاتهم. وكان غود قد خرج حتى زناره من الكوة القريبة وعيناه ترفان بحنان وهو يتذمر:

– يا أبانا أنطون سيميونوفيتش، هل مسموح مثل هذا الأمر؟ لا، ليس مسموحا. أ هذا قانون؟ لا، ليس قانونا.

– صباح الخير يا غود! ممن تشتكي!

– من هذا اللعين لابوت. لقد قال: من ينزل من العربة قبل الاشارة قطعت رأسه! خذ القيادة بأسرع ما يمكن لأن لابوت سوف يميتنا. كأنما لابوت هو قائد. لا، أليس كذلك؟

كان لأبوت حينذاك وراء ظهرى فقال على نفس الوتيرة:

ـ نعم جرب أن تنزل من العربة قبل الاشارة!

هيا جرب! أتظن أننى مسرور بان أهتم بمساحى الدواليب مثلك؟ هيا انزل!

وتابع غود بصوت عذب:

ـ أ تظن أننى أحب أن أنزل إلى هذا القدر؟ أنا مرتاح هنا. إن ما قلت إنما هو كمبدأ!

فقال لابوت: ـ طيب، هات لى سيننكى.

وبعد لحظة ظهر وجه سيننكى الجميل وراء كتف غود، كانت عيناه الصغيرتان الناعستان ترفان رفا عجيبا وإمتد قوس ثغره اللطيف الأحمر قائلا:

ـ أنطون سيميونوفيتش!..

فأنبهه غود قائلا:

ـ قل صباح الخير أيها الأحمق الصغير، ألا تعرف؟

ولكن سيننكى• تأملنى وإحمر وتمتم مضطربا:

ـ أنطون سيميونوفيتش... أوه! ما هذا؟أوه! طيب قل!..

وفرك عينيه بيديه الصغيرتين وإذا به يغتاظ غيظا جديا من غود:

ـ طيب أنت قلت لى سأوقظك. قلت هذا... ما أغلظ غود من بهيمة، وهو قائد علاوة على ذلك! ها آنذا إستيقظت بنفسى... هذه كورياج؟ نعم؟ نحن فى كورياج؟

فانشأ لابوت يضحك:

ـ هذه ليست كورياج. أنظرا نحن فى لوبوتين. إستيقظ بسرعة! وأعلن اليقظة.

وبلمح البرق إستعاد سيننكى وعيه، وإتخذ الآن وضعا رصينا وجديا:

ـ اليقظة؟ طيب!

وإستيقظ تماما وإبتسم وقال لى بلطافة:

ـ صباح الخير يا أنطون سيميونوفيتش. ثم تسلق خشبة بحثا عن أداته.

وإنقضت لحظة وإذا به يصوب بوقه خارج العربة وإبتسم لى إبتسامة ساحرة أخرى، ونشف بيده العارية

شفتيه، ومدهما بحركة لطيفة وزمهما على أنبوب البوق، فدوى في أرجاء المحطة صدى مألوف.

قفز الأولاد من القطار وتبادلت معهم التصافح بشكل لا نهاية له. كان لابوت واقفا على سقف إحدى عربات القطار وهو يرشقنا بفورات مغتاظة.

ـ لماذا جئتم أنتم إلى هنا؟ لتتغازلوا؟ ومتى ستذهبون لتسرحوا شعوركم وتنظفوا عربات القطار؟ أم إنكم ربما تفكرون أن هذا ليس من شأنكم وما عليكم إلا أن تسلموا عربات القطار وسخة؟ في هذه الحالة تذكروا أني سأكون بدون رحمة. إلبسوا سراويلكم الجديدة. أين القائد المناوب؟ أين؟

مد تارانتز رأسه من سطح المكابح المجاور. كان يلبس سروالا قصيرا رثا كمدا ولكن ذراعه كانت مطوقة بشارة حمراء نضيرة فقال:

ـ حاضر.

فزعق لابوت: ـ لا أرى نظاما. أين الماء؟ أتعرف ذلك؟ كم سنبقى هنا اتعلم؟ متى سنقدم الطعام أتعرف؟ قل!

تسلق تارانتز ليلتقي بلابوت على ظهر العربة وأجاب وهو يطوى أصابعه على راحة يده، بأن التوقف أربعين دقيقة، وبأنه يمكن التغسيل قرب خزان الماء هناك وبأن فيدورنكو قد أعد الفطور، وأنه يمكن الشروع متى ما أريد ذلك.

فسأل لابوت الاولاد: — هل سمعتم؟ طيب، ولماذا أنتم زائغو البصر؟

كانت أرجل الأولاد البرونزية تجوب جميع خطوط لوبوتين. وكنست عربات القطار. وقامت الكتيبة المختلطة الرابعة بجمع القاذورات من تحت العربات ومن العربة الخلفية نقل فرشنيف وأوسادتشى على ذراعيهما كوفال الذى كان ما يزال نائما ووضعاه بعناية على أسطوانة للاشارات:

قال لابوت وهو متربع أمامه: — ما يزال السيد نائما. فسقط كوفال عن الأسطوانة:

فقال لابوت: — آه، الآن إستيقظ السيد.

فقال كوفال برزانة: — ما أضجرنى ايها الأشقرا —

وشرح لى وهو ممسك بيدى: ـ هل هناك من سبيل ان يبقى هذا الولد بهدوء؟ نعم أو لا؟ تقضى الليل كله على السقوف أو فى القاطرة أو بدا له أن الخنازير وقعت مريضة. وإذا كنت تعبت أنا فماذا يكون به؟ أين يغسل المرء وجهه هنا؟

قال أوسادتشى:

ـ نحن نعرف. هل نأخذه يا كولكا؟

جروا كوفال الى برج الماء بينما لابوت كان يقول:

ـ وهو أيضا غير مسرور... ولكن كما تعلم ياأنطون سيميونوفيتش أن كوفال هذه أول ليلة ينام فيها من هذا الأسبوع.

وبعد نصف ساعة، كانت العربات نظيفة والأولاد بسراويل قصيرة زرقاء وقمصان بيضاء ناصعة يتحلقون لتناول طعام الفطور. ورفعت إلى عربة هيئة أركان الحرب وأرغمت على الأكل من اللحم المقدد.

ومن الأسفل على السكة صاح أحدهم بصوت عال:

ـ يا لابوت أعلن رئيس المحطة أن القطار سيتحرك بعد خمس دقائق!

ألقيت نظرة خارجا لأرى صاحب هذا الصوت المعروف، فأبصرت شينهوس وعيناه البديعتان تنظران اليّ برصانة ويلمع فيهما فيض العاطفة باستمرار:

ـ آه، يا مارك، صباح الخير. كيف كان أنني ما رأيتك؟

فقال بلهجة قاسية: ـ كنت حارس العلم.

ـ كيف حالك؟ هل أنت مسرور من مزاجك الآن؟

قفزت من العربة فسندني مارك، فاستفاد من الفرصة وهمس في أذني بتعبير متوتر:

ـ أنا ما زلت غير راض عن مزاجي يا أنطون سيميونوفيتش، لست راضيا كثيرا، أود أن أقول لك الحقيقة.

ـ طيب؟

ـ لعلك تعرف، أنهم في طريق السفر يغنون الأغاني

وهذا جميل! أما أنا فأفكر طيلة الوقت ولا أستطيع أن أغنى معهم أهذا مزاج؟

ـ بماذا تفكر؟

ـ لماذا لا يخافون بينما أنا أخاف؟

ـ أتخاف على نفسك؟

ـ لا ولماذا؟ ليس لدى أى خوف على نفسى ولكننى أخاف عليك وعلى الجميع. إننى أخاف خوفا عاما. كانت لهم حياة جميلة والآن لا ريب فى أن حياتهم ستكون سيئة. ثم من يدرى كيف سوف ينتهى هذا؟

ـ إنهم يمشون الى المعركة. وإنها لسعادة عظيمة يا مارك، أن يستطيعوا الذهاب إلى الكفاح فى سبيل حياة أفضل.

ـ وهذا ما أقوله لك: إنهم سعداء لذلك يغنون، ولماذا لا أستطيع أنا. فأظل فى غمرة التفكير؟

وفوق أذنى تماما عزف سيننكى النفير بشكل مدو. «إشارة الهجوم». هذا ما فكرت به وإنطلقت مع

الجميع إلى القطار. وبينما كنت أتسلق العربة رأيت بأى خفة كان مارك يعدو إلى عربته بخطوات كبيرة من قدميه الحافيتين. وقلت لنفسى: هذا الشاب سيتعلم اليوم ما هو النصر أو الهزيمة. وسيكون حينذاك بلشفيا!

صفرت القاطرة وزعق لابوت فى ولد متأخر، وتحرك القطار.

وبعد أربعين دقيقة دخل ببطء محطة ريجوف ووقف على الخط الثالث. كانت إيكاتيرينا غريغوريفنا وليدا وغوليايفا على الرصيف ووجوههن تطفح بالبهجة.

جاء كوفال لمقابلتى:

— لن نضيع الوقت؟ سنفرغ متاعنا؟

وسارع الى رئيس المحطة وإتضح أن القطار كان ينبغى أن يساق الى التفريغ على الخط الأول بيد أنه لم يكن هناك قاطرة، وكانت القاطرة قد سافرت إلى خاركوف. فكان لا بد الآن من دعوة قاطرة خاصة للمناورة من أحد الأمكنة. وبما أن ريجوف لم تستقبل قط مثل هذه القطارات فلم يكن لديها مثل هذه القاطرة.

وقد إستقبلنا هذا النبأ في باديء الأمر بهدوؤ ولكن إنقضت نصف ساعة ثم ساعة فانزعجنا من إضاعة الوقت بالانتظار حول عربات القطار. وقد كان هناك الجواد «الصبي» الذى كان يسبب لنا هما لأنه كان كلما إرتفعت الشمس فانه يضج في عربته وقد نجح خلال الليل في تحطيم جميع السور وكان الآن في إشتباك مع الباقي. وفي ذلك الحين كان موظفون رسميون يحومون وهم يجرون حسابات في دفاترهم الوسخة. وكان رئيس المحطة يعدو بين الخطوط كأنه في حلبة ويطلب أن لا يخرج الأولاد من العربات ولا يتجولوا على الخطوط التى كانت القطارات من كل نوع تمر عليها باستمرار.

— ولكن متى ستصل القاطرة؟ — هذا ما سأله تارانتز ملحا.

فرد عليه: — لا أعرف أكثر منك — وإحتد دونما سبب مبرر فقال: — ربما غدا.

— غدا؟ أوه، في هذه الحالة أعرف اكثر من هذا...

— أكثر من أى شيء؟ أكثر من أى شيء؟

ـ أعرف أكثر منك.

ـ كيف تعرف أكثر منى؟

ـ فى هذه الحالة إذا لم تكن هناك قاطرة فسوف نسحب القطار بأنفسنا إلى الخط الأول.

فهز له رئيس المحطة بيده وهرب. وحينذاك أعلمنى تارانتز:

ـ سوف نسحبه يا أنطون سيميونوفيتش، فما رأيك؟ إن العربات سهل تحريكها حتى لوكانت محملة. فنحن ثلاثة على كل عربة. هيا نتكلم مع رئيس المحطة.

ـ دعك من هذا يا تارانتز. هذه حماقات.

ومد كارابانوف ذراعيه:

ـ إستنبط الآن سحب القطار، على أنه لا بد من سحبه حتى السيمافور مجتازين جميع مقصات الخطوط.

ولكن تارانتز ألح كثيرا على الأولاد أن يؤيدوه فاقترح لابوت:

ـ ما فائدة المناقشة؟ ليس لنا إلا أن نعلن الأهبة

«للعمل» على الفور ونجرب. إذا سحبنا العربات فلا بأس وإلا فسنمضى الليلة فى القطار.

ــ ورئيس المحطة؟ ــ سأل هذا السؤال تارانتز وعيناه تتقدان.

فرد لابوت: ــ رئيس المحطة! له ذراعان وفم! وليس له إلا أن يحرك بهما ويزعق وهذا سيكون أبهج.

فقلت: ــ لا، لا يجوز. قد يأتينا قطار على المقص، ولا يكون عملكم صحيحا!

ــ لكن هذا نعرفه. فلا بد من إغلاق الخط.

ــ دعوا هذا أيها الأولاد.

ولكنهم حاصرونى بمجموعهم، والذين كانوا فى الخلف تسلقوا سطوح المكابح والسقوف ومن هناك أخذوا يناشدوننى بصوت واحد. ما كانوا يطلبون منى سوى شىء واحد: أن أدعهم ينقلون القطار مترين.

ــ مترين فقط. ومن يضايق هذا؟ لا يمس أحدا. ليس سوى مترين وبعدئذ ثم ستقول نفسك.

وتركتهم بطبيعة الحال. فأعلن سيننكى مرة ثانية الأهبة

الى «العمل». وكان الأولاد الذين وضعوا تفاصيل العملية منذ وقت طويل يأخذون أمكنتهم عند جوانب العربات، وكانت الفتيات إلى الأمام قليلا يصحن. وصعد لابوت على الرصيف وحرك قبعته. فصاح تارانتز:

— قف. قف. سأجلب رئيس المحطة على الفور فيعرف أكثر مني.

وبرز رئيس المحطة وهو يركض إلى الرصيف رافعا ذراعيه إلى السماء:

— ماذا تعملون؟ ماذا تعملون؟

فقال تارانتز: — مترين.

— لا أبدا. لا أبدا!.. هل من المسموح عمل مثل هذا؟

فصاح كوفال: — سنحركه مترين، أتفهم أم ماذا؟

حدج رئيس المحطة لابوت بنظرة بلهاء ونسى أن يسبل ذراعيه. كان الأولاد يضحكون قرب عربات القطار. ورفع لابوت أيضا قبعته بيده فانحنى الجميع على جوانب العربات وسندوا أرجلهم الحافية فى الرمل وعضوا الشفاه،

كانوا ينظرون إلى لابوت، فحرك قبعته فهز رئيس المحطة رأسه مقلدا حركته وفتح فاه وصاح أحدهم:

ـ إدفعوا!

كان يبدو لى خلال لحظات أنه لم يحدث شيء: ظل القطار فى مكانه ولكن عندما نظرت إلى الدواليب لاحظت فجأة أنها كانت تدور، وعلى الفور بعدئذ رأيت القطار يتحرك. بيد أن القطار توقف بصيحة من لابوت. وإلتفت الى رئيس المحطة ونشف صلعته وإبتسم إبتسامة طيبة برزت منها اسنانه كعجوز:

ـ هذا حسن... هيا. ولكن لا تدهسوا أحدا.

وهز رأسه وإنفجر بالضحك فجأة:

ـ آه أيها الكلاب ماذا تقول عنهم؟ هيا دوروا...

ـ ولكن السيمافور؟

ـ إطمئنوا...

وصاح تارانتز: ـ إستعدوا! ـ ورفع لابوت مرة ثانية قبعته.

وبعد لحظة كان القطار يتجه إلى السيمافور كأنما

تدفعه قاطرة قوية. وكان يبدو أن الأولاد لا يقومون إلا بالمشى إلى جانب العربات ممسكين بجوانبها. وقد وضعوا بعضهم وهم فرزوا بأعجوبة على سطوح المكابح لوقف القطار عند الموقف.

ومن مقص المخرج كان لا بد من سوق القطار بالخط الثانى الى الطرف الآخر من المحطة ومن هناك يدفع باتجاه معاكس حتى رصيف المحطة. وفى اللحظة التى كان القطاريمر بالرصيف فيها وكنت أتنفس بملء رئتى الهواء المالح للعمل الجماعى النشيط صاح لى أحدهم:

— ايها الرفيق ماكارنكو!

إلتفت فرأيت بريجيل يرافقها خالايودا والرفيقة زويا. وحالما وقفت بريجيل على الرصيف بفستانها الرمادى الفضفاض ذكرتنى بنصب إيكاترينا العظيمة لأنها كانت لها مهابة.

وبنفس المهابة والجلال سألتنى من أعلى مرتفعها:

— ايها الرفيق ماكارنكو، هؤلاء أولادك؟

رفعت صوبها نظرا آثما ولكنه في هذه اللحظة إنهال على رأسي هذا الحكم الجدير حقا بسميراميس الشمال.

ـ ستجيب حتما عن كل ساق مقطوعة.

كان في صوتها من الحديد والخشب بقدر أن عاهلة أوتوقراطية تحسدها على ذلك. ولكي تكمل الشبه إمتدت سبابة يدها المدببة صوب أحد دواليب قطارنا.

سعيت أن أجيب بأن الأولاد كانوا حذرين محترسين جدا وبأنني كنت آمل أن ينتهي كل شيء على ما يرام، ولكن الرفيقة زويا وقفت عائقا أمام إندفاعي المخلص بالاذعان. فقد ركضت وهي تقفز حتى حافة الرصيف وتصيح بكل سرعة ورأسها الضخم يتمايل مع إيقاع الكلام:

ـ كانوا يهذون، كانوا يهذون حينما كانوا يقولون أن الرفيق ماكارنكو يحب كثيرا أولاده... يجب أن يرى الجميع كيف يحبهم.

وصعدت إلى حلقي فورة. بيد أنه بدا لي في الوقت ذاته أنني أجيبها بكثير من الأدب والتحفظ:

ـ أوه أيها الرفيقة زويا لقد خدعت خداعا فاضحا! إننى رجل متصلب جدا حتى أننى أفضل دائما الحس السليم على أشد الحب.

كادت الرفيقة زويا أن تثب على من فوق الرصيف، ولعل هذا كان سيضع حدا على الفور لقصيدتى غير التربوية لو لم يقل خالابودا ببساطة كالعامل:

ـ يالهم من زعران! ما امهرهم فى دفع القطار! ايه انت يا لب الملفوفة، أنظرى إليه أنظرى يا بريجيل... أيه أنت أيها الخنوص الصغير!..

كان خالابودا يمشى إلى جوار فاسيا آليكسييف يتيم الآباء الكثيرين. كانا يتبادلان بعض الكلمات، ولم يكن لدينا الوقت لنكظم غيظنا حينما كان خالابودا يضع يده على حافة إحدى العربات. رميت نظرة عابرة على العظمة المتحجرة لنصب إيكاترينا، وإجتزت بحرة الحقد الذى كان يسيل من الرفيقة زويا وأسرعت أيضا صوب عربات القطار.

وبعد عشرين دقيقة أخرج الجواد «الصبى» من العربة

نصف المحطمة، وإنطلق أنطون براتشنكو بسرعة الريح إلى كورياج مخلفا وراءه العجاج وكلاب ريجوف تعوى عواء ضاريا.

تركنا الكتيبة المختلطة تحت إمرة أوسادتشى وتشكلنا على وجه السرعة فى ساحة المحطة. وصعدت بريجيل ورفيقتها الى السيارة وإبتهجت مرة أخرى بجعل وجهيهما يخضران حينما إنطلق صوت الأبواق وقرعت الطبول تحية للعلم، وتقدم العلم المدرج فى غمده الحريرى إلى صفوفنا الأمامية المهيبة ليأخذ مكانه. وأخذت مكانى كذلك. وتحرك صف أولاد إصلاحية غوركى الى كورياج بامرة كوفال ونحن محاطون بصبيان المحطة. وحينما تخطيت سيارة بريجيل، وبلغتنى، قالت بريجيل:

— اركب!

هززت كتفى وقد أخذتنى الدهشة ووضعت يدى على قلبى.

كان الطقس هادئا حارا، وكان الطريق عبر البرارى يجتاز عبارة صغيرة فوق جدول صغير ضيق ضائع. كنا

نمشي بالرتل السداسي: في المقدمة أربعة أبواق وثمانية طبول وبعدئذ أنا والقائد المناوب تارانتز ووراءنا حرس العلم. كان العلم ما يزال في غمده وكانت تنزل من رأسه البراق أضواء مذهبة تتأرجح فوق رأس لابوت. ووراء لابوت كانت كتيبة أولاد الاصلاحية المقسومة من الوسط بأربع صفوف من الفتيات بحلة زرقاء، كانت هذه الكتيبة تتلامع بنظافة القمصان البيض وبايقاع سيقان الصبيان العارية.

وحالما خرجت من الصفوف لحظة، رأيت وجوه الأولاد فجأة قد تجهمت وإنقبضت، وعلى الرغم من أن سيرنا كان عبر برية مقفرة فقد كانوا محافظين على الاصطفاف المنتظم بدقة وإذا إصطدموا بعض الأحيان بعقبات مرتفعات صغيرة فانهم سرعان ما كانوا ينظمون خطاهم. ولم يكن يسمع غير قرع الطبول الذى كان يثير هناك في جدران كورياج صدى جافا دقيقا. وفي هذا اليوم لم يهدأ قرعها ولم يسو عبث ضميرهم بل على العكس كنا كلما إقتربنا من كورياج يتعالى صوتها

أشد وأقوى، وكان المرء لا يود أن يهيمن على خطاه فحسب بل كان يريد أن يسيطر على كل حركة من حركات القلب نظامها الصارم.

دخل صف الأولاد بودفوركى. ووراء السياجات الحية والأبواب كان السكان يقفون والكلاب الهائجة تقفز وتشد رباطها، تلك الكلاب سليلة كلاب الدير القديمة التى كانت تحرس كنوزه. وفى هذه القرية كان الرجال وليس الكلاب فحسب قد ترعرعوا على المراعى الدسمة من تاريخ الدير. لقد ولدوا وتغذوا وتربوا على قطع الخمسة كوبيكات أو الثلاثة التى إبتزت فى سبيل سلامة النفوس وشفاء المرضى ودموع «الام الطيبة» وريش إجنحة الملاك «جبريل». كان ما يزل فى بودفوركى ذرية تقية: كانوا قبلا خوارنة ورهبانا ومترهبين وخدم خيول وطفيليين وطباخين وبستانيين ودواعر.

كنت أشعر شعورا حادا لدى عبورى القرية بالنظرات والهمسات المعادية من الجماعات الكامنة وراء السياجات،

وكنت أعرف على وجه الدقه أفكارهم وكلامهم وآمانيهم تجاهنا.

هناك في شوارع بودفوركي فهمت بلمح البرق المعنى التاريخي العظيم لمشيتنا ولو أنه ما كان يؤلف سوى ظواهر جزئية لعهدنا. أما الصورة التي كنت أكونها عن اصلاحية غوركي فقد تعرت فجأة من أشكالها الموضوعية وزخارفها التربوية. إن تعرجات نهر كولوماك وأبنية مزرعة تريبكي الدقيقة والقديمة وشجيرات الورد المثتين وزرائب الخنازير المبنية من الباطون المفرغ لم يعد ليوجد شيء من ذاك. وإن المشاكل التربوية الدقيقة كانت قد جفت أيضا وتلاشت في غمار الطريق. لم يكن ليبقى سوى أناس أنقياء كونتهم التجربة الجديدة وهم يشغلون حيزا إنسانيا جديدا في سهول الأرض. وأدركت فجأة أن إصلاحيتنا كانت تقوم في هذه اللحظة برسالة مهما قل شأنها فانها سياسية بشكل رفيع وإشتراكية بشكل حقيقي.

كنا، ونحن نمر في شوارع بودفوركي، كأنما نجتاز أرضا معادية حيث كان يتجمع فيها ركام من الأشخاص

القدماء والمصالح القديمة والتنظيمات القديمة التى تماثل أشراك العناكب النهمة. وبين جدران الدير الذى بدا آنذاك أمامنا كانت ركام من الأفكار والأوهام البغيضة لى: مثالية المثقف الخرقاء البلهاء وشكلية تافهة لا موهبة فيها وحساسية نسائية بكاءة والجهل البيروقراطى المهووس. وتمثلت فى خاطرى المدى الواسع الذى يغطيه هذا المقلب الذى لا حد له: كم من السنين وكم من آلاف الكيلومترات قطعنا عبرها ومع ذلك ففى الأمام وعن ذات اليمين وعن ذات الشمال ما يزال ينتن ويحيط بنا من كل جانب. لهذا كان صف إصلاحية غوركى يبدو محدودا فى المدى بدون أى سند مادى: لا إتصالات وقواعد ولا أهل: لقد هجرت مزرعة آل تريبكى إلى الأبد ولم نستول بعد على كورياج.

أخذت صفوف الطبول تصعد المرتفع: كانت أبواب الدير امامنا. وخرج منها فانيا زايتشنكو بسرواله القصير وهو يعدو، ثم توقف لحظة مدهوشا وإنطلق كالسهم منحدرا إلينا. وأخذنى الخوف من أن شيئا كان قد حدث. ولكن فانيا وقف فجأة أمامى وتضرع باكيا وإصبعه على خده:

ـ يا أنطون سيميونوفيتش سأذهب معكم لا أريد أن أنتظر هناك.

ـ تعال إلى هنا.

اصطف فانيا معى ونسق خطواته بدقة معنا ثم رفع رأسه وادرك نظرتى اليقظة فكفكف دمعه وإبتسم بحرارة وأخرج زفرة إنفعال.

أوغل قارعوا الطبول والأصوات تدوى فدخلوا دهليز الباب فى أسفل برج الناقوس. وكان جمهور أولاد كورياج الكبير قد تشكل بصفوف عديدة، وكان غوروفيتش فى الأمام وتجمد فى وقفته ورفع يده بالتحية.

٨. رقصة غوباك

كانت صفوف إصلاحية غوركى تقابل جمهرة كورياج على مسافة سبعة أمتار أو ثمانية. ولم تلبث الصفوف التى شكلها بيوتر إيفانوفيتش أن إضطربت. وحالما وقف صفنا إختلطوا و إنتشروا فى فسحة واسعة من الأبواب إلى الكنيسة

منعطفين على الأجنحة ومهددينا تهديدا جديا بغمرنا من الجوانب بل حتى بتطويق كامل.

كان أهالى كورياج وكذلك كتائب غوركى صامتين: أما أهل كورياج فقد صمتوا بتأثير الدهشة وأما أولاد غوركى فقد لزموا السكوت بمقتضى نظام الصفوف ووجود العلم. وحتى ذلك الحين ما كان الاوائل - أهل كورياج - قد رأوا أولاد الاصلاحية إلا تحت أشكال أعضاء فى الكتيبة المختلطة الطليعية وهم دائما فى غمار العمل مرهقين مغبرين وغير مغسولين. أما الآن فانهم يرون أمامهم نسقا صارما من الوجوه اليقظة الهادئة وإبزيمات أحزمة لامعة وسراويل قصيرة خفيفة فوق خط من السيقان الملوحة بالشمس.

وفى توتر غير بشرى وفى معشار الثانية وددت لو ألم وأحفظ فى ذاكرتى ببعض الملامح المميزة فى هيئة جمهور كورياج، على أننى ما وجدت إلى ذلك سبيلا. لم يكن أبدا ذلك الجمهور الرتيب المندهش فى يومى الأول. كانت عينى تمر من جماعة الى جماعة وتميز

تعابير جديدة على الدوام وغير منتظرة تماما فى كثير من الأحيان، وكانوا قليلين أولئك الذين كانت نظراتهم تنم عن عدم إكتراث حيادى باهت. كان أغلب الصغار متحمسا بنفس الشكل الذى يسر فيه الأولاد للعبة يودون لو يأخذونها بيدهم بدون أن يوقظوا شوقهم أو يثيروا فيه حبهم لذاتهم. كان نيسينوف وزورين وهما متعانقان ورأساهما ماثلان على أكتاف بعضهما بعضا يتأملان أولاد إصلاحية غوركى، ولعلهما كانا يحلمان فى الوقت الذى كان الصبيان «الأحرار» ينظرون اليهما فى صفهما فى هذا الخط البديع كما يفعلان الآن هذه اللحظة. كان كثير من هذه الوجوه يبدى هذا التعبير اليقظ وهذه الرصانة غير المتوقعة حيث تنضغط العضلات على بعضها بعضا فى تأزمها بينما العيون تتقصى بسرعة مكانا تغور فيه. كانت الحياة تجرى على هذه الوجوه قوية عارمة. وبمعشار الثانية كانوا قد حكوا شيئا عن أنفسهم بأنهم عبروا عن الاستحسان واللذة والشك أو الرغبة. وبالمقابل كان التهكم والاحتقار على السحن المكونة سلفا قد أخذا

يتلاشيان. فمنذ ما سمعوا من بعد طبولنا تقرع ، وضعوا أيديهم في جيوبهم وتأطروا في اوضاع غير لائقة. كان كثير منهم قد وجد نفسه على الفور مزعزعا بالقامات والعضلات البديعة في الصف الأول من جيش غوركي: فيدورنكو وكوريتو ونيتشيتايلو وأمامهم خيالاتهم تبدو هزيلة قميئة. وكان بعضهم قد إضطرب فيما بعد حينما أصبح من الواضح أن المرء لن يمكنه أن يمس أصغر واحد من هؤلاء المئة والعشرين بدون جزاء. وعليه فان هذا الأصغر فانكا سيننكي كان يقف في الطليعة والبوق على ركبته، وعيناه ترشقان نظرات مستعرة بحرية كأنما لم يكن ولدا مهجورا بالأمس بل أميرا مسافرا تقف وراءه حاشية رائعة شمله بها والده الملك.

هذا التفحص لم يلبث إلا ثواني. كان عليّ أن ألغي على الفور هذه الأمتار السبعة التي كانت تفصل بين المعسكرين وأضع حدا لتبادلهم النظرات. فقلت:

ـ أيها الرفاق. منذ هذه اللحظة، إننا جميعا الأربعمئة لا نشكل سوى مجتمع وحيد يدعى إصلاحية

العمل غوركى. كل واحد منكم يجب أن يتذكر، كل واحد منكم ينبغى له أن يعرف أنه ولد فى إصلاحية غوركى، وعليه أن يعتبر أى واحد من إصلاحية غوركى أعز رفيق وأعظم صديق له فيحترمه ويحميه ويساعده فى كل شئ إذا إحتاج لمساعدة، ويرشده إذا إقترف هفوة. إن نظامنا صارم. وإن النظام ضرورى لنا لأن عملنا صعب ولأنه لدينا الكثير لعمله، ولسوف ننجزه إنجازا سيئا إذا لم يكن لدينا نظام.

وتكلمت بعدئذ عن المهام التى تقع على عاتقنا وعن ضرورة إغناء أنفسنا وتثقيفها وشق الطريق لأنفسنا ولأولاد غوركى المقبلين. وقلت أننا ينبغى لنا أن نعيش عيشة شريفة فنكون بروليتاريين حقيقيين كى نكون لدى مغادرة الاصلاحية شبانا شيوعيين حقا يواصلون بعدئذ بناء الدولة البروليتارية وتوطيد دعائمها.

ولقد دهشت للانتباه غير المتوقع الذى أعاره أولاد كورياج لكلامى. وعلى النقيض من ذلك كان رفاقهم أولاد غوركى يسمعوننى بشئ من التلهى وربما لأن

سبب ذلك إنهم ما كانوا يجدون في كلامي شيئا جديدا: فكل هذا كان محفورا منذ زمن طويل في كل خلية من دماغهم.

ولكن لماذا أولاد كورياج أنفسهم ظلوا قبل أسبوعين متصامين عن مواعظي التي كانت أشد حرارة واقناعا؟ ما أصعب التربية من علم! لم يكن في الامكان القبول بأنهم كانوا يصغون إليّ فقط لأنني كنت قد صففت ورائي فرقة غوركي أو لأنه في الجانب الأيمن لهذه الفرقة كان يقف العلم ساكنا حازما في غمده الحريري؟ مستحيل لأن هذا سيكون متناقضا مع حكم التربية وأقاويلها المأثورة.

أنهيت خطابي معلنا أنه بعد نصف ساعة سنعقد الاجتماع العام لاصلاحية غوركي فعلى الأولاد أن يستفيدوا من نصف الساعة هذه ليتعارفوا ويتصافحوا ويأتوا معا إلى الاجتماع. والآن بما أنه من المناسب فسوف نعيد العلم الى غرفة...

ــ حلوا الصفوف.

قد خاب توقعى بأن يصافح أولاد غوركى أولاد كورياج. فقد إنطلقوا من الصفوف مسرعين إلى المهاجع والنوادى والمعامل. ولم يتأثر أولاد كورياج من قلة اللباقة هذه فجروا على أثرهم ما عدا كوروتكوف فقد ظل وسط رفاقه يتحدثون فيما بينهم بصوت خافت. وكانت بريجيل والرفيقة زويا جالستين على أحجار القبور فى أسفل الكنيسة فدنوت منهما:

قالت بريجيل: — أولادك لابسون ثيابا لطيفة.

فسألت الرفيقة زويا: — هل أعدت لهم المهاجع؟

فأجبتها:

— سنستغنى عنها، — وبعد قليل لفت إنتباهى مشهد جديد.

كان قطيع الخنازير محاطا بأولاد كتيبة ستوبيتسين يدخل باب الدير بهدوء وتثاقل. كان يمشى فى ثلاث جماعات: فى المقدمة الأمهات وفى الوسط الأولاد وفى المؤخرة الأباء. وقد استقبلها فولوخوف مع هيئة أركان حربه بابتسامات مشرقة بينما كان كودلاتى يحك

آنذاك بشكل ودى خلف أذن كبيرنا المفضل الخنزير البالغ من العمر خمسة شهور وإسمه شامبرلن وقد سمى هكذا تكريما لانذار هذا الرجل الشهير.

سار القطيع الى الحظائر التى أعدت له، فاذا ستوبيتسين وشيرى وخالابودا يدخلون وهم فى غمار حديث شائق. كان خالابودا يضم إلى صدره أصغر الخنانيص وأكثرها حمرة ويلوح بيده الأخرى. وقال وهو يلحق بجماعتنا:

ـ يا لهذه الخنازير. لو أن الناس فى بيوتهم كالخنازير لخرج من ذلك شيء، أقول هذا لك.

نهضت بريجيل من على أحجار المقبرة وقالت بشدة:

ـ ومع ذلك فمن المحتمل أن الرفيق ماكارنكو سيكرس همته الاولى إلى البشر على الأخص.

فقالت زويا:

ـ أشك فى هذا، فالخنازير مأواهم جاهزة أما الأولاد... فسوف يدبر أمرهم...

فاهتمت بريجيل فجأة بهذه الافتراضة الأصيلة:

ـ نعم ملاحظة زويا صحيحة. إننا في شوق لأن نعرف ما رأى ماكارنكو في هذا الشأن؟ ولا أقصد بهذا مربي الخنازير ماكارنكو بل المربي البيداغوجي ماكارنكو؟

كنت متأثرا تأثرا مزعجا بالعداء الصريح الذي في هذه الكلمات غير أنني لم أرد في هذا اليوم أن أجيب بنفس الفظاظة دونما تدبر للأمر:

ـ إسمحا لهاتين الشخصيتين أن أجيب جوابا جماعيا إن صح التعبير.

ـ أرجوك تفضل.

ـ لعلكما تريان أن الأولاد هنا هم السادة والخنازير تحت حمايتهم.

فسألت بريجيل وهي تنظر إلى مكان آخر:

ـ وأنت، من أنت؟

ـ إذا أردت فأنا بالأحرى أقرب من السادة.

ـ ولكن هل لديك مكان تهجع فيه؟

ـ أنا في غنى عن ذلك أيضا.

فهزت بريجيل كتفيها مغتاظة وقالت للرفيقة زويا:

ـ دعينا من هذا الحديث. إن الرفيق ماكارنكو يحب الأوضاع الحرجة.

فقهقه خالابودا ضاحكا:

ـ وما هو وجه السوء في هذا؟ إنه على حق، فما هى الاوضاع الحرجة. وما سبيله إلى عمل أوضاع مرضية.

ولم أتمالك إلا أن أبتسم مما حمل زويا على أن تهاجمنى هجوما ثانيا:

ـ لا أدرى ما إذا كان هذا وضعا حرجا او مرضيا عندما تجرى تربية الأولاد على شاكلة الخنازير.

إستشاطت الرفيقة زويا غضبا ورمقتنى عيناها بنظرات حادة. فتملكنى الرعب إلا أن سيننكى فى هذه اللحظة اسرع ببوقه هائجا وأخذ يزقزق على نفس المنوال:

ـ يوجد... لابوت الذى قال... ولكن كوفال قال إنتظر. إن لابوت الآن هو الذى غضب وقال: إعمل كما قلت لك، نعم... ثم قال ايضا: إذا إستمررت فى النظر الى السرة... والأولاد أيضا... أوه، كل هذه المهاجع تجب رؤية هذا. أوه لا! لا! إن الأولاد يقولون

هذا لا يطاق، ولكن كوفال يقول يجب التشاور معك!..
ـ فهمت ماذا يقول الأولاد وماذا يقول كوفال ولكن لم أفهم أبدا ماذا تريد منى؟

فاضطرب سيننكى:

ـ لا أريد شيئا... فقط لابوت قال...

ـ ماذا؟

ـ ولكن كوفال هو قال له: ـ يجب التشاور...

ـ ماذا قال لابوت بالضبط؟ هذا هام أيها الرفيق سيننكى.

لقد سره سؤالى جدا حتى أنه لم يكد يسمعه:

ـ ماذا؟

ـ ماذا قال لابوت؟

ـ آه... نعم! قال: أعلن ببوقك الاجتماع.

ـ هذا ما كان يجب أن تقوله منذ البدء.

ـ ولكن، ولكن هذا ما قلته لك...

أمسكت الرفيقة زويا بين إصبعيها خدود سيننكى الحمراء وجعلت من فمه ثغرة كأنه عقدة صغيرة حمراء.

ــ ما اجمله من ولد صغير!

إنتزع سيننكى نفسه بامتعاض من يدى زويا المدللة ونشف شفتيه بكمه ونظر إليها شزرا:

ــ ولد صغير... هكذا ترييننى! هل أنا كذلك؟..

أنا لست ولدا صغيرا أنا مستوطن فى الاصلاحية هذا كل شئ.

رفع خالابودا سيننكى بين يديه مع بوقه وكأنه ريشة خفيفة:

ــ قلت حسنا، وأيم الحق قلت حسنا جدا، ومع ذلك فأنت خنوص صغير.

قبل سيننكى طائعا الوضع الذى أقحم فيه ولم يحتج على هذا النعت الذى وصف فيه. وقد أبدت زويا أيضا الملاحظة نفسها:

ــ يبدو أن تسميتهم[1] بالخنانيص هو أشرف لقب لهم.

ــ خلى عنك! ــ قال هذا خالابودا بلهجة إستياء، ووضع سيننكى على الأرض.

كان يبدو أن جدالا يكاد ينفجر عندما ظهر كوفال ووراءه لابوت:

كان كوفال وهو فريسة ضيق فلاح أمام رؤسائه، يغمز بعينيه وراء ظهر بريجيل ليلفت إنتباهى لآتى ونتحدث على طرف، بيد أن لابوت لم يدع لنفسه أن ترتعد فرائصه أمام الرؤساء:

— لقد إعتقد كوفال هذا بأن له فراشا وثيرا هيئ له ولكننى أعتقد أنه يجب أن لا نرجئ شيئا. سنجتمع على الفور ونقرأ عليهم نداءنا.

خجل كوفال من ضرورة التكلم أمام الرؤساء الذين كانوا «نساء» وهذا ما كان يعتبره دائما فى قرارة نفسه سلطة من طبقة ثانوية ولكنه ما تردد فى عرض وجهة نظره:

— كأننى بحاجة الى فراشك الوثير، فلا تقل إذن حماقات. ولكن هل سنحملهم على الاذعان لندائنا؟ وكيف ستجد السبيل الى حملهم على ذلك؟ هل يعنى ذلك أنك ستجرهم من جلدة رقبتهم أو أن تزجهم زجا؟

وألقى كوفال على بريجيل نظرة خائفة إلا أن الخطر الحقيقى كان قد جاء من طرف آخر:

سألت الرفيقة زويا بارتياع:

ـ كيف هذا «تزجهم زجا»؟

فأجاب كوفال وقد تضرج بالحمرة: هذا فقط من نوع الكلام، ثم إن هؤلاء ليسوا موضع إهتمامى! سأمضى غدا إلى لجنة المدينة لأعود على الفور الى القرية...

ـ نعم، ولكنك قلت أنكم ستحملونهم على الاذعان. فماذا تقصد به؟

وفجأة أفقد الحنق إحترام كوفال للرؤساء وساقه فى إتجاه معاكس:

ـ آه ما هذا؟ هل هنا عمل أم ثرثرة... لعنة الله...

وإنطلق كالسهم إلى النادى، وكان حذاؤه المغبر يطير حطام أرصفة الأجر من أرض كورياج التى بقيت من عهد الرهبان.

ومد لابوت يديه أمام زويا:

ـ أنا أستطيع أن أشرح لك ماذا يعنى حملهم

على الاذعان. ان حملهم على الاذعان يعنى... نعم يعنى حملهم... ماذا؟

فقالت الرفيقة زويا وهى تنط أمام بريجيل:

ـ أرأيت؟ أرأيت؟ ماذا نقول الآن؟

فامرت: ـ يا سيننكى أعلن الاجتماع ببوقك.

إنتزع سيننكى أداته من يدى خالابودا وصوبه إلى صليب الكنيسة ومزق السكون بنداء دقيق ومنقطع فيه الحماسة والاستعجال، فرفعت الرفيقة زويا يديها إلى أذنيها:

ـ يا إلهى. هذه الأبواق... وهؤلاء القادة!.. ثكنة!..

فقال لابوت: ـ لا شيء! ولكنك عرفت ما نحن بصدده.

فقالت بريجيل بلطافة: ـ إن الجرس أفضل كثيرا.

ـ ماذا تقولين؟ الجرس؟ إن الجرس بهيمة. إنه يصيح دائما نفس الشيء بينما هذا نداء معقول: الاجتماع. ويوجد أيضا «للقادة» و «النوم» وأيضا الانذار

أوهو! فاذا شرع فانكا يعلن بالبوق الانذار فان هذا يرمى ميتا فى الحريق وأنت أيضا تأخذين بالركض.

ظهرت من أركان الأروقة والسقائف ومن وراء جدارن الدير جماعات من الأولاد كانت قاصدة النادى. وكان الصغار كثيرا ما يركضون بيد أن تأثيرات شتى عرضية كانت تكبح جماح إنطلاقهم على الفور. واختلط أولاد غوركى وأولاد كورياج وإبتدأت أحاديث ذات طابع إنشائى كما يبدو حسب كل مظهرها. على أن غالبية أولاد كورياج إستمرت فى تكوين عصبة منعزلة على حدة.

وفى قاعة النادى المجردة والرطبة وقف الجمهور شيئا فى إزدحام ولكن قمصان إصلاحية غوركى البيضاء كانت تظهر قرب درجات المذبح ولاحظت أن هذا الوضع قد أتخذ بناء على تعليمات تارانتز الذى ركز قواه إستعدادا لكل طارىء.

كانت القلة العددية لكتلتنا الصادمة تبرز للعيان: خمسون من أربعمئة من الحاضرين. وكانت الكتيبة الثانية والثالثة والعاشرة منشغلات فى إيواء الماشية وكان

قد بقى زهاء عشرين من الأولاد في ريجوف مع أوسادتشى، هذا ما عدا التعرض لذكر الطلاب. وفضلا عن ذلك لم تدخل فتياتنا فى عداد الحساب وقد إستقبلتهن زميلاتهن فى كورياج إستقبالا وديا جدا ويكاد يكون مؤثرا فيه القبلات والشكاوى وجعلن لهن مكانا فى مهجعهن الذى لم ترتبه أوليا لانوفا عبثا وبعناية فائقة.

وقبل إقتتاح الجلسة سألنى جوركا فولكوف هامسا:

— إذن أعمل بصراحة؟

فاجبته: — إعمل بصراحة.

وبعد أن تسلق جوركا قاعدة المذبح المقدس إستعد لأن يقرأ ما كنا ندعوه بالمزاح نداءنا. لقد كان قرار منظمة الشبيبة الشيوعية فى إصلاحية غوركى، وقد وضع فيه جوركا وفولوخوف وكودلاتى وجيفيلى وغوركوفسكى كنوزا لا حد لها من روح المبادرة والخفة والاندفاع الروسى الواسع والحساب الدقيق مع إضافة كمية معتدلة من بهارات إصلاحية غوركى والصداقة الطيبة الممزوجة بهذه الصلابة الودية التى تكون بين الرفاق.

كان «النداء» معتبرا حتى ذلك الحين وثيقة سرية على الرغم من أن عددا كبيرا جدا من الأفراد قد إشتركوا فى مناقشته: فقد نوقش عدة مرات من قبل أعضاء مكتب كورياج وفى خلال سفرى إلى الاصلاحية تفحصوه مرة ثانية وراجعوه بحضور كوفال وقيادة الشبيبة الشيوعية.

إستهل جوركا الكلام بهذا:

ـ أيها الرفاق أولاد الاصلاحية. سنبدأ الحديث بصراحة، ولا أدرى بأى شىء نبدأ! ولكننى سأقرأ عليكم قرار خلية الشبيبة الشيوعية وسوف ترون على الفور بأى شىء سنبدأ وكيف سيتعاقب كل شىء. إنكم الآن لا تشتغلون، ولستم من شبيبة شيوعية ولا من أحداث طلائع وهكذا تعيشون فى غمرة القذارة، وماذا أنتم فى نهاية الأمر؟ ومن أى وجهة نظر يستطيع المرء أن ينظر إليكم؟ بصراحة من وجهة النظر هذه: أنتم القاعدة لتموين الفسفس والقمل والبراغيث وسائر الحشرات...

فصاح أحدهم: ـ أهذا ذنبنا؟

فأجابه جوركا فورا: ـ وكيف؟ نعم! هذا ذنبكم

طبعا وذنبكم كبير. أى حق لكم فى أن تصبحوا كسالى متوانين، ولصوصا: لا حق لكم أبدا. وأى وساخة لديكم. أى إنسان له الحق فى أن يعيش فى قذارة كهذه؟ نحن نغسل خنازيرنا بالصابون كل أسبوع ولا بد لكم من أن تروا ذلك. هل تظنون أنه يوجد خنزير لا يحب أن يغتسل فيقول: «دعونى هادئا سالما من صابونكم؟» لا أبدا، أنه يحيينا ويشكرنا. وأنتم ليس لديكم صابون منذ شهرين...

فصاح أحدهم وسط الجمهور بلهجة فيها تأثر ومرارة:

— إنهم لا يعطوننا.

فتجهم وجه جوركا وإحتد، وكان ما يزال لم يفقد الآثار المرضوضة من مقابلته الليلية مع العدو الطبقى.

— ومن ينبغى له أن يعطيكم منه. أنتم هنا السادة فيجب عليكم أن تحصوا بأنفسكم كيف وماذا.

— ومن لديكم السيد؟ ربما ماكارنكو؟ — سأل هذا السؤال صبى وسرعان ما إختفى وسط الجمهور.

وإستدارت الرؤوس صوب المكان الذى إنبعث منه السؤال غير أنه ما كان المرء يرى غير حلقات تتحرك وبعض الوجوه فى الوسط تضحك مسرورة راضية.

فابتسم جوركا إبتسامة عريضة وقال:

ـ وهذه بهامة. إن أنطون سيميونوفيتش له ثقتنا لأنه واحد منا ونحن نعمل معا. إن الذى سأل هذا السؤال إن هو إلا غليظ ثقيل الدم حقا، ولكن لا ضير، إن الأوباش أمثاله سنريهم وإلا فان الأولاد الذين على هذا المنوال يظلون هنا يرددون من كل صوب: أين سيدى؟

إنفجرت الضحكات فى النادى: إذ أن جوركا قلد تقليدا ناجحا الأبله ذى الوجه المشدوه وهو يبحث عن سيده.

وتابع جوركا كلامه:

ـ إن السيد فى بلاد السوفييت هو البروليتارى والعامل، ولكنكم كنتم تعيشون هنا وتأكلون على نفقة الدولة وكنتم تبولون تحتكم دونما وعى سياسى اللهم إلا ما فى رأس دجاجة.

أخذت أقلق: ألم تتجاوز نقاط جوركا حدها. فلطافة أكثر قليلا لن تضير شيئا. وفى هذه اللحظة بالضبط صاح نفس الصوت الذى لا سبيل إلى معرفته.

ـ سنرى كيف ستخرأون؟

وجابت القاعة موجة من الضحك الحذر الخبيث وإبتسامات الرضى والبهجة بهذا.

فقال جوركا بلطافة ورزانة: ـ سيكون فى وسعك أن ترى بعينك. وفى وسعى حتى أن أضع لك أريكة قرب المراحيض وليس لك إلا أن تجلس وترى بأم عينيك وسوف يكون هذا فضلا عن ذلك مفيدا جدا لأنك لا تعرف كيف تقضى الجاحة. إن هذا لاختصاص صغير ومع ذلك فهو شىء، كل واحد بحاجة لمعرفته.

كان يخجل أولاد كورياج، ومع ذلك ما كان فى وسعهم أن يمنعوا أنفسهم عن الضحك فكانوا يمسكون بعضهم بعضا ويتأرجحون من الرضاء. وكانت الفتيات يطلقن صيحات قصيرة وهن يستدرن صوب المدفأة وينجرح شعورهن من كلام الخطيب. وكان أولاد غوركى

وحدهم يسيطرون بلباقة على فرحهم وهم يتأملون جوركا باعتزاز.

كف الباقون عن الضحك وأصبحت نظراتهم المحدقة بجوركا أكثر حرارة وإدراكا وكل ذلك كأنما يسمعونه يعرض برنامجا مقبولا ومفيدا لشكل كامل.

شيء هام جدا في حياة المرء أن يكون له برنامج. إن احط إنسان نفسه إذا رأى أمامه سوى مجرد فسحات من الأرض مع نجادها ووهادها بحيراتها وتلالها أبسط أفق: دروب صغيرة، وطرق ذات منعطفات وجسور صغيرة ومواقف وصوى يأخذ هو أيضا بالانتظام بمراحل صغيرة وينظر بمرح أكثر الى الأمام وتبدو الطبيعة نفسها أكثر تناسقا: من هذا الجانب اليسار، ومن ذاك اليمين، وهذا اقرب من الطريق وذلك ابعد!

كنا - نعتمد إعتمادا واعيا على الأهمية الكبرى لأى صورة من الأفق حتى تلك الصور التى لا تدخل فيها قطعة من الحلوى ولا أدنى درهم من السكر. وعلى هذه

الشاكلة ألف نداء خلية الشبيبة الشيوعية الذى شرع جوركا أخيرا بقراءته أمام المجتمعين:

«قرار من خلية الشبيبة الشيوعية
في اصلاحية العمل غوركي
بتاريخ ١٥ أيار (مايو) ١٩٢٦

١ — جميع كتائب الأولاد القدماء من إصلاحية غوركي والجدد من كورياج قد حلت وتنشأ على الفور كتائب جديدة مؤلفة من عشرين ومكونة على النحو التالي... (وقرأ جوركا توزيع الأولاد الى كتائب من لائحة وأسماء قادتها على حدة).

٢ — يبقى الرفيق لابوت أمينا عاما لمجلس القادة، وأحتفظ بدينيس كودلاتي وألكسي فولكوف في مركزيهما كوكيل للأملاك وأمين على المستودع.

٣ — وقد عهد إلى مجلس القادة بأن ينفذ جميع التدابير المشار إليها في هذا النداء وأن يسلم الاصلاحية بأكمل شكل لممثلي مفوضية الشعب للتعليم العام

وللجنة التنفيذية الاقليمية فى يوم الاحتفال بالحصاد الذى سيحتفل به بشكل واجب.

٤ — ينبغى أن تجمع على الفور أى قبل مساء ١٧ أيار جميع الملابس والشراشف والأغطية والفرش والمناشف الخ..، التى بين أيدى أولاد اصلاحية كورياج السابقة، وهذا لا يعنى الحوائج التابعة للدولة فحسب بل أيضا الحوائج الخاصة بالأولاد أنفسهم وذلك لتؤخذ فى نفس اليوم للتطهير والترقيع.

٥ — سيوزع على جميع الأولاد والصبيان سراويل وبناطيل قصيرة وقمصان صنعتها الفتيات فى الاصلاحية القديمة، وسوف يسلمون غيرها فى بحر أسبوع لتبادل الثياب المعطاة للغسيل.

٦ — جميع الأولاد ما عدا الفتيات ينبغى لهم جز شعورهم وبعدئذ سيسلم على الفور لكل واحد قبعة من المخمل.

٧ — ينبغى لجميع الأولاد أن يستحموا اليوم، أينما

وجدوا إلى ذلك سبيلا، ويتركوا المغسل تحت تصرف الفتيات.

٨ — ويطلب من جميع الكتائب أن لا تنام فى المهاجع بل فى الباحة أو فى أى مكان آخر ممكن وذلك باختيار القائد ما دامت التصليحات وترتيب المهاجع الجديدة لم تتم فى المدرسة القديمة.

٩ — إن الفرش والأغطية والوسائد التى نقلها أولاد غوركى ستكون فرشا للنوم وكل ما يخص كل كتيبة من هذه الحوائج ستوزع بين أعضائها دون نقاش سواء كانت الملكية كافية أم لا.

١٠ — يرجى من الجميع أن لا يثيروا أى قلق أوشكاية من نقص الفرش بل عليهم أن يجدوا حلا معقولا للمصائب.

١١ — سيتناول الأولاد طعامهم على دورتين حسب الكتائب ومن الممنوع الانتقال من كتيبة الى كتيبة أخرى.

١٢ — تجب مراعاة النظافة مراعاة شديدة.

١٣ — لن يبدأ الأولاد بالعمل فى المعامل

إلا إعتبارا من أول آب (اغسطس) فقط، ما عدا الخياطة فسوف تنفذ منذ الآن حتى ذلك الحين الأعمال التالية:

هدم جدران الدير، لتستخدم أحجار القرميد فى بناء زريبة للخنازير تتسع لـ ٣٠٠ حيوان.

دهان النوافذ والأبواب والدرابزين والأسرة فى جميع الاصلاحية.

الأعمال الزراعية وزراعة البقول.

تصليح جميع الأثاث.

إصلاحات عامة للباحة ولسفوح والهضبة من كل جانب وشق الدروب وتنظيم مساكب الأزهار وقفص للانضاج.

سيخاط لجميع الأولاد بزتان من نوع جيد وسوف يشترى لهم فضلا عن ذلك أحذية للشتاء، أما فى الصيف فيمشون حفاة.

تنظيف البركة لكى نستحم.

غرس بستان جديد على السفح الجنوبى.

اعداد الآلات والمواد الأولية والأدوات للبدء بالعمل في المعامل إبتداء من شهر آب».

على الرغم من بساطة نداثنا الظاهرية فانه أحدث في نفوس الجميع تأثيرا بالغا. ونحن أنفسنا — مؤلفيه — قد تأثرنا بدقته الصارمة والحازمة، زد على ذلك أن ما لاحظه الأولاد عقب ذلك هو أن النداء قد أظهر للجميع أن ركودنا قبل وصول أولاد اصلاحية غوركي كان يخفي في طيه نيات صارمة وإعدادا سريا لم تغرب فيه الوقائع لحظة عنه.

كانت الكتائب الجديدة قد شكلت تشكيلا رائعا من قبل الشبيبة الشيوعية. وقد أتاحت عبقرية جوركا وغوركوفسكي وجيفيلي بتعيين كمية الأفراد الذين من كورياج في الكتائب بدقة بالغة آخذين بعين الاعتبار أواصر الصداقة وسخائم النفوس والطبائع والميول والرغائب، والانحرافات. إن الكتيبة المختلطة الطليعية لم تتردد عبثا على المهاجع طيلة الأسبوعين.

إن الانتباه الواعي نفسه كان في توزيع أولاد غوركي: الأقوياء والضعفاء، الأشداء والمتراخين، الصارمين

والمرحين، الأولاد الحقيقيين والقريبين من ذلك، فجميعهم كانوا قد وجدوا مكانهم بموجب جملة من الاعتبارات.

حتى بالنسبة للكثير من أولادنا كانت السطور الحازمة لندائنا شيئا جديدا: وكانت قراءته من قبل جوركا قد جعلت أولاد كورياج مشدوهين تماما. كان بعضهم فى هذه اللحظة يستفهمون بصوت خافت من جيرانهم عن بعض الكلمات التى لم يسمعوها جيدا وتشرئب أعناقهم ويرتفعون على رؤوس أصابعهم ويلقون النظرات حولهم، ويقول بعضهم: «اوه!» فى الأمكنة الشديدة إلا أنهم حين إنتهى جوركا من القراءة ساد الصمت فى أرجاء القاعة، صمت يشوبه بعض الأسئلة الصغيرة السكنة ولا تكاد تبين: ما العمل؟ أين النجاة؟ إذعان أم إحتجاج أم خضوع؟ تصفيق أم ضحك أم شتم؟

ثنى جوركا بتواضع قطعة صغيرة من الورق، وجال لابوت ببصره الساخر على الجمهور من خلال أجفانه المنتفخة وتثاءب تثاؤ با خبيثا:

ـ أنا، هذا لا يعجبني. أنا ولد قديم من إصلاحية غوركي، ولي سريري وفراشي ولحافي. والآن يجب على أن أنام تحت الشجر. وأين هذا الشجر؟ يا كودلاتي! بما أنلك قائدي قل لي أين شجرتي؟

ـ لقد إخترتها مسبقا خصيصا لك.

وهل ينبت شيء فوقها على الأقل؟ كرز ربما ام تفاح؟ وسيكون الأمر بديعا إذا كان هناك بلبل. هل هناك بلابل يا كودلاتي؟

ـ الآن لا، ولكن هناك عصافير.

ـ عصافير؟ أنا شخصيا لا أهتم بهذه العصافير. إنها تزقزق زقزقة بشعة وإنها غير نظيفة، ألصق لي على الأقل برقشا.

فقال كودلاتي ضاحكا:

برقشا؟ طيب!

ـ وبعدئذ... ـ نظر لابوت فيما حوله بهيئة متألمة ـ كتيبتنا هي الثالثة... أرني اللائحة... آه، الكتيبة الثالثة... فيها من أولاد غوركي القدماء: واحد،

اثنان، ثلاثة... ثمانية. سيكون لنا ثمانية أغطية وثماني وسائد وثمانية فرش لاثنين وعشرين ولدا. هذا لا يروق لي كثيرا. وماذا هناك؟ آه. طيب، ياستيغني. أين ستيغني هذا؟ إرفع يدك، هيا تعال الى هنا. تعال، تعال لا تخف.

فصعد الى سطح المذبح ولد يجهل منذ العصر الحجري الصابون والحلاقة. له رأس مشوى كله وعلى وجهه تراكمت الأوساخ تراكما كثيفا وشكلت الوشى المعقدة التي تصدعت منذ وقت بعيد. تسلق ستيغني برجليه السوداوين الدرجات وهو مضطرب ثم بحلق ببلاهة في الجمهور بعينين مستديرتين بلهاوين وثغر ذي أسنان بيضاء ناصعة.

— طيب، معك أنت يجب أن أتقاسم اللحاف؟ ثم قل لي: هل ترفس كثيرا في الليل؟

أزبد اللعاب على شفتي ستيغني فأراد أن ينشف شفته بيده السوداء ولكنه تملكه الحياء فحكها بذيل من قميصه المتعفن.

— لا...

ـــ طيب... قل لى أيها الرفيق ستيغنى ماذا سنعمل إذا نزل المطر؟

ـــ ليس لنا إلا أن نهرب، هى! هى!..

ـــ أين هذا؟

ففكر ستيغنى وقال:

ـــ ومن يدرى؟

وإلتفت لابوت إلى دينيس ووجهه مهموم وقال:

ـــ يا دينيس إلى اين نهرب فى حالة المطر؟

فتقدم المخاطب وهو ينظر إلى المجتمعين ويغمز بعين ماكرة للفلاح الأوكرانى:

ـــ لا أعرف بماذا يفكر القادة حول هذا الموضوع؟ وفى النداء يوجد فى الحقيقة نقص بهذا الشأن ولكننى أرى هذا الرأى: وهو إنه فى حالة المطر أو أى شىء آخر ليس على الكتيبة الثالثة أن تخشى شيئا. فالنهر قريب كل القرب وأنا أقود الكتيبة إلى النهر. فى الحقيقة إذا دخل المرء فى لجة النهر فان المطر لا يصبح شيئا مزعجا، وإذا غاص فيه فضلا عن ذلك فلن تصيبه نقطة ماء.

وليس الأمر رهيبا بل هو مفيد للصحة.

وألقى دينيس نظرة ساذجة على لابوت وإنزوى جانبا وإذا بلابوت يحتج فجأة ويصيح بستيغنى الذى غلبه النعاس فكان يتأمل أحداثا حساما.

ـ أتسمع أم لا؟!

فقال له الآخر مرحا:

ـ نعم! أسمع.

ـ طيب، إسمع. إذن سننام على لحافى ولكن قبلئذ سآخذك وأغسلك هناك فى النهر وأجز شعرك. فهمت؟

فأجاب ستيغنى باسما: ـ فهمت!

طرح لابوت قناع التغابى وتقدم من حافة الدرجات قائلا:

ـ هكذا، كل شيء واضح؟

فتعالت الأصوات من مختلف الأماكن تصيح: ـ هذا واضح!

ـ طيب ما دام الأمر واضحا فستتكلم الآن بصراحة.

هذا النداء طبعا ليس... طيبا جدا، بيد أنه مع ذلك يجب على اجتماعنا أن يوافق عليه فلا مناص من ذلك!

ثم قام بحركة مفاجئة يائسة من ذراعه وقال بصوت يشوبه الحزن:

– إبدأ باجراء التصويت يا جوركا.

فانفجر الضحك ومد جوركا يده الى الأمام:

– سابدأ التصويت: الذين يوافقون على النداء يرفعون أيديهم.

وإنتصبت غابة من الأيدى. وجلت ببصرى بانتباه على صفوف جيشي. لقد كان الجميع موافقين عليه حتى جماعة كوروتكوف الواقفة قريبا من الباب. أما الفتيات فقد رفعن أيديهن الوردية بلطافة تشيع فيها نشوة الظفر وكن يبتسمن ورؤوسهن مائلة جانبا. لقد دهشت دهشة عظيمة. لماذا كوروتكوف وأتباعه قد وافقوا. كان رئيسهم نفسه واقفا متكئا الى الجدار ويده ممدودة طويلا وهو يرقب بهدوء بعينيه البديعتين جماعتنا على المسرح.

إن جلال هذه اللحظة قد كدره بوروفوى، فقد

إندفع في القاعة وإلتطم بالباب وهو يصدر من أوكرديون كبير أصواتا هادرة وداوية وصرخ:

ــ وصل السادة؟ فورا... أعزف تحية موسيقية... اعرف واحدة... سترون.

حط كوروتكوف يده على كتف بوروفوى وأشار له بعينيه. فمد بوروفوى عنقه وفتح فمه وسكت، وهو ما يزال يمسك بآلته بشكل مهدد حتى إن المرء كان يتوقع في كل لحظة إنفجارا من الموسيقى.

وأعلن جوركا نتائج التصويت:

ــ بشأن الموافقة على نداء خلية الشبيبة الشيوعية فقد وافق عليه ثلاثمئة وأربع وخمسون صوتا، ولم يعارضه صوت واحد. لذلك فاننا نعتبر النداء موافق عليه بالاجماع.

صفق أولاد غوركي بأيديهم وهم يبتسمون ويتبادلون النظرات. أما أولاد كورياج فقد تحمسوا فجأة وإتخذوا هذا الشكل غير المألوف بالنسبة لهم للتعبير عن عواطفهم وربما لأول مرة منذ تأسيس الدير تدوى تحت قبابه

ضوضاء مرحة من تصفيق جماعة بشرية. ظل الصغار يصفقون طويلا والأصابع مفتوحة وهم يرفعون الايدى من حين لآخر فوق رأسهم أو يحملونها إلى أذنهم وإستمروا على هذا الحال حتى رأوا زادوروف يتقدم من المنصة.

لم ألاحظ وصوله وقد كان بلا ريب يحمل شيئا من ريجوف لأن ملابسه كانت مدهونة بالبياض. وفى هذه اللحظة — كما هى العادة دائما — كان يوقظ على الأخص فى نفسى إنطباعا من النقاء الصافى من البهجة البسيطة الطيبة. وكان سحر بسمته أيضا يبديه إنتباه المجتمعين.

— أيها الأصدقاء: أود أن أقول لكم كلمة صغيرة ها هى: أنا أول ولد فى إصلاحية غوركى كلها وأقدمهم وكنت ذات يوم أسوأهم. إن أنطون سيميونوفيتش يذكر ذلك جيدا لا ريب! بيد أننى الآن طالب فى السنة الأولى فى معهد التكنولوجيا فاستمعوا أذن: لقد صوتم منذ قليل على نداء جيد جدا، إنه جليل. — وأيم الحق —

ولكنه صعب! يجب أن أقول لكم ذلك بصراحة ، وهو ما أصعبه!

وأدار رأسه من هذه الصعاب، فدوت الضحكات الودية فى القاعة.

ــ ولكن على كل حال، فقد صوتم عليه، وإنتهى الأمر. وإليكم أن تتذكروا ذلك. قد يفكر أحد بينكم: نستطيع دائما أن نصوت وبعدئذ سنرى. إن هذا ليس رجلا بل هو أسوأ من ثعبان، من دودة. فبمقتضى قانوننا إذا لم ينفذ المرء ما أمر به فى إجتماع عام فليس أمامه سوى سبيل واحد يسلكه: خارج الباب، الى الخارج!

عض زادوروف شفتيه المبيضتين ورفع يده إلى رأسه، فصاح بشدة وهو يخفض يده: ــ الى الخارج!

فتجمد الجمهور بانتظار مروعات جديدة إلا أن كارابانوف فى ذلك الحين كان يشق طريقه وهو ملطخ كله أيضا ولكن بالسواد وسأل وسط السكون السائد:

– من يجب أن يخرج خارج هذا المكان؟ أنا أستطيع فى لحظة!

فقال لابوت بصوت ثابت رابط الجأش: بشكل عام!

– أنا مستعد بشكل عام وكما يراد! ولكن ماذا أصابك حتى تبقى واقفا هنا ممتعضا ككاهن فى السوق.

فقال أحدهم: – كلا، لم يقل شيء!

– أوه. هكذا! ما كدتم تصلون حتى طأطأتم رؤوسكم. كيف؟ اين الموسيقى؟

فصاح بوروفوى وهو فى نشوة كاملة من الغبطة: – هى هنا الموسيقى. وكيف! – وصدح بأوكرديونه.

– آه! ها هى ذى الموسيقى! شكلوا الحلقة! هيا يكفى الفتيات أن تتدفأن المدفأة، من يرقص الغوباك؟ ناتاشا يا فؤادى! أنظروا أيها الأولاد أليست لطيفة ناتاشا حبيبتنا!

فصوب الأولاد أنظارهم إلى عينى ناتاشا بيترنكو الماكرتين وإلى جديلتيها وإلى سنها النانئة وبسمتها الوردية.

فسأل بوروفوى بابتسامة مايسترو وإنتزع من جديد أصواتا من اوكورديونه وقال: — أتريد رقصة الغوباك أيها الرفيق!

— وأنت ماذا تريد أن تعزف؟

— أعزف الفالس وخطوة المتزحلقين وخطوة إسبانيا وكل شئ...

— خطوة المتزحلقين بعدئذ، يا بابا! ولكن رقصة الغوباك فورا.

وإبتسم بوروفوى لطلبات كارابانوف الراقصة غير كبيرة، وفكر ومال برأسه وفتح فجأة أداته وأخذ يعزف رقصة بايقاع خاص. وقفز كارابانوف إلى الحلبة وهو يفتح ذراعيه وشرع يرقص رقصا متحمسا، ويلوى ساقه فى الرقص. ورفت أهداب ناتاشا فجأة على وجهها الذى التهب حمرة ثم إنسدلت. وبدون أن تنظر لأى أحد إنطلقت إلى الفسحة دونما ضوضاء وهى تكاد لا تحرك ثنيات ثوبها الجديد المكوية بدقة. فضرب سيميون الأرض برجله وأخذ يدور حولها بابتسامة صفيقة وهو يعرض فى

كل النادى حركات وأشكال مزوقة ويرمى فى كل جانب ساقه الخفيفة التى تثير البهجة. إرتفعت أهداب ناتاشا، والنظرة التى أطلقتها لسيميون إتقدت بذلك البريق الخاص الذى لا يؤلف إلا فى رقصة الغوباك والذى يعنى فى اللغة الروسية ما يلى: «أنت ولد جميل وترقص جيدا ولكن حذارا»...

كان بوروفوى يضفى على الموسيقى أشياء جميلة: فيلتهب سيميون بالحماسة وتشرق ناتاشا بالبهجة والفرح: فاذا بفستانها الآن بدلا من ان يتموج خفيفا يطير ويشكل حول ساقيها الظريفتين دائرة من الثنايا والكفائف. ووسع أولاد كورياج الحلقة، ونشفوا أنوفهم باكمامهم ولا أدرى عما صاروا يتحدثون؟ كان إيقاع رقصة الغوباك وتموجها وإندفاعها الحاد تجوب النادى فترفع حتى أعلى السقف إيقاع الأوكورديون الفائر.

وإذ ذاك إستطالت يدان من وسط الجمهور شقتا دونما رحمة ازدحام الأولاد اللين ووقف بيريتز ويده

على خصره وهو على مقربة من إعصار الرقص وغمز ناتاشا بعينه ودعاها بضربة من رجله على الأرض. وكان من ناتاشا الحلوة اللطيفة أن رفعت بصرها إليه بخيلاء وعينها نصف مفتوحة وهزت تحت أنفه كتفها اللطيفة المزخرفة وإبتسمت له فجأة إبتسامة بسيطة وودية فيها نباهة الرفيق من الشبيبة الشيوعية الذى مد له على الفور يد النجدة.

لم يملك بيريتز جلدا لهذه الابتسامة. ففى المدة اللامتناهية للحظة وبينما كان يلقى حوله نظرات مذعورة أطاح فى نفسه حصونا وقلاعا لا يعرف لها عد، ثم طار فى الهواء ورمى بقبعته العتيقة على الأرض وقذف بنفسه فى لجة الاعصار. كان ثغر سيميون يبدى جميع أسنانه، وكانت ناتاشا فى أوج إندفاعها هذه المرة، فكانت تنسرب وهى تفتل امام وجوه أولاد كورياج. وكان بيريتز يرقص رقصة على هواه فيها ترنح مضحك وخفة ناشطة وقليل من الزعران.

نظرت. كانت عينا كوروتكوف المغشاتان قد إنطبعتا بطابع الجد تحت حاجبيه المقطبين وكانت ظلال لا

تكاد تبين تجوب من جبينه الأبيض إلى فمه القلق. فسعل والتفت ولاحظ نظرتي النابهة وأخذ فجأة يشق طريقا له ليصل إليّ. كان ما يزال مفصولا عني ببعض الأولاد فمد يده لي وقال بصوت فيه بحة:

– يا أنطون سيميونوفيتش لم ألق عليك التحية اليوم بعد.

– صباح الخير. وإبتسمت وأنا أحدج عينيه.

فالتفت برأسه إلى الرقص وأرغم نفسه على أن ينظر إليّ ثم نصب رأسه وأراد أن يقول بمرح ولكنه تلفظ بصوت ما يزال مبحوحا أيضا:

– إن الأولاد يرقصون رقصا جميلا.

٩. تغير الهيئة

إبتدأ تغير الهيئة على الفور بعد إجتماعنا العام ودام زهاء ثلاث ساعات وهو تبدل قياسي لأي تبدل كان.

وحينما حرك جوركا يده إشارة إلى إختتام الجلسة،

عمت الضوضاء النادى. كان القادة يصيحون بملء حناجرهم ويطاولون أعناقهم ليدعوا أعضاء كتائبهم، وإرتسم فى قاعة النادى عشرون خطا فى بحر عدة دقائق. كانت الخطوط تتقاطع بين أرجاء جدران الكنيسة القديمة، وتشكلت إجتماعات الكتائب فى الأركان وراء المدافىء وفى الأروقة والمركز. وكان كل إجتماع يبدو للناظر كتلة غبراء قذرة رثة الثياب ووسطه كانت تتحرك بتؤدة أكتاف أولاد غوركى البيضاء.

وبعدئذ تدفق سيل الأولاد عبر الأبواب إلى الباحة والمهاجع وبعد خمس دقائق ساد الصمت فى أنحاء النادى والباحة وما كان يعكره سوى ضوضاء الاجنحة الصغيرة المرتعدة من وقع خطى الاولاد رسل الكتائب المكلفين بمهمات عاجلة.

وتمكنت من أن أستروح قليلا.

إقتربت من جماعة النسوة المتجمعة على مدخل الكنيسة وأخذت أراقب من هذا المرتفع تتابع ألاحداث. كانت بى رغبة ملحة لأن أصمت، وما كنت

أريد أن أفكر بشئ. كانت إيكاتيرينا غريغوريفنا وليدا مستبشرتين سعيدتين تدافعان دفاعا داهيا عن أسئلة الرفيقة زويا. وكانت بريجيل واقفة قرب السياج الحديدى الأغبر وهى تقول لغوليايفا:

ـ إننى أرى، هذه النعوت تخلق تأثير الانسجام، ولكن كيف؟ كل هذا ليس إلا شيئا ظاهريا.

إلتفتت غوليايفا صوبى قائلة:

ـ رد عليها يا أنطون سيميونوفيتش لأننى لا أفهم بهذه الأمور. فقلت ممتعضا:

ـ وأنا كذلك لا أعرف شيئا من الأمور النظرية.

وخيم الصمت. وتمكنت مع ذلك بأن أحظى بأدنى قسط من الراحة فجلت الطرف فيما حولى فلاحظت هذا الشئ جميلا جدا وهو الذى يدعى العالم منذ أمد بعيد. كان الوقت حوالى الساعة الثانية بعد الظهر. كانت سقوف القش من القرية فى الجانب الآخر من البحيرة كأنها أطراف الشجر تستدفئ فى الشمس. وفى السماء كانت

غيوم بيض ساكنة ما تزال مخيمة على كورياج بأمر خاص ربما: كأنما هى نوع من إحتياطى السحب.

كنت أعرف ما يجرى فى الوقت الراهن فى الاصلاحية. ففى المهاجع يطوى الأولاد الأسرة وينفضون قش الفرش والوسائد ويربطون كل هذا حزما: اللحف والشراشف والأحذية العتيقة والجديدة، كل شئ. وفى مستودع العربات، يستلم آليوشا فولكوف هذا الخليط ويسجله ويرسله إلى حجرة التعقيم. فقد كانت الآلة قد وصلت من المدينة على دواليب وتعمل على البيدر. وكان كودلاتى هو الذى يتصرف هناك. وعلى درجات المدخل المقابل فى الطرف الآخر من الكنيسة كان ديمترى جيفيلى يوزع حسب القوائم الملابس الجديدة والصابون على قادة الكتائب أو وكلائهم.

وبدا سيننكى من جدار الكنيسة مهموما يرفرف ويمد البوق الى الجانب ويقول بسرعة:

ــ قال لى تارانتز بأن أعلن إجتماع القادة فى المطعم.

ــ هيا.

وذهب سينكى وهو يطير على أجنحة غير مرئية إلى مدخل المطعم وهناك وقف وعزف عدة كرات نداء وجيزا على أنغام ثلاثة:

وبعدما تفحصته بريجيل بانتباه إلتفتت إلىّ:

ـ لماذا هذا الصبى يسألك كل مرة أن تسمح له بعزف هذه... النداءات؟ إنها مع ذلك لتفاهة.

ـ لدينا قاعدة. حينما نعلن النداءات خارج المواقيت فينبغى أن أخطر بذلك. ينبغى أن أعرف.

ـ كل هذا حسن... سأقوله على هذا النحو، إنه شئ كمالى... وأخيرا إنه ليس إلا ظاهريا. ألا تعتقد ذلك؟

وإبتدأت أحتد غضبا. بأى حق جاء هؤلاء فى هذا اليوم بالضبط ليزعجوننى؟ وماذا يريدون علاوة على ذلك؟ لعلهم يتحسرون على كورياج؟

ـ إن أعلامكم وطبولكم وتحياتكم لا تقوم بغير تنظيم الشباب تنظيما ظاهريا.

كنت أريد أن أقول «كفى» ولكننى أجبت بشكل مهذب أكثر:

ـ أنت تتصورين الشباب أو لنقل الأطفال بشكل علبة صغيرة: لها شكل خارجي وهو الغلاف إذا شئت ثم الداخل وهو الاحشاء. فحسب رأيك ينبغي لنا أن نهتم فقط بالأحشاء، ولكن بدون غلاف كل هذه الأحشاء الثمينة تتبدد.

وتبعت بريجيل ببصرها الساخط فيتكوفسكي وهو راكض إلى المطعم:

ـ وهكذا فهذا عندكم يشبه كبير الشبه مدرسة أولاد الضباط العسكريين... فقلت بأكثر ما يكون من المودة:

ـ أتعرفين يا فارفارا فيكتوروفنا، دعينا من هذا. من الصعب عليّ أن أتكلم معك بدون...

ـ بدون ماذا؟..

ـ بدون ترجمان.

وإنفصل جسم بريجيل الكثيف الأغبر فجأة من السياج وتقدم مني. ضغطت على يدى وراء ظهرى ولكنها سحبت إبتسامة لا أدرى من أين وركزتها دونما عجلة على وجهها كما يركز قصيرو النظر نظاراتهم على عيونهم.

– سنجد مترجمين أيها الرفيق ماكارنكو.

– فلننتظر.

ووصلت من الباب الكتيبة الأولى وبعد أن ألقى غود – وهو رئيسها – نظرة سريعة فاحصة على درجات الباب سأل بصوت عال:

– تقول أنه لا يدخل المرء من هذا الباب يا اوستيمنكو؟

ومد أحد أولاد كورياج وهو أسود في الخامسة عشرة من عمره، مد ذراعه إلى الباب:

– لا، لا... كما قلت لك. إنه مغلق دائما. المرور من هذا الباب ومن ذاك أيضا ولكن ليس من هنا. قلت لك الحق.

فقال أحدهم من الخلف:

– عندهم خزائنهم هناك في الوسط مع الشموع والباقي...

وصعد غود المدخل راكضا ودار في كل إتجاه على البلاط ثم أنشأ يضحك:

ـــ ماذا يلزمنا أكثر من هذا. سنكون أثرياء جدا هنا. هل يحتاجون الى هذا الدرج الفخم. ثم هناك رفرف للمطر.. ولكن سننام على اليابسة. أوليس هذا فيه بعض القسوة؟

اما كاربينسكي وهو من أولاد غوركي القدماء وصانع أحذية قديم فى كتيبة غود فقد نظر مرحا إلى بلاطات الحجر:

ـــ لا، ليس فى هذا قسوة: عندنا ستة فرش وستة لحف، وربما وجدنا شيئا آخر أيضا.

فقال غود: ـــ هذا صحيح.

وإلتفت صوب البحيرة وأعلن:

ـــ فليعلم الجميع: إن هذا المدخل احتلته الكتيبة الأولى. بدون حكايات. وأنت يا أنطون سيميونوفيتش شاهد.

ـــ إتفقنا.

ـــ إذن هيا إليه... من عندنا هنا؟ لحظة.

أخرج غود من جيبه لائحة:

ـ يا سليفا ويا خليبتشنكو. أظهرا نفسيكما، ليعرفوا من أنتما.

وكان خليبتشنكو صغيرا هزيلا شاحب اللون وكان شعره الأسود الخشن ينبت بشكل غريب ليس إلى الأعلى بل إلى الأمام، وكان أنفه مبقعا ببقع سوداء. كان قميصه المزفت يهبط حتى ركبتيه وكانت قطعة أخرى ممزقة تنزل بشكل أكثر إنخفاضا. كان يبتسم بغير مهارة ويجيل حوله نظرا حائرا زائغا. تفحصه غود بعين ناقدة ثم نقلها الى سليفا. كان سليفا هذا نحيلا شاحبا رثا مثل رفيقه يمتاز عنه فقط بطول قامته. وكان عنقه الطويل ينتهى برأس ضيق حيث ترتسم فيه شفتان ممتلئتان وحمراوان فتظهران بشكل بارز. كان يبتسم بشكل مؤثر وهو يتأمل أحد أركان المدخل. وقال غود:

ـ وأخيرا بأى شئ تتغذون هنا؟ من أين جاءكم هذا النحول... لا بد من وضع الكتيبة للتسمين يا أنطون سيميونوفيتش. ما شكل هذه الكتيبة؟ هل يمكن أن تكون هذه الكتيبة الأولى؟ لا أبدا. هل لدينا ما

يكفينا من الأكل؟ بشكل أكيد وكيف. هل تعرف الأكل؟

إنطلق ضحك في الكتيبة. وجال غود مرة أخرى بنظرة تنعدم فيها الثقة في سليفا وخليبتشنكو وقال بظرافة:

ـ إستمعا يا خروفي الصغيرين سليفا وخليبتشنكو. يجب على الفور غسل هذا الدرج غسلا تاما. أتعرفان بأي شئ يغسل؟ بالماء. وبأي شئ يصب الماء؟ بالسطل. يا كاربينسكي هيا إعمل بسرعة. إذهب الى ميتيا وأطلب منه سطلا وقطعة جنفاص ومكنسة. هل تعرفان كيف تغسلان؟

هز سليفا وخليبتشنكو رأسيهما، وإستدار غود صوبنا ورفع طاقيته المطرزة ويده ممدودة جانبا:

ـ معذرة أيها الرفاق الأعزاء: إن المكان إحتلته الكتيبة الأولى ولا سبيل الى شئ آخر. ولسبب التنظيف العام سأشير عليكم بمكان صالح فيه مقاعد. وهنا الكتيبة الأولى حطت رحالها.

إتبعت الكتيبة الأولى بابتهاج هذه الطريقة «المدنية»

حقا. شكرت غود على المكان الصالح والمقاعد ولكن أبيت العرض.

عاد كاربينسكي يركض والسطول تقرقع. وأعطى غود تعليماته الأخيرة وبحركة مرحة من يده قال:

ــ الآن. ماكينة الحلاقة والموسى.

وبينما كانت بريجيل تنزل من الباب، كانت تتبع بانتباه صامت الطريقة التي تحط فيها قدميها على الدرجات. كنت أود برغبة بالغة أن يرحل ضيوفنا بأسرع ما يمكن. وعند المدخل حيث كان يعمل مستودع جيفيلي وفي مدخله الذى كان يصطف وكلاء الكتائب، بينما كانت الجماعات الصغيرة من مساعديهم وحماليهم يحملون على أكتافهم حزما زرقاء من السراويل وحزما بيضاء من القمصان ويقرقعون بسطولهم ويتأبطون علبا بنية من الصابون كانت تقف أيضا سيارة اللجنة التنفيذية فى المنطقة وكان السائق نعسان وكئيبا وهو يلقى نظرة حزينة على بريجيل.

توجهنا بسكوت صوب الباب لا أدرى إلى أين

أذهب، فلوكنت وحيدا لذهبت وتمددت على العشب عند اسفل الكنيسة لأستمر فى تأمل الدينا ودقائقها العجيبة، وحتى نهاية عمليتنا كانت لا تزال لدىّ ساعة باقية وبعدئذ ستستولى على الأعمال وبكلمة كنت أفهم كل الفهم نظرات حزينة من السائق.

ولكن ها هى جماعة تتخطى الباب وهى تتحدث وتضحك بحيوية. فعاد البشر إلى نفسى. إنها الكتيبة الثامنة لأننى لمحت على رأسها شكل فيدورنكو البديع ولأنه كان فيها كوريتو ونيتشيتايلو وأولغ أوغنيف. كانت عيناى ترمقان بدهشة خيالات جديدة كل الجدة وكانت ترتدى خلافا للطبيعة بزة تعرفت منها جيدا أولاد اصلاحية غوركى ثم أخذت أدرك أنهم جميعا من أولاد كورياج. إنه تغير الهيئة الذى قضينا أسبوعين فى تنظيمه. وجوه نضيرة مغسولة غسلا جيدا وطاقيات من المخمل ما زالت لم تفقد بعد ثنياتها على رؤوس الأولاد المحلوقة حديثا، والشىء الرئيسى هو وجوه معدة اعدادا صحيحا مرحة واثقة تبدو عليها الملاحة الآنية للرجل النظيف الذى تخلص من قمله.

تواری فیدورنكو بالهدوء المهيب المعهود فيه وأطلق صوته الأجش بشدة بهذه الكلمات:

ـ يا أنطون سيميونوفيتش تستطيع أن تستقبل الكتيبة الثامنة التابعة لفيدورنكو على أكمل حال وكما هو لائق.

وإلى جانبه كان أوليغ أوغنيف يمط شفتيه الطويلتين ويميل باحتراس:

ـ في تعميد هذه الشعوب قدمت مساعدة حسب قواى. سجل ذلك في أى مكان على لوائحك عوضا من أعمالى الأقل توفيقا.

شددت على كتفى أوليغ لأننى شعرت برغبة لعناقه وعناق فيدورنكو وعناق جميع أولادى الحلوين اللطيفين. إنه لمن العسير أن أسجل أى شئ مهما كان على لوائحى وفى قلبى، وإذا بنفسى يغمرها خليط من الأفكار والاعتبارات والصور وأنغام الرقص. وما كدت أتوصل إلى إدراك شئ من طرف حتى يتوارى وسط الجمهور، ويصبح شئ آخر جديد يلفت بصفاقة إنتباهى. «تعميد وتغيير الهيئة» أخذت أفكر فى هذا فى طريقى. إن

هذه التسميات من الدين. غير أن وجه كوروتكوف الباسم حجب موقتا هذا التخطيط الأصيل. نعم أنا الذى ألح على تسجيل كوروتكوف فى الكتيبة الثامنة. أدرك العبقرى فيدورنكو بسرعة نظرى وهو يقف عند كوروتكوف فضمه من كتفه وقال بارتعاد خفى فى بؤبؤى عينيه الرماديتين:

ــ لقد أعطيت الكتيبة ولدا طيبا يا أنطون سيميونوفيتش. فانه لن يلبث عما قليل أن يصبح قائدا.

نظر إلىّ كوروتكوف نظرة ملؤها الجد والرزانة وقال بلطافة:

ــ أود أن أتحدث معك بعدئذ، ممكن؟

وحدجه فيدورنكو بهيئة تشوبها الخفة والتهكم:

ــ ما أسخفك. لماذا تود أن تحدثه؟ لا حاجة، وما الفائدة من أن تقول له هذا؟

وتأمل كوروتكوف أيضا بانتباه لفيدورنكو الماكر:

ــ هذا... من أجل أمر خاص.

ــ ليس لك أى أمر خاص. كلام فارغ.

ـ أريد أن... أنا أيضا أن يستطاع وضعى فى التوقيف...

ضحك فيدورنكو:

ـ ماذا يطلب... بعد. ما يزال الوقت باكرا على أن تريد ذلك يا صديقي... لأجل هذا لا بد من أن تنال لقب مستوطن فى الاصلاحية والشارة، أرأيت؟ وأنت لا يمكن وضعك فى التوقيف. فقد يقال لك: إلى التوقيف، فتقول «ولماذا؟ لم أصنع شيئا».

ـ واذا لم يكن فعلا مذنبا؟

ـ أرأيت. إنك لا تفهم هذا الأمر. إنك تعتقد أنك لست مذنبا وأن هذا هو الشئ الهام. عندما تحظى بلقب نزيل فى الاصلاحية سوف تفهم بغير هذا الشكل، كيف أقول لك؟.. إن الشئ الهام هو النظام والطاعة، سواء كنت مذنبا أم لا، فليس هذا بالشئ الهام. أليس صحيحا يا أنطون سيميونوفيتش؟

أشرت إليه بالايجاب برأسى. كانت بريجيل تراقبنا كأننا مَرَدَة فى قمقم، وكان خداها قد بدآ يتخذان

اشكالا متورمة. سارعت لتحويل إنتباهها عن هذه الاشياء القبيحة:

ـ وما هذه الجماعة؟ من هذا؟

فقال فيدورنكو:

ـ آه هذا الولد... نشيط. يقال أنهم قد ضربوه ضربا جديا.

ـ نعم، هذه كتيبة زايتشنكو ـ تميزت أنا أيضا.

فسألت بريجيل: ـ من ضربه؟

ـ في الليل ضربوه... الأولاد الذين هم من هنا طبعا.

ـ لأى سبب؟ لماذا لم تبلغوا بذلك؟ منذ وقت طويل كان هذا؟

فقلت بجفاء:

ـ يا فرفارا فيكتوروفنا هنا في كورياج، لم ينقطع تعذيب الأولاد منذ سنوات؛ فالاهتمام الضئيل الذى كنت تعيرينه قد جعلنى أعتقد أن هذا الحادث غير جدير أيضا باهتمامك... وأكثر من ذلك فأنا إهتممت به بشكل خاص.

إعتبرت بريجيل هذا الحديث الجافى دعوة إلى الرحيل. فقالت بجفاف:

ــ الى اللقاء، وإتجهت إلى سيارتها التى كان يبرز منها آنذاك رأس الرفيقة زويا.

تنفست الصعداء ومشيت إلى الكتيبة الثامنة عشرة التابعة لزايتشنكو.

كان فانيا يقودها بنشوة الظفر فقد كنا ألفنا عن عمد الكتيبة الثامنة عشرة من أولاد كورياج فقط مما يضفى على الكتيبة وعلى فانيا أبهة خاصة. كان فانيا يدرك ذلك. وضحك فيدورنكو مقهقها:

ــ أنظروا معى إلى هذا، هؤلاء الصغار المضحكين.

كانت الكتيبة الثامنة عشرة تقترب مزهوة بمشيتها العسكرية. وكان الأولاد العشرون يمشون صفوفا بالرتل الرباعى... بخطى متزنة وأيد تتأرجح كالجنود. كيف كان الوقت لزايتشنكو فى الحصول على هذا النظام العسكرى؟ قررت أن أقدر الروح العسكرية فى الكتيبة الثامنة عشرة فرفعت يدى بالتحية الى حافة قبعتى:

ـ صباح الخير أيها الرفاق!

ولكن الكتيبة الثامنة عشرة ما كانت لتعرف مثل هذه العملية فطفق الأولاد يصيحون بما يخطر ببالهم، ولكن فانيا هز يده بانزعاج:

ـ لا... يا هؤلاء الأوباش.

كان فيدورنكو قد غمرته الفرحة فضرب على ركبتيه:

ـ أنظر إلى هذا، لقد تعلم.

ولكي أحسم الأمر بشكل من الأشكال، قلت:

ـ الكتيبة الثامنة عشرة. راحة. إحكوا كيف إستحممتم؟

فعلت وجه بيوتر ماليكوف إبتسامة مشرقة:

ـ كيف إستحممنا؟ لقد إستحممنا إستحماما جيدا، أليس هذا صحيحا يا تيما؟

إلتفت أوداريوك وقال إلى أحدهم خلسة من وراء كتفه:

ـ بالصابون..

نظر إليّ زايتشنكو نظرة إزدهاء:

ـ الآن سنغتسل على الدوام بالصابون. إن أوداريوك هو وكيلنا، أرأيته؟

وأرى العلبة البنية في يدى رفيقه:

ـ لقد إستهلكنا اليوم قطعتين كاملتين. ولكن هذه أول مرة وبعدئذ سيكون أقل. هناك سؤال. لعلك تعرفه... لا صياح طبعا. وسأل أتباعه: أليس حقا أنه: لا صياح.

فقال فيدورنكو مبتهجا: آه يا صديقى يا لهم من صغار لعينين.

فصاح الصغار: ـ نحن لا. نصيح. لا، لا نصيح.

إلتفت فانيا عدة مرات إلى كل جانب:

ـ ولكن هناك سؤال أتعرفه؟

ـ جيدا أعرف: إنكم لا تصيحون واكن لكم سؤال تودون طرحه.

مط فانيا شفتيه ودار بعينيه:

ـ تماما. نريد أن نعرف: فى سائر الكتائب يوجد أولاد قدماء من اصلاحية غوركى، ثلاثة هنا وخمسة

هناك. أليس كذلك؟ وفي كتيبتنا ما من واحد منهم. هذا كل شئ.

ولدى لفظه «ما من واحد منهم» إرتفع صوته إرتفاعا بارزا تصحبه حركة جميلة من إصبعه الذى رفعه إلى أذنه اليمنى ثم إمتد جانبا.

وفجأة رنت ضحكته:

ـ ليس لدينا أغطية، لا يوجد منها شئ، وهذا كل شئ. والفرش لا شئ منها لا يوجد منها شئ.

إرتفعت ضحكة فانيا بشكل أشد مرحا وطفقت الكتيبة الثامنة عشرة تضحك أيضا.

كتبت لقائدهم كلمة إلى آليوشا فولكوف: ينبغى تسليمه فورا ستة لحف وستة فرش.

وعلى طريق النهر بدأت حركة كبيرة. كانت الكتائب تمشى عليه كما في التدريب.

ووراء الاصطبل بين غيضة الأعشاب الضارة إستقر أربعة حلاقين جاءوا من المدينة. كانت قشرة كورياج تنفصل قطعا قطعا عن عضوية أهلها، مؤكدة وجهة نظرى

الثابتة: من أنهم أولاد عاديون نشيطون رشيقون وبشكل عام «أنهم شعب مرح».

ورأيت مدى الفرحة الصادقة للاولاد الذين كانوا يتفحصون بزتهم الجديدة ومدى تظرفهم غير المتوقع الذى كانوا يرتبون به ثنيات قميصهم ويقلبون بأيديهم قبعتهم المبرقشة. كان الذكى آليوشا فولكوف وهو يعمل فى غمرة هذا التوزيع بشكل لا ينتهى من الأشياء المعروضة من كل نوع حول الكنيسة، قد جلب بادئ ذى بدء إلى السطح مرآتنا الوحيدة التى نصبها فى مكان بارز على مرتفع صغير ولدان من الاصلاحية. فكان يتشكل حولها على الفور جمهور من الهواة الراغبين فى تأمل صورتهم بالمرآة والتملى من حسنها. كان فى كورياج عدد كبير من الصبيان الجميلين وكان ينبغى للآخرين أن يتجملوا فى أقرب مهلة. لأن الجمال هو وظيفة العمل والغذاء.

كانت البهجة على أتمها لدى الفتيات. كانت فتياتنا قد جلبن إلى رفيقاتهن فى كورياج حلى جميلة صنعت خصيصا لهن: وهى عبارة عن تنورة صغيرة زرقاء ذات

ثنايا كبيرة، وقميص أبيض من قماش جميل، وجوارب زرقاء وأحذية رياضية. كان كودلاتى قد سمح لكتيبة الفتيات أن يحملن آلات الخياطة إلى المهجع حيث إبتدأ صخب النسوة الخالد: تفصيل وقياس وكوى... وكنا قد تركنا غرفة الغسيل لهذا اليوم تحت تصرفهن الكامل. وحينما إلتقيت ببيريتز قلت له بجفاء:

ــ إلبس بدلة العمل وإذهب وإشعل القازان للفتيات. ولكن من فضلك يجب أن تستعجل: رجل هنا وأخرى هناك.

مد بيريتز إلىّ وجهه المغطى بالخدوش وقال لى وإصبعه مشيرة إلى صدره:

ــ أنا... يجب أن أسخن الماء للفتيات؟

ــ نعم.

فدفع كرشه الى الأمام ونفخ خديه وصاح بصوت عال دوى فى أرجاء الدير وأدى التحية العسكرية:

ــ أسخن الماء. سمعا وطاعة.

كان فيه نشاط على الرغم من بلاهته، إلا أنه بعد هذه المراسم إتخذ بيريتز فجأة هيئة مغمومة:

— طيب ولكن من أين سآخذ بدلة العمل؟ إن كتيبتنا التاسعة لم تحظ بشئ من ذلك.

قلت له:

— إسمع يا صغيرى. هل يجب أن آخذك من يدك وأقودك لتغير ثوبك؟ وفضلا عن ذلك كم ستبقى تحرك لسانك؟

أخذ الأولاد يضحكون حوله. وهز بيريتز رأسه وصاح دونما اية أبهة:

— سأسخنه... سأسخنه، كن مطمئن البال.

وهرب.

عاد لابوت وقرع جرس إجتماع القادة، ولكن الاجتماع كان ينعقد هذه المرة عند المدخل الذى أقامت كتيبة غود مهجعها فيه.

قال لابوت وهو واقف عند المدخل:

— أيها القادة. لن نجلس، فان إجتماعنا لا يطول

اكثر من لحظة. أرجو أن تشرحوا اليوم لأ ولادكم كيفية مسح الأ نف والمخط. ما هذا؟ إنهم يجوبون الباحة كلها وأنوفهم تسيل بغزارة. ثم هناك شئ آخر: حدثوهم حول موضوع المراحيض، وهذا ما قاله جوركا في الاجتماع. وبعدئذ إن آليوشا قد أحسن في وضع صناديق الأ قذار، ولكنهم يرمونها دونما إهتمام بالمكان.

ـ فابتسم فيتكوفسكي قائلا: ـ لا تستعجل. لا بد في أول الأمر من نزع كومة كاملة من الأقذار فما شأن الصناديق إ ذن؟

ـ دع هذا يا كوستيا. نزع الأقذار شئ والنظام شئ آخر.. آه وتعتبر من السياح! ثم لا تنسوا أن يعرف الجميع قاعدتنا وإلا فانهم سيأتون ليقولوا بعدئذ: «ما كنا نعرف. من أين كنا نعرف؟...»

ـ أية قاعدة؟

ـ قاعدتنا بشأن البصاق... كرروا جميعا بصوت واحد.

وبينما كان لابوت يدير بيده، كان القادة يصيحون بصوت واحد ضاحكين:

ـ «جزاء البصقة غسل ثلاثة أيام».

أما صغار كورياج المتفرجون الذين كانوا يتتبعون بملء أعينهم وآذانهم طقوس مجلس القادة بالقشعريرة القدسية التى تنتاب الداخل حديثا فى مذهب الماسونية، فأطلقوا صيحات الاستغراب: أوه! وغطوا أفواههم براحة يدهم. إختتم لابوت الاجتماع وركض الأولاد لينشروا الشعار الجديد فى مآوى الكتائب الموقتة. لقد نقلوه حتى إلى خالابودا الذى برز فجأة لعينى من زريبة الأبقار وقد غشاه الغبار والتبن فقال بصوت داو:

ـ أولاء النسوة الملعونات تركننى، فلا بد لى الآن من الذهاب سعيا على قدمى إلى المحطة. نعم جزاء البصقة غسل مكانها ثلاث مرات. شئ بديع!.. يا فيتيا أشفق على رجل عجوز، أنت هنا رئيس الخيل جهز لى برذونا أيا كان وخذنى الى المحطة.

نظر فيتيا إلى براتشكنو الجليل الذى كان يستطيع أن يطريه بصوت عميق:

ـ برذونا كيفما كان. جهز الجواد «الصبى» وكدنه وخذ الرجل العجوز الذى نظف زوركا اليوم. دعنى الآن أنظفك قليلا بالفرشاة.

جاءنى تارانتز وهو مضطرب، كانت شارة ساعده تشير إلى أنه المناوب اليوم:

ـ يوجد... هؤلاء الذين يسمون المهندسين الزراعيين والذين يعيشون هناك... لقد رفضوا أن يخلوا المهاجع، وقالوا: نحن لسنا من أية كتيبة.

ـ أماكنهم نظيفة على ما يبدو؟

ـ لقد جئت إليها، وفتشت الأسرة والباقى... كومة من الشراطيط تتدلى وكثير من القمل والفسفس.

ـ هيا لنرى.

كانت الفوضى تعم حجرة المهندسين الزراعيين، وإن المرء ليرى أنها لم ترتب منذ عهد سحيق. كان فوسكوبوينيكوف الذى عين قائدا لكتيبة خدمة الأبقار

وكذلك آخران دخلا فى كتيبته قد انصاع لهذا القرار :
فأعطوا ثيابهم للتطهير ومضوا تاركين فى مأوى المهندسين الزراعيين حفرا فاغرة والحطام المشتت والبقايا من الحضر المهجور. كان فى الحجرة بعضهم فاستقبلونى إستقبالا متجهما. ولكن بما أننا ــ أنا وهم ــ كنا نعرف من أى جهة كان الظفر، فما كان لأمر إلا بصدد شكل الاستسلام.

فسألت :

ــ ألا تريدون أن تطيعوا قرار الاجتماع العام؟

فسكتوا.

ــ هل حضرتم الاجتماع؟

فاستمروا فى السكوت. وأجاب تارانتز:

ــ لم يحضروا.

ــ لقد تركت لكم وقتا كافيا للتفكير و التقرير. هل تعتبرون أنفسكم أولادا فى الاصلاحية أم مستأجرين؟

فاستمر الصمت.

ــ إذا كنتم مستأجرين فلا أستطيع أن أسمح لكم

بسكنى هذه الحجرة أكثر من عشرة أيام ولن أقدم إليكم الغذاء.

فقال سفاتكو: — ومن إذن سيقدم؟

فابتسم تارانتز وقال:

— إنهم مدهشون.

فقلت: — لا أعرف، أما أنا فلن أقدم.

— ولن تقدم إلينا طعاما اليوم؟

— لا.

— هل يحق لك ذلك؟

— نعم يحق لى.

— وإذا إشتغلنا؟

— نزلاء الاصلاحية فقط ينبغى لهم أن يعملوا هنا.

— سنكون نزلاء، ولكن فقط سوف نبقى فى هذه الحجرة.

— لا.

— إذن ماذا سنعمل؟

نظرت إلى ساعتى.

– لديكم خمس دقائق للتفكير. بلغوا ما تقررونه إلى الشخص المناوب.

فقال تارانتز: – سمعا!

وبعد نصف ساعة مررت مرة ثانية تحت جدران جناح المهندسين الزراعيين، وكان آليوشا فولكوف يقفل الباب، وبرز تارانتز هنا بصفته مناوبا:

– هل أخلوا المكان؟

فقال تارانتز ضاحكا: – نعم!

– هل وزعوا على مختلف الكتائب؟

– نعم! واحد فى كل كتيبة.

وبعد ساعة ونصف، جرت الوليمة على موائد الاحتفال الملبسة بأغطية بيضاء فى المطعم الذى قامت الكتيبة المختلطة الطليعية منذ ما قبل الفجر فرتبته وزينته بالأغصان والأزهار وعلق آليوشا فولكوف على جدرانه عقب وصوله فورا، صور لينين وستالين وفوروشيلوف وغوركى وعلق توسكا شيلابوتين تحت السقف الشعارات

وعبارات الترحيب ومن بين الشعارات كان يبرز على غير إنتظار:

بدون صياح!

كان أولاد كورياج قد سحقوا سحقا، واجتثت عوائدهم، ومروا على آلة الحلاقة وتغسلوا وارتدوا قمصانا بيضاء جديدة فأصبحوا ضمن إطارات أنيقة دقيقة من أولاد غوركي وما عاد في وسعهم أن يفلتوا منها. جلسوا هادئين إلى الموائد وأيديهم على ركبهم يتأملون باحترام عميق قطع الخبز في الصحون وأباريق الماء الزجاجية الشفافة.

كانت الفتيات يرتدين مرايل بيضاء، ووقف جيفيلي وشيلابوتين وبيلوخين بقمصان بيضاء ينتقلون بدون ضوضاء ويتبادلون الحديث همسا ويصححون وضع الشوكات والسكاكين ويضيفون شيئاما ويفسحون مكانا لأحد الأشخاص. كان أولاد كورياج يطيعونهم باستسلام شأنهم في ذلك شأن المرضى في دور العلاج، وكان بيلوخين يعينهم كأنهم مرضى ويقدم لهم المساعدة.

كنت واقفا في الفسحة الخالية تحت الصور أجول ببصري في جنة المطعم التي برزت بمعجزة غير منتظرة في صحراء الدير العفنة. كان الصمت يسود فيها فيطرق السمع إلا أنه على الوجنات المتوردة وفي العيون البارقة كان اللطف الذي شابه الاضطراب ينعكس كحقيقة أكيدة كأنه سر ميلاد الجديد.

وفي غمرة الصمت نفسه وبدون أن يكاد يستبين دخل عازفو الأبواق والطبول في صف منتظم وتبادلوا النظرات خلسة وإحمروا بهيئة مهمومة وإصطفوا على الجدار. لم يرهم الجميع إلا الآن فاتجهت إليهم الأبصار لا تحيد عنهم ونسوا الأكل.

برز تارانتز عند المدخل:

— إلى العلم. قيام!

إنتصب أولاد غوركي مهتيئين التهيؤ المعتاد؛ فتملكت أولاد كورياج الدهشة من هذا الأمر فلم يكن الوقت تقريبا ليلتفتوا ويضعوا أيديهم على خشب طاولاتهم، حتى صعقوا من هدير جوقتنا القوية مرة ثانية.

أدخل تارانتز العلم مشرعا وجعل ثنيات حريره القانى تلمع لمعانا متموجا. وقف العلم أمام الصور مضفيا على المطعم رونق الأبهة السوفييتية.

ـ جلوس.

ألقيت على الأولاد حديثا موجزا دونما إشارة فى هذه المرة إلى العمل ولا إلى النظام، ولم أوجه إليهم فيه أى نداء ولم أبد أى شك. وإنما هنأتهم مجرد تهنئة بحياتهم الجديدة وعبرت لهم عن اعتقادى بأن هذه الحياة ستكون جملية كما يمكن أن تكون عليه الحياة الانسانية.

قلت لهم:

ـ سوف نحيا حياة جميلة سعيدة عاقلة لأننا بشر ولأن لنا فوق أكتافنا رءوسا ولأننا نريدها هكذا. ومن يستطيع أن يعوقنا عن ذلك؟ ما من أحد هناك يستطيع أن ينتزع منا عملنا ومكاسبنا. وأمثال هؤلاء الناس لا يوجدون فى الاتحاد السوفييتي وأنظروا إلى الناس الذين حولكم. أنظروا، عامل قديم نصير الرفيق خالابودا قد أمضى اليوم نهاره كله بينكم، وقد دفع القطار معكم

وفرغ عربات القطار ونظف الخيل. من العسير إحصاء عدد الناس الطيبين من رجالنا الكبار ورؤسائنا ورفاقنا البلاشفة الذين يفكرون فينا ويودون مساعدتنا. إنتبهوا، أريد أن أقرأ عليكم الآن رسالتين وسوف ترون أننا لسنا وحيدين سوف ترون أن الناس يحبونكم ويهتمون بكم:

رسالة من مكسيم غوركي إلى رئيس اللجنة التنفيذية فى خاركوف

أرجو أن تسمح لى بأن أشكرك من كل قلبى على الاهتمام والمساعدة الطيبة التى قدمتها إلى إصلاحية غوركي.

أنا ما زلت لا أعرف الاصلاحية إلا عن طريق مراسلتى مع الأولاد ومع مديرهم. إنه ليبدو لى أنها تستحق اهتماما جليلا ومساعدة فعالة.

إن نزغة الجريمة تزداد ازديادا لا إنقطاع فيه بين الأطفال المشردين. وإلى جانب البذور الصحيحة الرائعة

ينمو كثير من الزؤان. إننا نأمل أن يكون العمل في الاصلاحيات التي على شاكلة هذه الاصلاحية التي تقدمون إليها المساعدة، هو في سبيله إلى كشف طريق النضال ضد الفساد كي ينتزع الخير من براثن الشر.

أصافحك بحرارة أيها الرفيق وأتمنى لك صحة جيدة وشجاعة نفسية ونجاحا موفقا في عملك الشاق.

م. غوركي

جواب اللجنة التنفيذية في خاركوف على رسالة مكسيم غوركي

أيها الرفيق العزيز! إن رئاسة اللجنة التنفيذية في منطقة خاركوف ترجوك أن تقبل عرفانها الجميل وشكرها على اهتمامك باصلاحية الأطفال التي تحمل اسمك.

إن مسائل النضال ضد شرود الطفولة وضد نزعة الجريمة في صفوف القاصرين، تسترعي بشكل خاص إهتمامنا، وتستحثنا على إتخاذ التدابير الجدية لتأمين تربية هؤلاء الأولاد وتلاؤمهم حياة صحيحة كادحة.

إنها ــ حقا ــ لمهمة شاقة لا يمكن أن تتم فى مدى مهلة وجيزة، ولكننا فى غمار سعينا سعيا جادا لحلها.

إن رئاسة اللجنة التنفيذية لعلى قناعة بأن الاصلاحية ستصلح عملها إصلاحا عاما فى الشروط الجديدة، وأنها ستوسع حقله وسوف ترقى ذروة الرفعة التى تناسب الاصلاحية التى تحمل اسمك بفضل الجهد المشترك الجماعى.

إسمح لنا أيها الرفيق العزيز أن نعرب لك عن أمنياتنا من صميم قلبنا باستعادة قواك وعافيتك كى تواصل نشاطك الخيّر وتنشئ الاعمال الجديدة.

كنت أرقب وجوه الأطفال من فوق حافة الورقة وأنا أقرأ هاتين الرسالتين. كانوا يصغون إلىّ وروحهم كلها قد تركزت فى عيونهم المندهشة المرحة ومع ذلك كانت عاجزة عن أن تلم بهذا السر كله وباتساع عالم جديد. كان كثير منهم يقتربون منى بوجوههم وهم ينهضون عن المائدة ويتكئون على مرافقهم. كان طلابنا يبتسمون حالمين وهم وقوف وظهورهم إلى الجدار، وكانت الفتيات قد أخذن

يكفكفن عيونهن ترمقهن أبصار أولاد فيهم الرجولة.
وكان كوروتكوف جالسا إلى المائدة فى الطرف الايمن يتأمل وهو يقطب حاجبيه الجميلين وكان خوفراخ ينظر من النافذة وهو منقبض حزين يبدو عليه الألم.

إنتهيت من القراءة. فكانت أمواج الحركة والكلام تجتاح الموائد كلها حينما رفع كارابانوف يده:

ـ هل تعرفون؟ عم يراد الحديث الآن؟ .. يجب النشيد... وليس الكلام. هيا سننشد هكذا حقا... نشيد «الانترناسيونال».

أخذ الاولاد يطلقون الصيحات ويضحكون غير أنني وجدت أن الكثير من أولاد كورياج الذين كانوا مضطربين قد سكتوا. فخمنت أنهم ما كانوا يعرفون كلمات نشيد «الانترناسيونال».

صعد لابوت على المقعد:

ـ أيتها الفتيات هيا فلنسمعكن!

وحرك يده وشرعنا ننشد.

ربما لأن كل بيت من نشيد «الانترناسيونال» كان

آنذاك قريبا من حياتنا جدا كلنا ننشده بمرح باسمين.
كان الصبيان يرقبون لابوت من طرف عيونهم مقلدين بشكل عفوى حركات وجهه الحماسية الحية التى تعبر عن جميع الأفكار الانسانية. وحينما أنشدنا:

لقد دوى صوت النفير...
فهذا هو النضال الاخير
وسوف تعطينا الأممية
جميع حقوقنا!

أشار لابوت بحركة معبرة إلى أبواقنا التى كانت أصواتها تضفى على الجوقة نغما جميلا.

عندما إنتهى هذا، هز ماتفى بيلوخين منديلا أبيض وصاح بصوت داوٍ من جانب المطابخ:

فليقدم الأوز والبط وشراب العسل، والفودكا مع المقبلات، والمثلجات بوفرة!

ضحك الصبيان وقهقهوا وهم ينظرون إلى ماتفى بأبصار مستثارة، ورد عليهم وفمه يفتر عن امتعاضة مازحة، كابحا صوته الداوى:

ــ لم تجلب الفودكا ولا المقبلات ايها الرفاق الاعزاء، ولكن المرطبات هنا، كلام شرف، والآن تناولوا حساء البورش!

وطافت المطعم إبتسامات طيبة ودية، وبيما كنت أرقبها، لمحت فجأة عينى جورينسكايا الكبيرتين المحدقتين، ووراء كتفها كانت تبدو هيئة يوريبف وهو باسم. فأسرعت إليهما.

مدت إليّ جورينسكايا يدها وهى سادرة كأنما لم تكن لديها القدرة على أن تحيد ببصرها عن صفوف الرؤوس الحليقة والأكتاف المسكوة بالقمصان البيض والابتسامات الودية:

ــ ماذا أقول يا أنطون سيميونوفيتش؟.. إنتظرا ولكن لا! كانت شفتاها ترتجفان ــ هؤلاء هم كلهم أولادك؟ وأولاد كورياج... أين هم؟ هيا إحك لى ما يحدث عندكم؟

ــ ما يحدث؟ لا أدرى ما يحدث هنا... هذا يسمى ــ على ما يبدو ــ تغيير الهيئة وفضلا عن ذلك... هؤلاء كلهم أولادنا.

١٠. فى أسفل سفح الأولمب

كان شهرا أيار وحزيران مثقلين بالعمل بشكل لا يطاق. ولا أريد الآن أن أتحدث عن هذا العمل بعبارات حماسية.

ولتصور العمل بشكل رزين هادئ لا يسع المرء أن يعفى نفسه من الاعتراف بأنه كان هناك أعمال كثيرة شاقة كريهة لا مصلحة فيها، وأن كثيرا غيرها كان يتطلب صبرا عظيما وتعودا على التغلب على الاحساسات المضنية الأليمة فى الجسم ، كان عدد كبير ممكنا وذلك لأن الانسان تعلم الألم والجلد.

إن الناس قد إعتادوا منذ عهد سحيق أن يتغلبوا على مشقة الجهد والنفور الجسمانى الذى يوحيه لهم، إلا أن الدوافع التى أدت اليه ما زالت لم ترضنا الآن. لقد تساهلنا الآن مع بعض دوافع الرضى الشخصى والرفاه الفردى وذلك بسبب الاذعان تجاه الضعف البشرى، ولكننا حاولنا محاولة دائبة أن نربى دوافع

المصلحة الجماعية. ومع هذا فإن كثيرا من هذه المشاكل التى ظهرت فى هذا المضمار كانت متشابكة جدا فكان لا بد من حلها فى كورياج دونما مساعدة خارجية تقريبا.

سيحدث فى يوم من الأيام أن تربية حقيقية تضع هذه المسألة موضع التحقيق وتفسر آلية الجهد البشرى وتبين أى موضع يعود فيها للارادة ولحب الذات، ولشعور المنافسة والخجل والايحاء والخوف وبأى طريقة يتركب كل هذا مع الظواهر التى تنبعث من الضمير المجرد والاعتقاد والعقل. إن تجربتى مع غيرها من التجارب تؤكد تأكيدا قاطعا أن المسافة بين عناصر الضمير المجرد والمجهودات العضلية المباشرة هى جليلة القدر بشكل وافٍ بحيث إنه من الضرورى إطلاقا أن تكون مترابطة بسلسلة من أكثر العناصر بساطة وأكثرها مادية.

إن مسألة الضمير كانت تلقت حلا موفقا جدا فى يوم وصول الأولاد إلى كورياج. وإن جمهرة كورياج كانت خلال يوم واحد قد وضعت موضع التأكد بأن

الكتائب بمجيئها قد جلبت حياة أفضل وأنها ـ أى جمهرة كورياج ـ قد انضمت إلى أناس مجربين أثرياء وأنه لا بد من السعى مع هؤلاء الناس. وإن العامل الحاسم هنا ما كان إعتبارات الامتياز، فلا ريب أنة حدث ايحاء جماعى: ولم تكن الحسابات هى التى تقرر بل العيون والآذان والأصوات والضحك. وعلى كل حال فإن اليوم الأول كانت نتيجته أنه أوحى إلى أولاد كورياج بالرغبة رغبة حازمة بالاشتراك فى مجتمع غوركى ـ وما كان هذا إلا لأنه كان مجتمعا ولذة لم يتذوقوها فى حياتهم أبدا.

غير أننى لم أظفر بغير الضمير، وهذا شئ ضئيل جدا. إن هذا الأمر قد تجلى فى اليوم التالى بكل تعقده. فمنذ المساء كانت الكتيبة المختلطة قد تشكلت لأجل مختلف الأعمال التى أشار إليها نداء الشبيبة الشيوعية، مخصصة بجميع المربين تقريبا أو أولاد غوركى. وعلى الرغم من أن جميع أمزجة أولاد كورياج كانت منذ الصباح جميلة فقد ظهر الى منتصف النهار ظهر أن العمل

يسير سيرا سيئا جدا. فقد كان هناك كثير من الأولاد لم يعودوا بعد الغذاء إلى العمل وإختبأوا بينما كان هناك قسم فر إلى المدينة وريجوف بحكم العادة.

قمت بجولة بنفسى على جميع الكتائب المختلطة. صورة واحدة، كانت كمية بذور غوركى تبدو فى كل مجال تافهة لا معنى لها، فقد كانت غالبية عناصر كورياج تبرز إلى العين بوضوح، وقد كان يدعو إلى الخوف أن أسلوب عمل كورياج سيظفر ناهيك عن أنه كان يوجد كثير من الجدد بين أولاد غوركى، ثم إن بعضا من أولادنا القدماء فى انحلالهم فى سائل كورياج الفاتر، كانوا ينذرون ببساطة بتلاشيهم كقوة فعالة.

وكان شيئا خطرا أن نعمد إلى تدابير نظام خارجى تأثيره شديد جدا وواضح كل الوضوح فى جماعة متماسكة متلاحمة. لقد كان عدد منتهكى حرمة النظام وفيرا جدا، وكان الاهتمام بهم أمرا معقدا يتطلب وقتا طويلا ولا يكون له أثر صحيح ناجع إلا حينما تكون

نتيجته فصل المذنب عن صفوف الجماعة وذلك بالتأكيد الراسخ لحكم الرأى العام. وعلينا أن نضيف إلى ذلك أن التدابير الخارجية تعمل بأضعف ما يمكن فى حقل تنظيم الجهد العضلى.

ما كانت تعزى النفس أمثال هذه الاعتبارات إلا لمن نزر قليل من التجربة: إن الصبيان ما اعتادوا على الجهد الجسمانى وليست لديهم «المهارة» ولا يعرفون كيفية العمل. وليست لديهم العادة بالأخذ بزمام إتزان عمل رفاقهم، كان ينقصهم هذا الزهو العمالى الذى يمتاز دائما به الفرد الاجتماعى، وكل هذا ما كان فى الامكان أن يتكون فى يوم واحد، فلا بد له من وقت! وما كنت أستطيع مع الأسف أن أتمسك بهذا النوع من العزاء. وبهذا الشكل إستشعرت بقانون معروف لدىّ جيدا: ففى مضمار التربية لا توجد علائق ذات تبعية يسيرة، وهنا أقل مما فى أى مكان آخر ما كان الاندفاع الاستنتاجى الوجيز فى وسعه أن يقبل صيغة الجدل المنطقى.

على هذه الحال كانت الأمور فى كورياج فى شهر أيار، عند التطور التدريجى البطئ للجهد الكادح تهدد بفرض الاسلوب العام للعمل المعبر عنه فى معدلات وسطية، وبتصفية المرونة، وهى الشكل السريع الدقيق للعمل الخاص بأولاد غوركى.

كان مضمار الأسلوب والوتيرة لا يزال مجهولا من قبل «النظرية» التربوية، وهذا مع ذلك أهم جزء فى التربية الجماعية وأكثره جوهرية. إن الأسلوب هو أدق شئ ويفسد بأسرع وقت، فتجب مراعاته والسهر عليه كل يوم فهو يتطلب العناية والرعاية الشديدة كمسكبة من الأزهار. إن الأسلوب يتكون تكونا بطيئا لأنه لا سبيل إلى إدراكه بدون تقاليد، أى بدون مبادئ وعادات يكتسبها لا الضمير المجرد، ولكن من طريق الاحترام الواعى لتجربة الأجيال القديمة والسلطة العظمى لكل المجتمع الذى مضى على وجوده بعض الوقت. إن فشل كثير من مؤسسات الأولاد ناجم من أنه لم يتكون لديها أسلوب، ولم تتكون عادات وتقاليد، وإذا ابتدأت بالتكون

فإن مفتشى التعليم العام كانوا يقوضونها تقويضا منتظما بفضل بترهم الدائم، مدفوعين بأحسن الاعتبارات مع ذلك. وبفضل ذلك فإن «صبيان» التربية الاجتماعية كانوا يعيشون دائما دونما أدنى دليل على وجود عادة «مزمنة» فحسب بل حتى عادة قديمة مر على قدمها عام واحد.

إن ضمير أولاد كورياج المقهور قد أتاح لى أن أقيم علاقاتى معهم على أكثر الأسس مودة وثقة؛ بيد أن هذا كان ضئيلا. فلأجل أن أظفر بالنصر الحقيقى كان التكنيك التربوى ضروريا لى منذ هذا اليوم فصاعدا، وفى حقل هذا التكنيك وجدت نفسى وحيدا مثلما كنت فى عام ١٩٢٠ ولكن لم أعد جاهلا جهلا مضحكا كذلك الحين. هذه الوحدة ينبغى لها أن تدرك فى معنى خاص. ففى وسط مجتمع المربين كما في مجتمع الأولاد كان لدىّ آنذاك ملاك من المعاونين الذين أتصرف بهم فكان فى إمكانى أن أقوم بأعقد العمليات بجرأة وإقدام. ولكن هذا كله كان على الأرض.

أما في السماوات، وعلى مقربة منها، على ذرى «الأوليمب» التربوى فقد كان كل تكنيك تربوى في حقل التربية بمعناها الصحيح شيئا من قبيل الهرطقة والضلال.

وفي «السماوات» كان الصبي يعتبر مخلوقا مملوءا بغاز مركب لم يخترع له إسم. وكان الأمر على الدوام يستهدف هذه الروح نفسها ذات الطراز العتيق والتى يجرب عليها الأحبار. كانوا يفترضون (فرضية عمل) أن هذا الغاز يمتلك قابلية تطور ذاتى وأنه يكفى أن لا يعرقل سبيله. وكتبت كتب كثيرة في هذا الموضوع بيد أنها في الواقع كانت تردد جميعها مبادئ روسو:

«عامل الطفل باجلال....»

«حذار أن تعرقل سبيل الطبيعة...»

كانت العقيدة الأساسية لهذا الدين تتألف من هذا الأمر وهو: أنه ينبغى للشخصية الشيوعية أن تنمو بشكل إلزامى في هذه الشروط المنوه عنها من الاجلال والتقدير تجاه الطبيعة ومن ذلك الغاز المذكور آنفا. وفي الواقع

فى حالة الطبيعة الصرف ما كان ينبت سوى ما يمكن أن ينبت بشكل طبيعى أى أعشاب الحقول الضارة العادية بيد أن هذا ما كان ليثير إضطرابات أحد لأن المبادئ والأفكار كانت عزيزة على أهل السماء. كانت إعترافاتى بشأن الوضع المخالف للأعشاب الضارة كما كانت تدعى هكذا فى تعابير مشاريع الشخصية الشيوعية، أقول كانت تنعت هذه الاعترافات بالذرائعية المبتذلة وحينما كان يراد الأشارة إلى حالى بعبارة موجزة، كان يقال:

إن ماكارنكو رجل عملى حسن ، ولكنه ضعيف جدا فى حقل النظرية.

كانوا يتكلمون أيضا عن النظام. إن الأساس النظرى فى هذه المسألة كان مؤلفا من كلمتين كثيرا ما يجدها المرء عند لينين: «النظام الواعى». إن هاتين الكلمتين لكل رجل ذى حس سليم تشتملان على حقيقة بسيطة ومفهومة وضرورية عمليا: إن النظام ينبغى أن يصحبه فهم ضرورته وفائدته ووجوبه ومعناه الطبقى. وفى النظرية التربوية كان الأمر على خلاف ذلك. فالنظام

كان ينبغي أن لا يتولد من التجربة الاجتماعية ولا النشاط العملي لجماعة أخوية بل من الضمير المجرد، ومن إعتقاد فكري عار تماما، ومن الأرواح الحيوانية، ومن الأفكار. ثم كان النظريون يتجاوزون السبيل ويقررون أن «النظام الواعي» لا قيمة له البتة إذا كان يتكون تحت تأثير الكبار اليافعين. ولن يكون حينذاك نظاما واعيا حقا بل تنشئة جامدة. كان ذلك فعلا قسرا للأرواح الحيوانية. وإن الذى كان يلزم ما كان النظام الواعى بل «النظام الذاتى» وبنفس الطريقة تماما كان كل تنظيم للأولاد غير مجاٍ وخطرا، ولكن الشئ الضرورى هو «التنظيم الذاتى».

وعندما بلغت مأواى المهجور أخذت أفكر. كنت أحاكم فى فكرى على هذه الشاكلة: نحن نعرف جميعا كل المعرفة أى إنسان يجب أن نربى، كل عامل مثقف واعٍ يعرفه، كما يعرفه أفضل معرفة كل عضو فى الحزب. وبالنتيجة ما كانت الصعوبة تكمن فى مسألة ما يجب عمله بل كيفية عمله. وهكذا فان هذه مسألة من تكنيك التربية.

إن التكنيك لا يمكن أن يستقى إلا من التجربة. إن قوانين قطع المعادن ما كان لها أن توجد لو أنه ما من أحد قطع المعادن فى التجربة الانسانية. إن التجربة التكنيكية وحدها هى التى تجعل الاختراع والاتقان والاصطفاء والنبذ أمورا ممكنة.

إن إنتاجنا التربوى لم ينظم وفق منطق التكنولوجيا بل وفق منطق الوعظ الاخلاقى. إن هذا بارز بشكل خاص فى حقل التربية ذاتها وربما هو أقل بروزا نوعا ما فى العمل المدرسى.

وسبب ذلك أن جميع أقسام الانتاج الرئيسية كانت تنقصنا وهى: تطور التكنولوجيا وحساب العمليات ومكاتب التصميم وإستعمال السائقين والأجهزة المساعدة وتوزيع العمل والمراقبة والتساهلات والنبذ.

حينما كنت أتفوه بحياء بامثال هذه التعابير فى أسفل «الاوليمب» كانت الآلهة ترمينى بحجارة من سجيل وتصيح بالنظرية الآلية!

بيد أننى كنت كلما إزددت تفكيرا فيها وجدت

بازدياد تجانسها بين تطورات التربية وبين التطورات المعتادة فى الانتاج المادى ولم يكن هناك شئ من الآلية فى هذا التجانس. كانت الشخصية الانسانية فى كل تعقدها وغناها وجمالها تبقى ماثلة لعينىّ بيد أنه كان يبدو لى أنه لهذا السبب تماما كان من المناسب أن نباشر بها بأدوات أدق قياسا وبطريقة أكثر جدية وعلمية لا فى حالة مظلمة من التملك الهيسترى المبتذل، وما كان التجانس العميق بين الانتاج والتربية يسئ الى الفكرة التى كنت أكونها عن الانسان بل كان يوحى إلىّ على العكس باحترام خاص له لأنه كان من المستحيل أن لا يكون هناك إحترام لآلة معقدة ومصنوعة صنعا جيدا.

كان من الواضح على كل حال بالنسبة لى، أن عددا كبيرا من قطع الشخصية والسلوك الانسانى يمكنه أن يكون مصنوعا فى المكبس بمجرد رسمه حسب القياس، ولكن هذا كان يقضى عملا دقيقا بشكل خاص من المكابس المنوه عنها والتى تتطلب إحتراسا ودقة بالغة. وهناك قطع أخرى كانت تستدعى على العكس صنعا

فرديا من قبل عامل ذى كفاءة عالية، فيكون رجلا ذا يد صناع وعين سديدة الرؤية. وكان ضروريا لعدد من الآخرين اللجوء إلى أدوات خاصة معقدة تتطلب مهارة فائقة وحتى خفقة من جناح العبقرية. على أنه كان يلزم علم خاص للجميع مثلما يلزم ذلك للعمل الكامل للمربى. لماذا فى معاهد التعليم التكنيكى العالى ندرس مقاومة المواد، ولا ندرس فى المعاهد التربوية العالية مقاومة الشخصية حينما نبدأ بتربيتها؟ وليس سرا على أحد أن هذه المقاومة موجودة. لماذا لا يوجد عندنا ـ مثلا ـ مصلحة للمراقبة تستطيع أن تقول الى صناع الذئاب التربوية:

ـ لديكم تسعون فى المئة من النفايات يا أصدقائى إنكم لا تخرجون لنا الشخصية الشيوعية بل تقدمون مجرد التشويه والحثالة وبذرة السكارى والكسالى والمنتفعين. فلتتلطفوا وتعيدوا رواتبكم التى أخذتموها أجرا على ذلك.

لماذا لا يوجد عندنا أى علم لمادتنا الأولية؟ وكيف يحدث أنه ما من أحد يعرف ماذا يصنع من هذه المادة: علبة ثقاب او طيارة؟

ومن قمة اوليمب علماء المكاتب لا يميز المرء أى قسم او جزء للعمل. ومن هناك من الأعلى يرى المرء فقط البحر اللجى للأطفال الذين لا شخصية لهم، وبين جدران المكتب ينتصب نموذج الطفل المجرد مصنوعا من أخف المواد: أفكار واوراق طباعة وأحلام على غرار مانيلوف (٧) وحينما يأتى سكان الأوليمب لمقابلتى فى الاصلاحية لا تنفتح أعينهم ولا يبدو مجتمع الأطفال الحى لهم كحادث جديد يوقظ قبل كل شئ إهتمام التكنيك. على أننى ما كنت أستطيع أن أدع نفسى تتلهى بشئ من تفاهة التكنيك وأنا أريهم الا صلاحية متصنعا باحتمال مشقة الاتصالات النظرية معهم.

فى مهجع الكتيبة الرابعة لم تغسل الأرض لأن السطل قد فقد. إهتممت بالقيمة المادية للسطل وبتكنيك فقده. كانت السطول التى سلمت للكتائب قد تكفل بها معاون القائد الذى كان يقوم بترتيب الأسبقية وبالنتيجة اسبقية المسئولية. هذا الأمر تماما وهو المسئولية تجاه التنظيف والسطل والجنفاص كانت تؤلف لى وسطا تكنولوجيا.

هذا الأمر تمكن مقارنته بأصغر مخرطة وأعتقها لا سمة لها ولا تاريخ سلك فى أحد المعامل. ومخارط أمثال هذه ينتبذها المرء فى أقصى ركن من المعمل على أكثر الأقسام زيوتا من الأرض وتدعى «المعز». وتستعمل لصنع التفاهات مثل الورد والحلقات والمسامير والأدوات التى لا شأن لها. ومع ذلك فعندما تعجز هذه الآلة العتيقة يمتلئ المصنع بموجة من القلق لا تكاد تبين، وفى معمل التركيب يبدأ كأنما بسائق الصدفة بتخريج «إنتاج شرطى» وتظهر على عوارض المخازن كومة من القطع ذات مظهر قبيح ومن «العمل المشوه».

إن المسئولية تجاه السطل وقطعة الجنفاص كانت تبدو لعينى كهذه المخرطة التى وإن كانت فى الصف الأخير بيد أنها يصنع بها أهم اجزاء أعمدة هيكل من أهم الصفات الانسانية: وهو معنى المسئولية. وبدون هذه الصفة لا يمكن أن يكون انسان شيوعى بل سيكون «العمل المشوه».

إن أهل الأوليمب يزدرون التكنيك. وتلاشى الفكر

التربوى التكنيكي من جراء سيطرتهم فى معاهدنا للتعليم العالى التربوى ولا سيما فيما يخص التربية بمعناها الصحيح. ما من حقل في حياتنا السوفييتية أصبحت حالة التكنلك فى وضع يرثى له، أكثر من التربية. وينتج عن ذلك أن هذا من الحرف الصغيرة ومن جميع الصناعات الحرفية الصغيرة هو أكثر تأخرا. ولهذا السبب تماما ظلت مبررة شكوى لوكا لوكيتش خلوبوف فى رواية «المفتش العام»:

«لا شئ أسوأ من كون المرء فى مهنة العلم ، وكل واحد يتدخل فيها. وكل واحد يود ان يرى أنه هو أيضا رجل ذكى».

لسنا هنا بصدد فكاهة ولا فى مقام شعوذة المبالغة. إنها الحقيقة البسيطة المألوفة. «من يعوزه العقل» ليحل أى مشكلة تربوية؟ إن أول قادم يستقر أمام محبرته وها هو ذا يزن ويربط ويحل الرباط. أى كتاب يمكن أن يكبح جماحه؟ وما فائدة الكتاب ما دام هو نفسه عنده طفل؟ ومع هذا إن أستاذا للتربية مختصا فى

مسائل التربية يكتب إلى إدارة الدورة السياسية أو إلى الامن الداخلى قائلا:

«إن غلامى الصغير قد سرقنى عدة مرات ولا يأوى إلى البيت، فأبعث لكم برجائى الحار...»

ويتساءل المرء لماذا ينبغى لرجال الامن الداخلى أن يكونوا فى التربية تكنيكيين أعلى من أستاذ التربية.

لم أجب بسرعة على هذا السؤال الممتع بيد أننى فى عام ١٩٢٦ ما كنت لأجد نفسى فى وضع أفضل من غاليله مع منظاره فيما يخص تكنيكى. فلم يلبث طويلا قيامى بالاختيار: إما فشلى فى كورياج أو فشلى على «الأوليمب» وطردى من جنة الفردوس. وإخترت الثانية. كانت جنة الفردوس تتلألأ فوق رأسى وتلمع بجميع ألوان النظرية، إلا أننى ذهبت لرؤية الكتيبة المختلطة لأولاد كورياج وقلت لهم:

ـ ما هذا يا أولادى! إن عملكم لا يعادل قيمة مسمار... سأهتم بكم فى الاجتماع. تفا على هذا العمل!

إحمر الأولاد خجلا وقال أحدهم وهو الأطول فمد مجرفته صوبي وأجاب بلهجة متأثرة:

ــ المعاول تثلمت... أنظر!

فقال له توسكا سولوفييف: ــ كذب، إنك تكذب. إعترف بانك تقول كذبا، إعترف!

ــ هل هي ماضية إذن؟

ــ ألم تبق ساعة كاملة جالسا على خط الحراثة، لا؟

فقلت للكتيبة المختلطة: ــ إسمعوا. يجب أن تنهوا هذه المهمة قبل العشاء! وإلا فسوف نشتغل نحن بعدئذ، وسأكون معكم.

فقال صاحب المعول المثلوم: ــ سننتهي. ماذا يوجد هنا ينتظر الانجاز؟

فأنشأ توسكا يضحك:

ــ ياله من ذكي!

بهذا الشكل لم تكن هناك من مادة تغم النفس: فمنذ أن أخذ الأولاد ينزوون جانبا وهم يسعون لاستنباط

حجج طيبة للتخلص من العمل، وهذا يعنى أنهم برهنوا عن عبقرية خلاقة ومبادرة وهى بضائع أخذت أخذا رفيعا من سوق الأوليمب. كان قد بقى فقط لتكنيكى أن يخنق قليلا هذا النوع من التظاهرات الخلاقة، وهذا كل شيء؛ كان فى إمكانى بالمقابل أن ألاحظ بعين الرضى أنه لم يكن ينتج رفض ظاهر للعمل. كان بعضهم قد إنسل خلسة ليهرب إلى أى مكان؛ بيد أن هؤلاء قد أثاروا إضطرابى أقل من غيرهم: فقد كان للأولاد تكنيكهم الجاهز. فحيثما يتنزه المتسكع كان لا بد له من أن يأتى إلى مائدة كتيبته. كان أولاد كورياج يستقبلونه بشئ قليل من البهدلة، مكتفين بالقول له بصوت ساذج:

ـ ظننا أنك هربت من الاصلاحية؟

كانت ألسنة أولاد غوركى وأيديهم أكثر تأثيرا. كان المتسكع الكسول يقترب من المائدة متظاهرا بأنه إنسان عادى لا يلفت أى انتباه، ولكن القائد ينبغى له أن يعطي كل ذى حق حقه. فكان يأمر بشدة لشخص ككوليا:

ـ يا كوليا! ماذا فعلت على كرسيك؟ أ لا ترى إذن؟ كريفوروتشكو قد وصل، إفسح له مكانا بسرعة! ضع له صحنا نظيفا! ما هذه الملعقة التى قدمتها له؟ ما هذه الملعقة؟

وتتوارى الملعقة من شباك المطبخ.

ـ أسكب له من أدسم شئ، كالحساء، من أدسمه!.. يا بيتيا أركض وإبحث عن الطاهى وإجلب ملعقة صالحة! أركض! يا ستسا إقطع له خبزا... ولكن ماذا تقطع؟ إن الفلاحين هم الذين يقطعون على هذه الشاكلة... ينبغى له أرق... ولكن أين بيتيا مع هذه الملعقة؟ إسرع يا بيتنا! يا فانيا ناد بيتيا ليجلب الملعقة!..

يجلس كريفوروتشكو أمام صحن من حساء البورش الدسم وهو يحمر من الخجل .ويسأل أحدهم من الطاولة المجاورة بلهجة رصينة:

ـ ماذا، هل تصيدت أيتها الكتيبة الثالثة عشرة ضيفا؟

ــ لقد جاء السيد، ولكن نعم إنه هنا سيتغدى...
يا بيتيا أعطه هذه الملعقة ليس لديه الوقت!..

ويقتحم بيتيا القاعة بهيئة منشغلة بشكل مضحك، ويمد إحدى الملاعق العادية من الاصلاحية وهو ممسك بها بمهابة بين أصابعه مثل القربان، ويغتاظ القائد:

ــ أى ملعقة جلبت؟ ماذا قيل لك؟ إذهب وإجلب أكبر الملاعق...

اثار بيتيا حركة صاخبة فى المطعم كمن تخبطه مس من الشيطان فارتطم بالنوافذ بدل الأبواب. واخذت رواية معقدة تمثل وإشترك فيه حتى أهل المطبخ. كانت الزفرات تتصاعد من شفاه بعض الأولاد لأنهم والحق يقال ــ إذا لم يكونوا غرضا لهذه الضيافة حارة جدا فقد كان هذا بمحض الصدفة. عاد بيتيا مسرعا وهو ممسك بيديه مغرفة من المطبخ. فتدحرج الجالسون على الموائد. وفى هذه اللحظة غادر لابوت مكانه بهدوء وقصد مسرح الأحداث. فينظر الى جميع ممثلى هذه المأساة صامتا ويلقى نظرة صارمة على القائد. وبعدئذ يفقد صرامته

فيتخذ وجهه فى أعين الجميع تعبيرا للشفقة الحنون والرحمة وهما عاطفتان ليستا كما يعرف ذلك الجميع من سماته. ظل المطعم معلق الأنفاس ينتظر من الممثلين مشهدا من أسمى المشاهد وأكثرها هزلا! وضع لابوت يده على رأس كريفوروتشكو مضفيا على صوته أرق النبرات:

— كل، يا أرنبى الصغير، كل! لا تخف! لماذا تتسلى بازعاج هذا الطفل؟ لماذا؟ كل، يا صغيرى... ماذا؟ لا توجد ملعقة؟.. هذا مزعج! اعطه ملعقة. نعم! هذه مثلا...

غير أن الأرنب الصغير ما إستطاع أن يأكل، فملأ المطعم عياطا وغادر المائدة تاركا صحن حسائه الدسم الملئ على حاله. تأمل لابوت الطفل المسكين، وقد علا وجهه تأثر وإنفعال عميف:

فقال لابوت وهو يكاد يبكي: — أ هذا ممكن؟ ماذا؟ ان تأكل؟ إلى أى مدى دفع هذا الصغير؟

إلتفت لابوت إلى الأولاد وفى وجهه معنى ضحكة ساكتة وضم إليه كتفى كريفوروتشكو المضطربتين من

نشيج بكائه وقاده بهدوء ولطافة خارج المطعم. ضحك الحضور ضحكا شديدا، ولكن المأساة كان لها فصل أخير لم يره الجمهور. فقد إقتاد لابوت ضيفه إلى المطعم وأجلسه وراء المائدة الرحبة وأمر القائد بتقديم الطعام «لهذا الرجل» وأن يعنى به لأنه «كما ترى قد أزعجوه». وحينما كان كريفوروتشكو لا يزال يهتز من نشيج البكاء الخفيف، أنهى حساءه يبدأ ينشغل بأنفه ودموعه. وقام لابوت بضربته الأخيرة الماكرة التى لايملك جودا إيسكاريوت نفسه تحت تأثيرها إلا أن يتحول الى زغلول.

ـ لماذا أزعجوك؟ لعلك لم تذهب إلى العمل؟ أليس كذلك؟

هز كريفوروتشكو رأسه وهو يشهق بالزفرات وأشار بصورة عامة أكثر مما كان يتكلم.

ـ إن هؤلاء سخفاء!.. فماذا تقول؟ هذه هى المرة الأخيرة التى تقوم بها؟ المرة الأخيرة أليس كذلك؟ إذن! فلماذا هذه المشاكل؟

أنا، عندما دخلت الاصلاحية ظللت سبعة أيام لا أذهب إلى العمل... وأنت يومين فقط. ولكن انتظر حتى أنظر إلى عضلاتك. أوهوُ! طبعا بمثل هذه العضلات يجب أن تعمل... أليس كذلك؟

هز كريفوروتشكو رأسه مرة ثانية وبدأ تناول اللون الثاني. عاد لابوت إلى المطعم وهو يسدى له هذه المجاملة المفاجئة:

ـ لقد رأيت على الأثر أنك كنت أخا...

كان يكفي واحد أو إثنان من أمثال هذه التمثيليات كي يصبح هجر كتيبة العمل أمرا مستحيلا. وقد تلاشت هذه المؤسسة بسرعة من كورياج. ولكن مكافحة المتمارضين أمثال خوفراخ كانت أصعب بكثير. ومنذ اليوم الثالث أخذ يشتكي من ضربات الشمس، فكان يجر نفسه إلى ظل الأشجار وهو يئن وهناك يتمدد ليستريح ولكن تارانتز كان يعرف كيف يتغلب على ذلك تغلبا عبقريا . كان يطلب من أنطون عربة يجرها الجواد «الصبي» ويذهب إلى الحقول مع فريق من الممرضين،

وكانت العربة مزدانة بالأعلام والصلبان الحمراء. وكانت أقوى وسيلة يستعملها هى الولد ليشي وهو مسلح بكير حقيقي. وما يكاد خوفراخ يستقر به المطاف، تحت الأشجار حتى تنقض عليه «النجدات الأولى». وسرعان ما كان ليشى يضع كيره أمام العليل ويهتم به عدة أشخاص بهمة مخلصة. فيطلقون على خوفراخ هبات من الهواء فى كل ناحية منه قد تكون أصابتها الشمس ثم ينقلونه الى عربة الاسعاف. ولكن خوفراخ آنذاك يكون قد شفى فتعود العربة بهدوء الى الاصلاحية. ومهما شق على خوفراخ أن يحتمل العلاج الذى أتينا على ذكره فقد كان أصعب عليه أن يعود إلى مكانه فى الكتيبة ليبتلع بصمت كميات جديدة من الادوية بشكل أبسط الأسئلة:

كيف يا خوفراخ، هل حسن هذا صحتك؟ دواء جيد أليس كذلك؟

وغنى عن البيان أن هذه إنما هى أعمال أنصار، بيد أنها كانت تنبثق من الجو العام والارادة الجماعية

بتنظيم العمل وعليه فإن الجو والإرادة كانا هما الغرضين الحقيقيين لهمى التكنيكى.

وقد ظل الوسط التكنولوجى الأساسى بالطبع هو الكتيبة. وفي كنف «الأوليمب» ما كانوا ليدركوا حقيقة الكتيبة أبدا حتى النقطة الأخيرة لتاريخنا. وقد سعيت مع ذلك ما وسعنى والجهد لأشرح لرجال الأوليمب معناها وقيمتها الحاسمة فى التربية. ولكن بما أننا كنا نتكلم بلغات مختلفة فقد كان من المستحيل شرح شيء. أسرد هنا كل الحديث تقريبا الذى جرى بينى وبين أستاذ التربية الذى جاء لزيارة الاصلاحية، هو رجل مهيب ذو نظارات وجاكيت وبنطلون، رجل جليل فاضل. وقد أرهقنى بهذا السؤال: لماذا كان القائد المناوب هو الذى يوزع الموائد على الكتائب فى المطعم وليس المعلم؟

ــ حقا أيها الرفيق، لا سبيل إلا أن أحسب أنك تمزح مجرد مزح. أرجوك أن تكلمنى كلاما جديا. كيف يكون أن الصبى المناوب يوزع الموائد بينما

أنت تبقى واقفا بهدوء. هل أنت متأكد من أنه سيقوم بذلك بشكل صحيح دونما غبن لحق أحد؟ وأخيرا... يمكنه ببساطة أن يخطئ.

اجبته:

– توزيع الموائد ليس أمرا بالصعب جدا. فلدينا علاوة على ذلك قانون قديم وصالح جدا.

– شئ ممتع. قانون؟

– نعم! قانون. ها هو: كل ما هو جميل وكل ما هو مزعج وشاق يجب أن يوزع على الكتائب بالدور وذلك حسب الترتيب العددى.

– كيف هذا وما هو؟ لم أفهم.

– شئ بسيط. اليوم تأخذ الكتيبة الأولى أفضل مكان على المائدة وفى الشهر القادم يصبح دور الكتيبة الثانية، وهكذا دواليك.

– حسنا جدا والأشياء البشعة ما هى؟

– كثيرا ما يظهر شئ من قبيل هذه الأشياء التى ندعوها مزعجة. مثلا: إذا كان يجب القيام على عجل بعمل غير متوقع، وإذ ذاك تعين الكتيبة الأولى لأداء هذا

العمل، وفى المرة التالية تعين الكتيبة الثانية. فحينما توزع أعمال التنظيف ينبغي للكتيبة الأولى أن تنظف الأماكن أولا، وهذا غير منوط بالطبع بغير الأعمال التى يجب القيام بها بالدور.

ـ أ أنت الذى إستنبطت هذا القانون المريع؟

ـ لا، لماذا أنا؟ الأولاد هم الذين إستنبطوا ذلك. إنه أيسر عليهم: هذه التوزيعات صعب جدا القيام بها وهناك دائما من يظل مستاء منها، بينما الآن تجرى بشكل آلى فالدور يتبدل كل شهر.

ـ هذا يعنى أن الكتيبة العشرين عندكم يجب أن تنظف المراحيض بعد عشرين شهرا؟

ـ تماما، ولكنها ستشغل أفضل مكان فى المطعم بعد عشرين شهرا أيضا!

ـ شئ فظيع! بيد أنه بعد عشرين شهرا سيكون فى الكتيبة العشرين أشخاص جدد أليس كذلك؟

ـ لا، إن تركيب الكتائب لا يتبدل. نحن أعضاء مجتمع ثابت. طبعا قد يذهب البعض، ويدخل اثنان

أو ثلاثة جدد. ولكن حتى لو تجددت غالبية الكتيبة فما من خطر فى الأمر. إن الكتيبة جماعة لها تقاليدها وتاريخها وحالات مآثرها ومجدها. صحيح أننا الآن قد كونا الكتائب كيفما كان ولكن النواة قد ظلت باقية.

ــ لا أفهم. هذه كلها إستنباطات. هذا كله ليس شيئا جديا. ما هو معنى الكتيبة والمجد إذا كان الأعضاء جددا. ماذا يشبه هذا؟

فقلت باسما: ــ يشبه فرقة تشابايف (٨).

ــ آه، لقد وقعت ثانية فى نزعتك العسكرية... ومع ذلك.. ماذا يوجد فى هذا من شئ تشابايفى إن جاز القول؟

ــ لم يعد هناك الرجال أنفسهم الذين كانوا قبلئذ فى الفرقة فقد ماتوا. كما أن تشابايف قد مات. وهؤلاء أناس جدد. ومع ذلك أخذوا على كاهلهم مجد تشابايف وأفواجه وشرفها. أتفهم أم لا؟ إنهم قد أخذوا مجد تشابايف. وإذا لوثوا شرفهم، فبعد خمسين عاما سيحمل اشخاص جدد أوزار عارهم.

ـ لا أفهم لماذا أنت بحاجة الى هذا؟

وهذا الأستاذ لم يدرك. وماذا كان يمكنني أن أفعل؟

ففى الأيام الأولى فى كورياج أنجز عمل كبير جدا وسط الكتائب. فكان قد خصص منذ أمد طويل، مربٍ لكل كتيبتين أو ثلاث كتائب وتعهد بمسئولية إيقاظ مفهوم الشرف الجماعى للكتيبة ومركزها الأفضل والأجدر فى الاصلاحية. أما الدوافع الجديدة والكريمة للمصلحة الجماعية فلم تظهر فى يوم واحد ولكنها بصورة نسبية ظهرت بشكل أسرع، أسرع بكثير مما لو كنا وضعنا آمالنا فى التربية الفردية.

أما المؤسسة الثانية الهامة جدا عندنا فكانت منظومة مطامح المستقبل .كانت توجد كما نعلم طريقتان لتنظيم المطمح ثم الجهد الكادح. وكانت الأولى تتألف من تنظيم المطمح الشخصى بالعمل فى المصالح المادية للفرد. وهذا ما كان ممنوعا منعا باتا من قبل مفكرى التربية فى هذا الوقت. لو كان الأمر يسعى لمنح الأولاد مبلغا من الروبلات له معناه بشكل أجرة أو مكافأة

لثارت فضيحة فى الأوليمب. كان مفكرو التربية مقتنعين بأن المال آت من الشيطان، ولم يكن من العبث أنهم كانوا قد سمعوا فى فاوست:

يهلك الناس فى سبيل الابريز...

إن الأجرة والدراهم كانت تبعث فى نفوسهم ذعرا مريعا إلى درجة أن هذا الشعور ما كان يترك مجالا لأى حجة. وكان العلاج الوحيد هو الرش بالماء المبارك غير أننى ما كنت أستعمل هذه الوسيلة.

ومع ذلك فإن الأجرة كانت شيئا هاما جدا. فبفضلها يتعلم الصبى أن ينسق المصالح الخاصة مع المصالح العامة ويندفع إلى العباب الصاخب للمشروع الصناعى والمالى وللدخل التجارى والمورد، وينفذ إلى جهاز الاقتصاد الصناعى السوفييتى ويقف مبدئيا على مستويات مشتركة مع أى عامل آخر. ويتعود أخيرا على تقدير الأجر ولا يغادر بيت الأطفال كتلميذ داخلى شارد لا يعرف أن يعيش ولا يملك غير «المثل العليا».

ولكن ما كان هناك سبيل الى عمل شئ. فهذه الأشياء كانت محرمة تحريما قاطعا مانعا.

وما كانت لدى من إمكانية سوى أن أسلك السبيل الثانى. وهو أن أرفع دعائم جو الجماعة وأن أخلق منظومة معقدة جدا للمطمح الجماعى. وما كانت هذه الطريقة تستشم منها رائحة الكبريت وكان فى وسع رجال الأوليمب من هذه الناحية أن يتساهلوا بكثير من الأشياء مع شئ من الغمغمة المرتابة فى بعض الأحيان.

إن الانسان لا يستطيع أن يعيش فى هذا العالم ما لم يكن نصب عينيه هدف براق. والدافع الحقيقى للحياة البشرية إنما هو فرحة الغد. وفرحة الغد هذه هى من الأشياء الأساسية التى يعمل لاجل بلوغها التكنيك التربوى. لذا يجب بادئ ذى بدء أن تنظم الفرحة نفسها وأن تولد وأن توضع الحقيقة الواقعة. ويجب بعدئذ تبديل أشكال الفرحة البسيطة بشكل أكثر تعقيدا وأكثر غنى فى المعنى الانسانى. ومن هذه النقاط يمر خط هام:

يمتد من الرضى البدائي الذى تعطيه قطعة حلوى إلى أعمق شعور بالواجب.

إن القوة والجمال هما الشيئان العظيمان اللذان إعتدنا على تقديرهما فى الانسان. وكلاهما يتحددان على سبيل الحصر حسب طريقة تصور المطمح. فالمرء الذى يحدد سلوكه حسب أقصر مطمح وهو طعام اليوم، تماما هذا الطعام، إنما هو أضعف الناس على الاطلاق. فإذا رضى فقط بمطمحه الخاص وهو بعيد فان المرء يمكنه أن يبدو قويا ولكنه لا يوقظ فينا شعور جمال شخصيته وقيمته الحقيقية. وكلما كان فسيحا المجتمع الذى تبدو مطامحه للانسان مطامح خاصة به، كان أجمل وأسمى.

إن تربية الانسان تعنى أن نكوّن فيه المطامح التى تتناسق حسبها فرحة الغد. ويمكننى أن أكتب حول هذا الموضوع حديثا ضافيا عن الطريقة التى تتعلق بهذا العمل. لا بد من تنظيم مطامح جديدة بالاستفادة من المطامح الموجودة آنفا وأن يخلق منها تدريجيا مطامح أثمن وأغلى. ويمكن الابتداء من طعام جيد ومن زيارة

سيرك ومن تطهير بركة ماء، غير أنه يجب دائما الايقاظ والتوسيع بشكل تقدمى للمطامح ذات القيمة للجماعة كلها ثم نقلها إلى صعيد الاتحاد كله.

أصبح عيد الحصاد لجماعتنا أقرب مطمح بعد إجتياح كورياج وأخذها.

على أننى كان ينبغى لى أن أعين سهرة إستثنائية تؤلف لحظة إنعطاف فى الجهد الكادح لأولاد كورياج. إلا أننى ما كنت أعتمد على مثل هذه النتيجة، وكنت أريد فقط أن أعمل ما هو ضرورى عمله. وما كان هذا قط بنية عملية.

إن اولاد الاصلاحية الجدد ما كانوا يعرفون من هو غوركى وبعد وصولنا بأيام قلائل أقمنا حفلة غوركى الساهرة. كان تنظيمها متواضعا. ماكنت أود عن وعى ان أعطيها طابع حفلة موسيقية أو حفلة أدبية. لم ندع أحدا من الضيوف إليها. وعلى المسرح المزدان بشكل متواضع وضعت صورة آليكسى مكسيموفيتش غوركى.

قصصت على الأولاد قصة حياة غوركى وتكلمت بشكل مفصل عن تآليفه. وقد قرأ بعض من القدماء مقاطع من كتابه «طفولتى».

كان الجدد يصغون إلىّ وعيونهم مفتوحة الأحداق. ما كانوا يتصورون أن مثل هذه الحياة ممكنة فى الدينا. ولم يطرحوا علىّ أسئلة ولم ينفعلوا إلا عندما جلب لابوت إضبارة الورق المقوى التى فيها رسائل غوركى.

ـ هو الذى كتب هذه؟ نفسه؟ كتب إلى أولاد الاصلاحية؟ أرنا...

مرر لابوت رسائل غوركى المنشورة وأراها لصفوف الأولاد باحتراس وحذر. كان بعضهم يمسك بيده ويحاول أن ينفذ بشكل أعمق إلى مضمونها:

ـ أنظر! أنظر!: «رفاقى الأعزاء!» هكذا كتب...

وبعدئذ قرئت جميع الرسائل على الاجتماع. وسألت فى النهاية:

ـ هل هناك من يود أن يقول شيئا؟

وخلال دقيقتين ما من أحد أراد أن يتكلم. وبعدئذ

تقدم كوروتكوف من المسرح وقد علته حمرة الخجل وقال:

ــ أود أن أكلم أولاد إصلاحية غوركي الجدد... هؤلاء الذين هم مثلي. غير أنني لا أعرف كيف أتكلم... طيب لا بأس! أيها الأولاد! نحن نعيش هنا ولنا عيون إلا أننا لا نبصر بها شيئا... كالعميان والله! وهذا شئ مؤلم أننا أضعنا سنين كثيرة. لكننا الآن رأينا شخصا يدعى غوركي وأيم الحق! وتقلب كل شئ في نفسي... ولا أدري كيف فعل بكم هذا؟..

تقدم كوروتكوف حتى حافة المسرح وهو مقطب عينيه الجميلتين الرصينتين بشكل لا يكاد يبين وقال:

ــ يجب ان نعمل ايها الأولاد... أن نعمل بغير هذا الشكل... أ فهمتم؟

فصاح الأولاد بحماسة: ــ فهمنا! ــ ورافقوا خروج كوروتكوف من المسرح بتصفيق حاد.

وفي اليوم التالي لم أعد لأتعرف عليهم. كانوا

يتألمون ويئنون ويهزون رؤوسهم وهم يتغلبون بشرف على الكسل الانسانى المزمن بجهد كبير. كانوا قد رأوا أمامهم مطمحا بهيا: إنه قيمة الشخصية الأنسانية.

١١. عيد الحصاد

حملت إلينا أواخر أيام شهر أيار هبات جديدة، الواحدة تلو الأخرى: قطعا جديدة من الباحة، وأبوابا ونوافذ جديدة، وروائح جديدة بين جدراننا وأوضاعا روحية جديدة. كانت أواخر رواسب الكسل تتخلع بيسر الآن. وكان عيد إنتصارنا قد أخذ يشرق دائما إشراقا أقوى أمامنا. ومن جوف هضبة الدير، ومن أعماق زنزانات لا حصر لها كان يتصاعد بخار الماضى إلى السطح الذى هيمنت عليه ريح الصيف على الفور، فأخذته بعيدا إلى مقالب التاريخ.

وما كان يشق على الريح فى ذلك الحين أن تفعل فعلها: فالروافع العنيدة للكتائب المختلطة قد دحرجت

خلال أسبوعين الجدران الكثيفة العتيقة. أما الجواد «الحدأة» ومارى والخيول التى تنشطت فى كورياج وأعطاها مجلس القادة الأسماء اللائقة: الأزرق، الراهب والنسر، أقول إن هذه الجياد قد نقلت بقايا القرميد إلى حيث يناسب الأمر: نقلت أكبر المواد وأحسنها حفظا إلى بناء زريبة الخنازير، والقطع الصغرى إلى الممرات والأخاديد والحفر. وكانت كتائب مختلطة أخرى مسلحة بالرفوش وعربات النقل اليدوية والنقالات قد وسعت ونظفت ومهدت الساحات الواقعة على حافة هضبتنا، ونظفت دروب المنحدر فى الوادى وصنعت درجا وأعد فريق بوروفوى عشرة مقاعد تقريبا لوضعها على الأسطحة وفى المنعطفات المختارة جيدا. كانت باحتنا قد أصبحت مشرقة، كانت تضم علاوة على السماء زينات من الخضرة وكانت أبعاد الأفق المترامية قد إتسقت فى إطار واسع حولنا.

وفى الباحة كما حول الهضبة كنا منذ وقت طويل قد أبدنا آثار ملايين التربية الاجتماعية وقام بستانينا

ميزياك وهو رجل سكيت متجهم كما يحدث أحيانا إلى الأزواج المنكودين بزوجات جميلات، وأخذ ينقب مع الأولاد أرجاء الباحة والممرات ويجمع قرميد أرصفة الدير على شكل كومات منتظمة.

وفى الطرف الشمالى من الباحة وضعت أسس زريبة الخنازير: زريبة جديرة بهذا الاسم ذات أقسام جميلة. وما عاد شيرى الآن يشبه إنسانا إلتهمت النار كل املاكه بل صار فريسة نشوة أرخميدية. كانت أكثر من ثلاثين كتيبة مختلطة تذهب كل يوم إلى العمل، وكنا نشعر بين أيدينا بقوة عظيمة. ورأيت احتياطات الشهوة العظيمة المتجمعة فى شيرى للعمل. وكان ما يزال يضوى من الجشع: كثير من العمل ،كثير من اليد العاملة ولم تجد هذه القوى المنظمة الحدود إلا فيه. لقد قصّر أدوار نيقولايفيتش نومه ووضع على ما يبدو إستطالات لساقيه وشطب من برنامجه اليومى فضلات شتى من نوع الفطور والعشاء دون أن يتوصل مع ذلك إلى إنجاز كل شئ.

كان شيرى يريد ان يقطع فى بحر شهر ونصف

على مئة هكتار، الطريق الذى لم نقطعه فى منطقتنا القديمة الا طوال ست سنوات. فأرسل أعظم الكتائب المختلطة لتخفيف الحقول ونتف أصغر الأعشاب. كان يقوم دونما إمتعاض باعادة المحراث ليمر على القطع التى لم تحسن حراثتها، وكان يخضعها لطرائق خاصة من الزراعة المتأخرة. وكانت الخطوط مستقيمة كأشعة الشمس وتمتد على طول الحقول وقد ازدانت كما فى السابق ببطاقات زيارة «لملوك الأندلس» و «الأميرات» من جميع الأنواع. وفى القسم الأوسط وعلى حافة طريق الحقول تماما أقام شيرى حقل بطيخ مراعاة لنظراتى التربوية. وقد أعتبر هذا العمل فى مجلس القادة شيئا ذا فائدة كبيرة. وأجرى لابوت دونما تريث إحصاء لمختلف العجزة المستخفين الذين يمكن أن يؤلف منهم كتيبة مختلطة للبطيخ.

ومهما كان عمل شيرى مثقلا بالأعباء، فانه كان يجد الأشخاص مع ذلك لتخصيص كتيبة مختلطة لتنظيف البركة. وقد عين كارابانوف قائدا لها. كان أربعون

ولدا عاريا طوقوا خواصرهم بأبشع السراويل التى عثر عليها في احتياطات دينيس كودلاتى، وأخذوا يقومون بتفريغ بركة الماء. فوجدوا على قاع البركة عددا كبيرا من الأشياء الممتعة: بواريد ومسدسات. وكان كارابانوف يقول:

ــ لو نقب تنقينا جيدا لعثر على بناطيل ايضا. أعتقد أنه قد رمى أيضا هنا بعض منها. لأن الفرار من الأيسر بدون بناطيل.

وما كان إنتشال الأسلحة من الطين بالعسير، ولكن إنتزاع هذا الطين ظل عملا من أشق الأعمال. كانت البركة واسعة نوعا ما، فاذا أكتفى بنقل هذه الأوحال بالسطول والنقالات، فمتى ينتهون من هذا؟ غير أن تدخل أربعة جياد وصناديق خشبية كبيرة من اختراعنا جعل البركة بطبقتها الغضارية تأخذ بالتضاؤل بشكل ملموس.

كانت «الكتيبة الثانية المختلطة وفوق العادة» التابعة لكارابانوف جميلة روئتيها في غمار العمل. كانوا ممرغين

بالأطيان حتى جذور شعرهم، فكانوا يشبهون الزنوج إذ كان من الصعب على المرء أن يتعرف على وجوههم، وكانوا يحدثون تأثيرا بالنفس بأنهم قوم جاءوا من قطر بعيد مجهول. ومنذ اليوم الثالث أتيحت لنا الفرصة لتأمل مشهد مستحيل تماما فى منطقتنا المناخية :كان الأولاد يمضون إلى العمل وخواصرهم مزدانة بتنورات مضفورة بشكل فنى من أوراق الأكاسيا والسنديان وغيرها من النباتات من المناطق الحارة. كانت أعناقهم وأرجلهم وأيديهم مليئة بالزينات المتناسبة المصنوعة من أسلاك حديديه وأشرطة من الصفيح. وكان عدد طيب منهم قد أفلح فى وضع عيدان صغيرة فى أنوفهم وعلقوا فى آذانهم أقراطا مؤلفة من ورد وصواميل ومسامير دقيقة.

إن أفراد هؤلاء القوم السود الذين ما كانوا يعرفون اللغة الروسية ولا الأوكرانية كانوا يتحادثون بتعابيرهم الطبيعية التى لا يعرفها الأولاد وكانت تتميز بأصوات صارخة وغلبة الأصوات الحلقية غير المألوفة للأذن الأوروبية. وقد دهشنا من أنه ماكان اعضاء الكتيبة الثانية المختلطة

الخاصة يتفاهمون فيما بينهم فحسب، بل كانوا يمتازون بالاكثار فى التكلم. وكان الصخب يتصاعد عاليا طول النهار من فوق سطح البركة الواسع. كان الزنوج يغوصون فى الطين حتى وسطهم ويكدنون بصخب الفرس «الجرادة» أو الجواد «الحدأة» على جهازهم الخشبى المعلق فى أعمق الطبقات الغضارية ويتصايحون كالمجانين؛

كان كارابانوف لامعا وأسود كسائر الآخرين وقد صفف شعره على شكل غرة غريبة وأخذ يجيل عينين بيضاوين واسعتين ويبدى أسنانا ناصعة ويصيح:

— كارامبا!

وتتجه العيون ضارية وبيضاء مثله بنفس الحركة إلى النقطة التى يشير إليها ذراع كارابانوف الغريب والمملوء كله بالأساوير ثم يهزون الرؤوس وينتظرون. فيصيح كارابانوف:

— بخانانياى، بخانانياى!

فيسارع المتوحشون إلى الأداة ويتراصون بضوضاء صاخبة ويساعدون الفرس «الجرادة» لجر طن من الطين

الكثيف الثقيل إلى الضفة وهم يبذلون جهدا قاسيا يصحبه الصياح.

كانت هذه الأصوات التى يقلدون بها الزنوج تنشط بشكل خاص مساء وذلك حينما كانت الاصلاحية كلها تأتى لتجلس على حافة هضبتنا، وحينما ينتظر الصبيان ذوو الأرجل الحافية وهم مأخوذون، ينتظرون اللحظة اللذيذة التى سيصيح فيها كارابانوف: «إقطعوا الرؤوس» فينقض الزنوج بوجوه شرسة على البيض باندفاع ضار، فينجو البيض بأنفسهم مرتاعين ويركضون إلى باحة الاصلاحية ويمدون رؤوسهم المذعورة من الأبواب وسائر الثغرات. ولكن الزنوج لا يلاحقون البيض، وبصورة عامة ما كان الأمر يصل إلى الافتراس لأن المتوحشين على الرغم من أنهم لا يعرفون اللغة الروسية، كانوا يفهمون بشكل كامل، ما يعنى التوقيف المنزلى لنقل الأطيان إلى الأماكن المأهولة.

ومرة واحدة سنحت فرصة طيبة للمتوحشين فقاموا فعلا بنزعة الخيلاء والزهو على السكان البيض من الضواحى المجاورة لمدينة خاركوف الرئيسية.

وفي ذات أمسية بعد نهار جاف محرق لاحت غيوم عاصفة من الغرب وبعد أن نثرت تحتها أهدابا رمادية متكاثفة، ملأت السماء بعرضها، وزمجرت وإنقضت على هضبتنا. فاستقبلت الكتيبة الثانية المختلطة الخاصة العاصفة بحماسة وضج قاع البركة بأصوات فيها نشوة الفرحة. وصبت السحب نيران مدفعيتها على كورياج بشدة، وفجأة لم تعد تضبط موازين السماء المتأرجحة فانهارت علينا فيها مزيج من السيول والرعود والبروق على شكل إعصار أغبر فيه حنق مسعور. وردت عليها الكتيبة بصياح إقشعر له البدن وأخذت ترقص رقصا جنونيا وسط هذا الضجيج.

غير أنه فى هذه اللحظة الممتعة برز سيننكى فجأة من طرف الهضبة وسط سيل الأمطار وهو منشغل وأخذ يعزف أنغام النفير الرنانة. فقطع المتوحشون رقصاتهم وتذكروا لغتهم الروسية قائلين:

— ماذا تعلن؟ قل؟ عندنا؟.... أين هذا؟

صوب سيننكى بوقه إلى جهة بودفوركى فأسرع

الأولاد صوبها بالدوران حول البركة وقد برزوا بسرعة من الباحة. كان هناك بيت على بعد مئة متر من الضفة يلتهب لهيبا مستعرا. وكانت حلقات الموكب تحيط به بشكل احتفالى. وإتجه إلى هذه الجهة أربعون زنجيا وعلى رأسهم قائدهم وكان زهاء عشرين من النسوة والعجائز المرتاعين قد نصبوا فى هذه اللحظة حاجزا من الايقونات للأولاد الذين هرعوا وصاح أحد العجائز:

ـ أهذا من شأنكم؟ إن الله أضرم النار وهو سوف يخمدها...

غير أن العجوز ذا لحية وسائر المؤمنين لدى إلتفاتهم أدركوا أنه ليس الله فحسب لم يبد أى إهتمام بالحريق بل أدركوا أيضا أن الشيطان اللعين بمشيئة الله قد دعى لأن يلعب دورا حاسما فى الكارثة: فانقض عليهم قوم ذ و و جلود سوداء وهم يصيحون صيحات وحشية و يهزون خواصرهم المزغبرة و يصدرون رنينا من حليهم الحديدية. ما كانت الوجوه الغبر المشوهة الملامح بعيدان فى الأنوف والتى طفى عليها الشعر المسدول؛ ما كانت تترك موضعا

لأى شك: فى أن هذه المخلوقات ما كان يسعها بالطبع أن يكون لها قصد آخر سوى أن تسيطر على كل الموكب الروحى لتجلبها الى جهنم. وما كان من العجائز والنساء إلا أن يطلقوا صيحات حادة ويهربوا فى كل إتجاه فى الطريق والنعال تقرقع والأيقونات تشد عليها المرافق. وسارع الصبيان إلى الاصطبلات وزريبة الأبقار ولكن كان قد فات الأوان فالحيوانات قد هلكت. كان سيميون يقتلع إطار إحدى النوافذ حانقا بأول حطبة وقعت تحت يده ويقفز إلى البيت. وبعد لحظة برز رأس ذو لحية بيضاء من النافذة فجأة وصاح سيميون من الداخل:

ـ تناول هذا العجوز.... الملعون...

تناول الصبيان العجوز بأيديهم وقفز سيميون إلى الخارج من نافذة أخرى وأخذ ينط فى الباحة الرطبة الخضراء لينجو من الحروق وركض أحد الزنوج إلى الاصلاحية ليجلب العربة.

كانت الغيوم قد إنقشعت وإتجهت صوب الشرق تجر وراءها فى السماء ذيلا عريضا أسود. ووصل

أنطون براتشنكو من الاصلاحية وهو يخب على الجواد «الصبى».

ـ ستصل العربة فورا... وأين الفلاحون؟ لماذا لا يوجد سوى أولادنا هنا؟

وضعنا العجوز فى العربة وإمتد موكبنا وراءها متجهين إلى الاصلاحية. ومن وراء الأبواب والسياجات كانت وجوه ساكنة تتابعنا وكانت النظرات وحدها تسلمنا إلى اللعنة والبهدلة.

أظهرت القرية لنا برودة غير ان السكان مع ذلك إستحسنوا النظام الذى أدخل إلى الاصلاحية حسب الأقوال والشائعات التى وصلت إلى أسماعنا.

ففى أيام السبت والأحد كانت باحتنا تعج بالمؤمنين. وبحكم العادة كان العجائز فقط يدخلون الكنيسة أما الشبان فكانوا يؤثرون أن يتجولوا حول المعبد. وقد وضع حرسنا أيضا حدا لهذا النوع من الصلات معنا إن لم تكن مع الله. ففى ساعة الصلاة كانوا يعينون فرقة يحمل أفرادها شارة زرقاء كاشفة على سواعدهم ويخيرون المؤمنين بين أمرين:

ـ هنا ليس شارع! فاما أن تدخلوا إلى الكنيسة وإما أن تخلوا الباحة. حسبكم تسكعا هنا مع أوهامكم!

كان أغلبهم يؤثر أن يخلى الأمكنة وحتى ذلك الحين ما كنا لنقوم بالهجوم على الدين. فبالعكس كان إتصال يحدث بين المثاليين والماديين.

كان مجلس أملاك الكنيسة يزورنى بعض الأحيان لحل بعض المسائل الصغيرة بشأن الحدود. وذات مرة مع ذلك لم أملك أن لا أعبر عن بعض مشاعرى لوكلاء الكنيسة:

ـ أتعلمون أيها الباباوات؟ ربما يمكنكم أن تنتقلوا إلى تلك الكنيسة الموجودة هناك فوق هذا... النبع السحرى كيف كل شئ نظف هنا الآن، سيكون أحسن لكم...

فقال أحد أعضاء مجلس أملاك الكنيسة: ـ أيها المواطن المدير: كيف نستطيع أن ننتقل إذ أن ذاك ليس كنيسة وإنما مجرد زاوية؟.. هناك لا يوجد مذبح... فهل نضايقكم نحن ونزعجكم؟

ـ أنا في حاجة إلى الباحة. وليس لدينا مكان كاف. ولعلكم تأخذون بعين الاعتبار هذا الأمر: فعندنا كل شئ قد أعيد دهانه وتبييضه وإصلاحه بينما كنيستكم ظلت مخربة قذرة... إنتقلوا فسوف أطوح بها إلى أسفل السافلين، بعد أسبوعين سيكون مكانها مسكبة الزهور.

كان ذوو اللحى يبتسمون فربما أرضاهم مشروعي....

فقال محدثي السابق: ـ أن تطوح بها هذا ليس عملا. وهل ستبنى بعدئذٍ؟ هيى، هيى! إنها بنيت منذ ثلاثمئة سنة وكم من واحد قدم لها ماله وتقول أنت الآن: سأهدمها. أهكذا تفكرون أنتم: مات الايمان على ما يظهر! ولكن سترى: إن الايمان لم يمت... ويعرف الشعب ذلك.

كان كبير مجلس أملاك الكنيسة قد ارتقى فعلا السدة الرسولية فكان صوته يدوى كما لو كان في الأيام الأولى للمسيحية، بيد أن صوتا آخر أوقفه:

ـ لماذا تقول يا إيفان آكيموفيتش هذه الأشياء؟ إن المواطن المدير يعرف شغله فهو بصفته ممثلا للسلطة

السوفييتية يعتبر الكنيسة ـ كما يقال ـ لا ضرورة لها.
وإنما هناك فى الأسفل كما قلت توجد زاوية ولنقل بصراحة تامة: إن المكان قد دنس.....

فقال لابوت ناصحا له: ـ ليس لك إلا أن ترش الماء المبارك!

فمشط العجوز المنزعج لحيته:

ـ الماء المبارك يا بنى لا يشفى كل شئ...

ـ كيف هذا... لا يشفى كل شئ؟

ـ لا، يا إبنى لا يشفى كل شئ! لنفرض مثلا أنك رششت بالماء المبارك فلن يجدى معك شيئا أليس صحيحاً؟

فقال لابوت شاكا: ـ لا! أظن!

ـ إذن ترى أن هذا لا يجدى شيئا. فلا بد هنا من التمييز.

ـ كهانك يعملون بهذا التمييز؟

ـ كهاننا؟ طبعا يعملون بذلك يا إبنى! إنهم يفهمون.

فقال لابوت: ـ يعملون لمصالحهم وأنت لا تفهم.

لقد شب البارحة حريق... ولو لا أولادنا لاحترق العجوز وشوى جسمه!

ـ لعل هذا يرضى الله! ربما كان من مقاصد العناية الالهية أن يحترق هذا العجوز!

ـ ولكن الأولاد تدخلوا فى الأمر وحالوا دون ذلك.

فقال العجوز محمحما:

ـ أنت ما تزال صغيرا يا إبنى لتحاكم هذه الأمور بعقلك!

ـ آه نعم؟

ـ فقط فى أسفل الهضبة زاوية. نعم زاوية وليس فيها مذبح!

وإنسحب العجائز بعد ما ودعونا بتواضع وفى اليوم التالى رأينا على جدران الكنيسة حبالا معلقة وروافع يرتفع عليها عمال معهم سطول. فلعلهم خجلوا من شكل الكنيسة الخارجى المزرى أو أنهم أرادوا أن يظهروا حيوية الايمان فرصد مجلس أملاك الكنيسة أربعمئة روبل لتبييض الكنيسة. كان هذا من نتيجة اتصالاتنا.

ما كان الأولاد حينذاك ليبدوا أى عداء تجاه الكنيسة وإنما مجرد فضول. سألنى الصبيان:

ـ هل يمكننا أن نذهب لنرى ماذا يعملون هناك فى كنيستهم؟

ـ اذهبوا وأنظروا.

فحذرهم جورا قائلا:

ـ ولكن حذار من الزعرنات! إننا نسعى بالاقناع فى بناء الحياة من جديد لا بطرائق الزعرنة.

فقال الأولاد متزعجين: ـ إذن نحن زعران؟

ـ بصورة عامة يجب أن لا تزعجوا أحدا هناك... هناك طريقتنا لعلكم فهمتم... بشئ أكثر من الأدب هكذا...

وعلى الرغم من أن جورا كان يستعين خاصة بالاشارات والهيئة ليعطى هذه التعليمات فإن الصغار فهموا:

ـ نعرف ،كل شئ سيكون على ما يرام.

غير أنه بعد أسبوع جاء كاهن قمئ عجوز مجعد الوجه ليقابلنى ويقول لى هامسا:

ـ لى طلب أود أن أطلبه منك أيها المواطن المدير.
لا مجال لقول شئ ذى بال طبعا: إن أولادكم لا يسيئون فعلا ولكن أنت تعرف هناك مع ذلك بهدلة للمؤمنين وهذا غير لائق، بحيث... إنهم يعملون جهد طاقتهم حقا والحمد لله، ولا نستطيع أن نقول شيئا مع ذلك ولكن لعلك تعطيهم أمرا بألا يدخلوا الكنيسة.

ـ هل يتزعرنون حقا؟

ـ لا، والحمد لله؛ والحمد لله لا ليس هذا وإنما يأتون بالسراويل القصيرة والقبعات الصغيرة التى على رؤوسهم.... وهناك منهم من يصنع إشارة الصليب على صدره ولكن باليد اليسرى وبصورة عامة إنهم لايعرفون ثم إنهم ينظرون فى كل اتجاه ولكن بما أنهم لا يعرفون كيف يجب أن ينظروا فهم يلتفتون تارة منحرفين وتارة ظهرهم إلى المذبح. إنهم يجدون هذا ممتعا ولكن هذا المكان مع ذلك بيت للصلاة وهؤلاء الأطفال لا يعرفون ما هى الصلاة واللياقة والخوف من الله. إنهم يدخلون إلى المذبح بتواضع طبعا وينظرون ويمسون الايقونات

ويتأملون المائدة وهناك حتى أحدهم وقف فى باب المحراب وأخذ ينظر من هناك المؤمنين. هذا غير لائق كما تعلم!

طمأنت بال الكاهن قائلا له إننا لن نعود فى المستقبل فنسبب لهم الازعاج وأعلنت فى إجتماع الأولاد:

– لا تذهبوا أيها الأولاد إلى الكنيسة فإن الكاهن إشتكى منكم.

فاحتد الأولاد غضبا قائلين:

– ماذا؟ لم نصنع شيئا! ندخل بدون زعرنة ونتجول ثم نعود. إن ما قاله إنما هو كذب وبهتان.

– ولماذا صلبتم صدوركم؟ وما حاجتكم بالتصليب؟ هل تؤمنون بالله لا شك؟

– لقد قيل لنا أن لا نزعجهم. لا ندرى ما نصنع معهم. إنهم كلهم كالمجانين هناك، يبقون ساعات طويلة واقفين وبعدئذ فاذا بهم يركعون يصلبون وحينئذ نعتقد أنه ينبغى أن نصنع صنيعهم كيلا ينجرح شعورهم.

ـ إذن لا تذهبوا إليهم، لا يجب!

ـ طيب، ماذا؟ لن نذهب... ولكن هذا شئ مضحك عندهم! إنهم يتكلمون كلاما كله غمغمة. ثم ينتصبون جميعا واقفين. ما الفائدة من هذا؟ ووراء ذلك الحاجز... كيف.. آه نعم المذبح، وكل شئ نظيف إذ هناك سجادات صغيرة وتفوح رائحة لا أعرف ما إسمها. ثم هناك الكاهن وحده يلوح بذراعيه فى الهواء هكذا... شيء عظيم!

ـ وهل دخلت أنت في المذبح؟

ـ نعم، لقد دخلت فاذا الكاهن فى هذه اللحظة يرفع ذراعه فى الهواء ويغمغم شيئا. ظللت هناك دون أن أضايقه بشئ ولكنه قال: اذهب! اذهب يا صغير لا تضايقنا. فخرجت حينئذ فماذا كان إذن...

كان الأولاد يحبون أن يروا كيف تصرف غوستويفان تجاه الكنيسة فقد ذهب فعلا مرة ولكنه عاد غير مسرور. سأله لابوت:

ـ هل ستصبح عما قريب شماسا؟

فقال غوستويفان مبتسما: ــ لا...

ــ لماذا؟

ــ لأن... الأولاد يقولون أن هذا معاد للثورة... ثم هناك فى الكنيسة لا يوجد شئ... غير الرسوم....

كانت الاصلاحية قد نظمت كلها فى منتصف شهر حزيران. ففى العاشر من حزيران أخذت محطة الكهرباء تقدم تيارها الأول، فوضعت المصابيح البترولية جانبا وبعد حين قليل صارت عندنا مياه جارية فى الأنابيب وفى وسط شهر حزيران أيضا إستقر الأولاد فى المهاجع. كانت الأسرة قد جددت تجديدا كاملا تقريبا فى مصنع حدادتنا وزودت بفرش ووسائد جديدة إلا أنه ما كان لدينا مال كاف لشراء اللحف وما كنا نريد أن نغطى الأسرة بأكوام من الأسمال البالية. كان يلزم لذلك على أقل تقدير عشرة آلاف روبل. وقد بحث مجلس القادة هذه المسألة عدة مرات وكان ينتهى إلى هذا القرار الذى كان يصوغه لابوت فى كل مرة هكذا:

ـ إذا إشترينا اللحف فلن ننجز بناء زريبة الخنازير.
لعنة الله على هذه اللحف!

ما كانت اللحف فى الصيف تستعمل إلا للعرض. ومع ذلك فقد كان جميع الأولاد يودون أن يطعوا مظهرا أنيقا للمهاجع بمناسبة عيد الحصاد. وقد كانت المهاجع فى غضون ذلك غشاء على حياتنا البهيجة.

ولكن الحظ قد أسعفنا.

كان خالابودا كثيرا ما يتردد على الاصلاحية ويتجول فى المهاجع ويزور الاصلاحات والابنية ويمزح مع الأولاد فيزدهى من أن الأولاد مستعدون لحصاد الجودار الذى زرعه بأبهة كبيرة. فكان خالابودا يأخذهم بالود واللطف. ويقول.

ـ إن المرأتين هناك لا تفتآن تثرثران: هذا ـ كما تعلم ـ لن يتم، هذا ليس صحيحا وأنا ما توصلت إلى الفهم وأود بلهفة لو يشرح لى أحد ماذا يلزمهما؟ إن الأولاد يشتغلون أنفسهم كالأولاد الطيبين مثل الشبيبة الشيوعية. ربما أنت الذى أثرت حنقهما لا شك؟

بيد أن خالابودا كان يبرد شعوره وهو يشاطرنا بمودة متاعبنا اليومية حينما كنا نحدثه عن اللحف. فكان لابوت يداوره من جهات شتى:

فتنهد قائلا: — نعم جميع الناس عندهم لحف إلا نحن. ومن سعادتنا أنه كان لدينا سيدور كاربوفيتش. سترى إنه سيهدينا اللحف...

إستدار خالابودا وزمجر ممتعضا:

— إن الأولاد الملاعين لن يعدموا الخبث والمكر... «سيدور كاربوفيتش سيهدينا اللحف».

وفى اليوم التالى خفف لابوت من النغمة:

— هكذا إن سيدور كاربوفيتش لن يساعدنا نحن أولاد غوركى المساكين!

على أن تخفيف النغمة لم يجد شيئا على الرغم من أننا كنا نرى سيدور كاربوفيتش يشعر باضطراب في نفسه.

وذات مرة وصل خالابودا مساء مشرق النفس فأثنى على الحقول والآفاق وزريبة الخنازير والخنازير. وإبتهج

بروئية الأسرة مصفوفة فى المهاجع والزجاج نظيفا شفافا والأرض رطبة والوسائد الوثيرة المنجّدة. كانت الأسرة حقا تقذى العين ببياضها الناصع من الشراشف بيد أننى ما كنت أريد أن أضجر الرجل العجوز بالتحدث إليه عن اللحف. وإغتمت نفس خالابودا وقال وهو يبارح المهجع :

ــ نعم، فليكن إلى الجحيم... لا بد من اللحف... ولكن هنا الصعوبة... فى الحصول عليها.

وحينما خرجنا إلى الباحة كان الأولاد الأربعمئة مصفوفين فيها. كانت ساعة الرياضة. فأمر بيوتر إيفانوفيتش غوروفيتش وفقا لنظام الخدمة الداخلية فى الاصلاحية

ــ أيها الرفاق الأولاد: تهيأ! سلام خذ!

وبحركة واحدة تصلبت أربعمئة ذراع فوق الرأس وإلتفتت صوبنا. وعزفت فرقة الطبول تحية إستقبال دوت في الأرجا. وجاء غوروفيتش لتقديم التقرير وصحح الوضع أمام خالابودا :

ــ أيها الرفيق رئيس لجنة حماية الطفولة! تفقد أولاد غوركي: ٣٨٩ ولدا حاضرون في صفوف التمارين

الرياضية، والبقية الغائبون: ٣ في الخدمة المناوبة، و ٦ في الحراسة وإثنان مريضان.

وكان بيوتر إيفانوفيتش فارسا قديما فوقف جانبا وكشف لعيني سيدور كاربوفيتش المسافات الرياضية العريضة لصف بديع شكله الأولاد.

أمسك سيدور كاربوفيتش بشاربه وهو منفعل متأثر. وإتخذ وضعا جديا فجأة أكثر من ذي قبل بكثير جدا وضرب الأرض بعصاه وقال بصوت عال:

— مرحبا أيها الأولاد!

ولم يعد يبقى لسيدور كاربوفيتش إلا أن ترف أجفانه رفيفا صاعقا عندما ردت عليه أربعمئة حنجرة فتية مرحة بصوت واحد داوٍ:

— مرحبا!

ولم يتمالك خالابودا نفسه فابتسم وإلتفت وهمهم بصوت مضطرب:

— يا للكلاب الملاعين لهذا الصوت! طيب أريد... أريد أن أقول لهم شيئا.

ـ إسترح!

فأرخى الأولاد ساقهم اليمنى ووضعوا أيديهم وراء ظهرهم وأرجحوا قامتهم وإبتسموا لسيدور كاربوفيتش.

ضرب سيدور كاربوفيتش الأرض بعصاه مرة ثانية وأمسك بشاربه مرة أخرى أيضا.

ـ تعلمون أيها الأولاد أننى لا أحب أن ألقى الخطب غير أنني الآن سألقى عليكم كلمة. ها أنتم أولاد نشيطون! أقول هذا فى وجهكم. كل شىء يجرى عندكم على طريقتنا العمالية، كل شىء يجرى على ما يرام وأقول لكم بصراحة: لو كان عندى ولد لتمنيت أن يكون مثلكم. لا تشغلوا أنفسكم بما تحكيه فئات من النسوة هناك. أقول لكم بصراحة: تابعوا نهجكم لأننى ـ أنا البلشفى القديم والعامل القديم ـ أرى ذلك: كل شىء يجرى عندكم على طريقتنا. وإذا قال لكم أحد: هذا ليس كما يجب عمله فلا تعيروه التفاتا وإمشوا إلى الأمام. أفهمتم: إلى الأمام. هذا! وإشارة إلى ذلك أقول لكم الآن فورا: سأعطيكم لحفا لتضعوها على بطونكم!

سارع الأولاد إلينا من الصفوف التي تحطمت كأنها شظايا لوح من الزجاج تناثرت وقفز لابوت إلى الأمام وجسمه مكوم على عرقوبه، وصاح وهو يلوح بيديه:

ــ ماذا؟ طيب... عاش سيدور كاربوفيتش! عاش!

ما كان لدي ولدى غوروفيتش الوقت تقريبا لنتنحى جانبا فرفعوا خالابودا بأيديهم إلى الأعلى وأخذوا يجعلونه يطير في الهواء عدة مرات وأخذوه إلى النادى: كانت عصاه وحدها تبرز من وسط الجمهور.

وعند مدخل النادى وضعوه على الأرض. كان مشعثا أحمر اللون مضطربا، فأخذ يصلح وضع جاكيته ويدس يده في جيبه يفتش وقد علته الدهشة حينما إقترب تارانتز وقال له مسرا في أذنه:

ــ ها هي ذى ساعتك، وخذ أيضا محفظة نقودك ومفاتيحك.

ــ كل هذا قد وقع مني؟

فقال تارانتز: ــ لا! وإنما أخذتها احتراسا من أن

تقع وإلا فربما كانت تسقط وتضيع... أمور تحدث... كما تعرف....

تناول خالابودا أشياءه الثمينة من يد تارانتز الذى عاد إلى الجمهور.

ـ أولاد حقا!.. وأيم الحق!

وإذا به ينفجر ضاحكا:

ـ آه، أنتم... ما هذا؟ أين هذا الذى أخذ من قبيل الاحتراس؟

وعاد إلى المدينة وقد لانت شكيمته!

وصعقت فى اليوم التالى حينما أبدى لى سيدور كاربوفيتش نفسه فى مكتبه الفاخر برودة غريبة فى حين كان يقلب فى سجلاته وهو يمخط غير مهتم كثيرا بمحادثتى بل كان غارقا فى التفتيش فى جراره.

فقال لي: ـ لا يوجد لدينا لحف. لا يوجد شيء منها عندنا.

ـ أعطنا المال ونحن نشترى.

ـ وليس عندنا مال... لا توجد مخصصات لهذا.
ـ ولكنك البارحة؟
ـ وماذا قلت؟ كل ما كان هناك... مجرد كلام.
فإذا لم يكن مال... فما العمل؟

تمثلت الوسط الذى كان يعيش فيه سيدور كاربوفيتش وتذكرت شارل داروين فرفعت يدى بالتحية إلى حافة قبعتى وخرجت.

إستقبل نبأ حنث سيدور كاربوفيتش بوعده بسخط شديد في الاصلاحية حتى غالاتنكو احتد غاضبا.

ـ أنظر يا له من رجل! لا يمكنه الآن أن يجيء إلى الاصلاحية هو الذى كان يقول: «سآتى لأرى حقل البطيخ وسوف أقوم بحراسته»...

وفى اليوم التالى رفعت إلى لجنة التحكيم شكوى ضد رئيس لجنة حماية الطفولة ولم ألح على الناحية الحقوقية فى القضية بل على الناحية السياسية: نحن لا نستطيع أن نقبل أن يحنث بلشفى بوعده.

وبعد ثلاثة أيام استدعتنا ـ أنا ولابوت لجنة التحكيم

فتملكتنا الدهشة. فأمام طاولة المحكمة الحمراء، أخذ خالابودا يسرد تفسيراته. ووراء ظهره قبع ممثلو الوسط المحيط صامتين وعلى عيونهم النظارات وأعناقهم موسومة، وفي وجوههم شوارب دقيقة على الطريقة الامريكية وهم يتهامسون فيما بينهم. كان الرئيس بقميص روسى أسود وذا جبهة عريضة وعينين كستنائيتين فوضع أصابعه الخمسة متباعدة على إحدى الأوراق وسأل خالابودا:

– إنتظر يا خالابودا. قل بصراحة: هل وعدتهم بلحف؟

فاحمر خالابودا خجلا ثم قال وقام بحركة بيديه:

– يعنى... بصدد الأمر. ماذا لا يقوله المرءُ فى غمرة الحديث؟

– أمام صف الأولاد؟

– نعم هذا صحيح... لقد كان الأولاد مصطفين.

– هل رفعوك بأيديهم فى الهواء؟

– هؤلاء الصبيان... نعم مؤكد... ماذا تريد أن تصنع فى ذلك؟

ـ ادفع.

ـ كيف؟

ـ ادفع ـ أقول لك! ـ يجب أن تقدم اللحف. هذا هو قرارنا.

إبتسم القضاة. وإلتفت خالابودا إلى الوسط المحيط وغمغم تهديدات مبهمة. وإنتظرنا عدة أيام ثم ذهب زادوروف إلى خالابودا كي يأخذ اللحف أو الدراهم. ولم يقبل خالابودا أن يستقبله وشرح له وكيله قائلا:

لا أفهم كيف خطر لكم أن تقيموا دعوى علينا. ما هذه الوسائل؟ طيب ها نحن أخذنا قرار التحكيم. إنه هنا أرأيت؟

ـ طيب، وبعدئذ؟

ـ وبعدئذ هذا كل شيء! لا تكلف خاطرك بالازعاج وتأتي. ربما قررنا نحن أيضا أن نستأنف الحكم! وعند الاقتضاء سندخل ذلك إلى ميزانية العام القادم. لعلكم تحسبون أنكم لم يبق إلا أن تسارعوا إلى السوق لتشتروا اللحف الأربعمئة؟ أنتم تتصرفون مع دائرة جدية....

عاد زادوروف من المدينة مغلوبا على أمره. فغلى مجلس القادة من السخط وأرعد وأزبد ثم قرر المجلس توجيه رسالة إلى غريغورى ايفانوفيتش بتروفسكى. بيد أنه فى اليوم التالى أكتشف الحل بسيطا وطبيعيا جدا وممتعا جدا فى الوقت ذاته حتى إن الاصلاحية كلها ضحكت ونطت لهذا المخرج غير المتوقع: فأخذ الأولاد يحلمون باللحظة السعيدة التى سيقدم فيها خالابودا إلى الاصلاحية وسوف يكون فى وسع الأولاد أن يحدثوه. كان الحل هو قيام رسول المحكمة بالحجز على الحساب الجارى لحماية الطفولة. وإنقضى يومان أيضا فاستدعيت إلى نفس المرافعة العليا وكان هناك نفس الرفيق الحليق الذى كان فى وقته مهتما بالأسباب التى ما كان المربون بأربعين روبلا ليعجبونى، كان جالسا فى أريكة واسعة وهو يحمر إحمرارا مرحا برؤية خالابودا الذى كان يتجول فى المكتب وهو محمر الوجه أيضا ولكن بشكل آخر.

وقفت على العتبة دون أن أنبس ببنت شفة ولكن

الرجل الحليق إستدعاني باصبعه وهو يكبت فرحته وضحكه بجهد.

ـ إقترب... كيف هذا؟ كيف تجرأت أن تصنع هذا يا صديقي؟ ليس هذا حسنا، يجب رفع الحجز وإلا... كما ترى. يمشي هنا ولا يستطيع أن يضع يده في جيبه. جاء يشتكي منك ويقول: لا أريد أن أعمل، إن مدير إصلاحية غوركي يهينني.

لزمت الصمت لأنني ما كنت أبصر إلى أين يود الرجل الحليق أن يصل؟

قال بجد: ــ يجب أن ترفع الحجز. ما هذه البدع التي إبتدعتموها: الحجز!

وفجأة لم يستطع أن يتمالك نفسه فانفجر بالضحك من جديد في أريكته. وكان خالابودا يدس يديه في جيوبه وينظر الى الباحة:

فسألت: ــ هل تأمر برفع الحجز؟

ــ هذا ما ينبغي شأنه: لايحق لى أن آمر. أسمعت يا سيدور كاربوفيتش لا يحق لى! فلو قلت له: إرفع

الحجز فقد يجيبني: لن أصنع! إنني أرى أنه في جيبك دفتر شيكات وقع. هيا! كم؟ عشرة آلاف؟ هيا...

إبتعد خالابودا على النافذة وأخرج يده من جيبه ورفعها إلى شاربه الأشقر وإبتسم:

ـ لا بد أن يكون أناس أوباش مع ذلك! ماذا تقول؟

إقترب مني وربت على كتفي:

ـ إنك رجل داهية! هكذا يجب أن يكون التصرف معنا. نحن بيروقراطيون! هكذا يجب أن يكون العمل!

وإنفجر الرجل الحليق مرة ثانية بالضحك، وإبتسم خالابودا وتناول دفتره وكتب شيكا.

وفي اليوم الخامس من شهر تموز إحتفلنا بعيد الحصاد.

إنه عيدنا القديم بمراسمه الموضوعة منذ عهد بعيد وقد أصبح أهم مرحلة من تقويمنا السنوي. غير أنه في الوقت الحاضر كان الدافع المسيطر الذي يبعثه هذا العيد هو دافع تسليم الاصلاحية بعد عملية عسكرية.

كانت هذه الفكرة تسيطر على جميع الأولاد، فكانوا يقومون بالتحضيرات «دونما إنقطاع» فى فورة عميقة من العاطفة التى تطغى عليها هذه الارادة الحازمة: كل شيء يجب أن يكون كاملا. ولم يكن ليبقى شئ غير كامل فى أى مكان: كانت اللحف الحمراء على الأسرة جديدة كل الجدة وكانت البركة تلمع كمرآة صقيلة وكان يمتد على سفوح الهضبة سبعة سطوح جديدة أحتفظت للبستان الجديد. كل شئ قد تم. كان سيلانتى يذبح الخنازير وكانت الكتيبة المختلطة التابعة لبوتزاى تعلق الأكاليل والشعارات. وفوق مدخل الباب وضع كوستيا فيتكوفسكى بعناية هذا الشعار:

سنجعل راية العمل الحمراء ترفرف على الأرض

بينما كانت عين المرء تقرأ فى الداخل هذه العبارة الموجزة:

سمعا وطاعة!

وفى اليوم الثانى من الشهر ذهبت الكتيبة المختلطة الثالثة عشرة بقيادة جيفيلى إلى المدينة لتوزع الدعوات.

وفى يوم الاحتفال منذ الفجر كان نصف هكتار الجودار الذى ينتظر الحصاد قد أحيط بالأعلام الحمراء وكان الطريق مزينا بالأعلام والأكاليل. وعند مدخل الباب كانت لجنة الاستقبال جالسة أمام طاولة. وفى أعلى وهدة البركة أقيمت موائد لستمئة شحض وكانت نسمة لطيفة تعبث بأطراف أغطية الموائد البيض وأوراق زهور الباقات ولباس لجنة المطعم.

امتطى سيننكى وزايتشنكو صهوة الجوادين «الصبى» و «مارى» وهما يلبسان بنطلونا قصيرا وقميصا أحمر ويضعان على رأسيهما قبعتين كبيرتين قوقازيتين لونهما أبيض ووقفا بالمرصاد خارج الأبواب في أسفل الطريق. كانت ترفرف على أكتافهما أوشحة بيضاء مزدانة بنجوم حمراء ومطوقة بجلد أرنب أبيض. كان فانيا زايتشنكو قد تعلم فعلا خلال أسبوع واحد معزوفاتنا التسع عشرة ورآه غوركوفسكى قائد فصيلة البواقين جديرا بأن يكون

أحد عازفى الأبواق فى يوم الاحتفال فحملا بوقيهما بحمائل حريرية عبر الأكتاف.

وفى الساعة العاشرة لاح أوائل المدعوين جاءوا سعيا على الأقدام من محطة ريجوف. لقد كانوا ممثلى الشبيبة الشيوعية فى خاركوف. رفع الفارسان بوقيهما وتركا أشرطة الحرير تنزلق على أكتافهما وعزفا ثلاثة أنغام للاستقبال.

ابتدأ الاحتفال. وكانت لجنة الاستقبال عند الأبواب وعلى أيديها شارات زرقاء كاشفة، تستقبل الضيوف وتعلق على صدر كل مدعو ثلاث سنابل من الجودار مربوطة بشريط أحمر وتسلمه البطاقة الخاصة به وقد كتب عليها مثلا:

> «الكتيبة الحادية عشرة لأولاد
> الاصلاحية تدعوكم إلى الجلوس على مائدتها.
> قائد الكتيبة د. جيفيلى».

كان الضيوف يؤخذون لزيارة الاصلاحية بينما من الأسفل كانت أنغام جديدة تدوى من فارسينا البديعين.

كان ضيوفنا يملأون الباحة والأماكن. وجاء ممثلو مصانع خاركوف وشغيلة اللجنة التنفيذية المحلية ومفوضية الشعب للتعليم العام وسوفيتات القرى المجاورة ومراسلو الصحف ووقفت عند الأبواب السيارات التى تقل جورينسكايا ويوربيف وكلامير وبريجيل والرفيقة زويا وأعضاء منظمات الحزب. وجاء الرفيق الحليق أيضا بالسيارة وكذلك خالابودا بسيارته «فورد». وقد إستقبله مجلس القادة الذى إجتمع خصيصا لهذا الغرض فاختطفوه من السيارة ورفعوه فى الهواء فورا يتأرجح على سواعدهم. كان الرفيق الحليق يضحك وهو واقف فى الطرف الأخر من السيارة وحينما إستقر خالابودا على الأرض سأله:

ـ ماذا وعدت لهم وأنت طائر هذه المرة؟

فاتخذ خالابودا هيئة السخط وقال:

ـ وماذا تعتقد أنت؟ إنهم يعرفون كيف ينتزعون الوعود؟

ـ آه صحيح؟ وكيف؟ ماذا؟

ـ جرارة! لقد أهديتهم جرارة... طيب هيا مرة أخرى، أما الآن فكفى!

ولم ينج خالابودا من حفلة طيران هوائي أخرى ثم أخذه الأولاد إلى الباحة.

كانت الباحة تعج بالناس كما في الشارع الرئيسي في المدينة. كان الأولاد مزينين بأمواج الأشرطة الحريرية ويمشون بصفوف عريضة منتظمة في الممرات مختلطين بالمدعوين ويبتسمون لهم بشفاه ناضرة ووجوه مشرقة ببهجة غامضة حينا وسافرة حينا ويلفتون إنتباه ضيوفهم إلى شئ ويأخذونهم لرؤية شيء آخر.

وعند الظهر عاد سيننكي وزايتشنكو إلى الباحة وإنحنيا على سرجي جواديهما يتبادلان الهمس مع القائدة المناوبة ناتاشا بيترنكو ثم إنطلق سيننكي إلى باحة المزرعة جاعلا الضيوف والأولاد يفرون ضاحكين. وبعد دقيقة دوت هناك أنغام الاجتماع العام التي تطلق بصوت اعلى من الأنغام الأخرى. وردد زايتشنكو العزف. فترك الأولاد ضيوفهم وسارعوا إلى الساحة الرئيسية ولم يكد نغم البوق الأخير يطير إلى ريجوف حتى تشكلوا صفا وفي الجانب

الأيسر هرع ميتيا نيسينوف براية خضراء ملطفا الحضور. أخذت أشعر بكل عصب فيّ بانتصاري. هذه الجبهة الطلقة من الأولاد التي مدت شريطها الأزرق والابيض حول حواف المساكب قد صدمت أبصار الحضور وأذواقهم وعاداتهم ثم سرعان ما إستحوذت على إحترامهم. وإذا بوجوههم يعلوها توتر الانتباه بعد ما كانت تحتفظ بطابع اللطف المألوف لكبار الشخصيات التي تتطلع إلى الأولاد. وصاح يورييف وهو واقف ورائي:

ـ برافو! يا أنطون سيميونوفيتش. هكذا يجب أن يكون!..

كان الأولاد ينجزون بعناية الاصطفاف ويلقون عليّ النظرات من حين إلى آخر. كنت متأكدا أن كل شيء قد أنجزت في كل مكان ولم أتردد في الأمر:

ـ للعلم تهيأ!

ومن وراء جدران الكنيسة برزت ناتاشا التي كانت تسير بخطى منتظمة على إيقاع التحية وتقود إلى الجانب الأيمن حرس العلم.

وبعبارة موجزة وجهت إلى الأولاد تهنئاتى بالعيد وبظفرهم.

— والآن قدموا شرف حصاد أول حزمة إلى خيرة رفاقنا إلى الكتيبة المختلطة الثامنة التابعة لبورون.

عزفت الأبواق من جديد وفتحت أبواب متباعدة مصاريعها وخرجت من ساحة المزرعة الكتيبة المختلطة الثامنة. أوه! يا ضيوفى الأعزاء. إننى أدرك إنفعالكم، أدرك إنخطاف أبصاركم المسحورة لأننى ما كنت لأول مرة فى حياتى أتأثر من المسحر المهيب للكتيبة المختلطة الثامنة. لقد أتيحت لى الفرصة دونما شك لأن أرى وأشعر أكثر منكم.

جاء على رأس الكتيبة بورون وهو الولد القديم النبيل وقد قاد كتائب الاصلاحية إلى العمل أكثر من مرة. كان يحمل على كتفه العاتى منجلا مسلحا حادا تزينه الأزهار. إن بورون اليوم فى أبهة جمال بهى، وخصوصا بالنسبة لى لأننى أعرف أنه ليس شخصا يزين الصورة الحية وليس ولد الاصلاحية جدير بأن يتأمله الناس فحسب

بل إنه قائد حقيقي يعرف من يقودهم ويعرف إلى اين يقودهم. كنت أقرأ على صفحة وجهه الصارم الهادئ تفكيره: ينبغي اليوم في خلال ثلاثين دقيقة أن يتم الحصاد ووضع محصول نصف هكتار الجودار بيدرا مكوما. لم ير الضيوف ذلك. لم ير الضيوف كذلك أن قائد الحصادين في هذا اليوم هو طالب في معهد الطب وهكذا تتحالف بشكل عاقل خطوط نموذجنا السوفييتي. وهناك أشياء أخرى لم يرها الضيوف ولا يستطيعون أن يروها وليس هذا إلا لأنه لا يكفي النظر إلى بورون. كان يتقدم وراءه ستة عشر حصادا بصفوف أربعة وقمصان بيضاء ومناجل مزهرة. ستة عشر حصادا! ما أسهل عدهم! ولكن بين هذه الستة عشر كم من إسم مجيد مثل: كارابانوف وزادوروف وبيلوخين وشنيدر وغيورغيفسكي! كان الصف الأخير فقط يتألف من أولاد جدد من إصلاحية غوركي مثل: فوسكوبوينيكوف وسفاتكو وبيريتز وكوروتكوف.

ووراء الحصادين كانت ست عشرة فتاة، وعلى رأس

كل واحدة تاج من الزهور وفي القلب تاج أيامنا السوفييتية البهيجة. إنهن جامعات السنابل.

إقتربت الكتيبة المختلطة الثامنة منا عندما إنطلقت من الباب حصادتان تعدوان يجر كل واحد منهما زوجان من الجياد كان شعر رقبة الجياد وطقمها مضفورة بالأزهار وكانت الأزهار تزين الحصادتين كذلك. وكان على سرج الجوادين اللذين على اليمين يجلس السائقان، فعلى الآلة الأولى أنطون براتشنكو بشخصه وعلى الثانية غوركوفسكي. ووراء الحصادتين كان مشطان تجرهما الجياد ثم برميل الماء وعليه يتربع غالاتنكو أكسل الأولاد في الاصلاحية ولكن مجلس القادة منحه دونما قلق معطيا إياه هذا المكان في الكتيبة الثامنة. وكان في وسع المرء الآن أن يرى بأي همة وبأي خفة زين غالاتنكو البرميل بالأزهار. لم يكن هذا برميلا بل مسكبة للأزهار عاطرة مليئة بالأزهار حتى الدواليب. وأخيرا كانت تختم الموكب وراء غالاتنكو عربة تحمل الصليب

الأحمر فيها إيلينا ميخائيلوفنا وسمينا: كل شيء مفاجئ يمكنه أن يحدث أثناء العمل.

وقفت الكتيبة الثامنة أمامنا وخرج لابوت من صفوفنا وقال:

ـ أيتها الكتيبة الثامنة! بما أنكم خيرة الشبيبة الشيوعية وخيرة أولاد الاصلاحية وخيرة الرفاق فقد خصصت لكم الاصلاحية هذه المكافأة: وهو أن تحصدوا الحزمة الأولى من الحقل. فقوموا بهذا العمل كما يجب وبينوا مرة أخرى إلى الأولاد كيف يجب أن يكون العمل وكيف ينبغي أن تكون الحياة. إن مجلس القادة يهنئكم ويرجو قائدكم الرفيق بورون أن يضعنا جميعا تحت إمرته.

هذه الخطب مع كل الخطب التي تلت لا أدري من صاغها كانت تكرر من عام إلى آخر بنفس التعابير المسجلة في مجلس القادة وهذا ما كان يدعو الى الاصغاء إليها بانفعال خاص فيبقى الأولاد كلهم معلقي الأنفاس حينما يقترب مني بورون ويصافحني ويلقى هذه الكلمات اللازمة:

– أيها الرفيق المدير! هل تسمح بقيادة الكتيبة الثامنة إلى العمل وأعطنا هؤلاء الأولاد مساعدين لنا.

فأجبت كما يجب عليّ:

– أيها الرفيق بورون: قُد الكتيبة الثامنة إلى العمل وخذ هؤلاء الأولاد مساعدين لكم.

ومنذ هذه اللحظة أصبح بورون قائد الاصلاحية فأصدر سلسلة من الأوامر لتبديل الجبهة وبعد دقيقة بدأ الجميع يمشون. ووراء الطبول والعلم جاء الحصادون وآلتا الحصاد تتبعهم بقية الاصلاحية ثم المدعوون وإنصاع الضيوف للنظام المشترك فاصطفوا ووحدوا خطاهم مع الموكب. وقال خالابودا الذى كان يمشى إلى جانبى، للرفيق الحليق:

– آه لعنة الله على الشيطان! لو لا هذه اللحف لكنت فى الصفوف... وفى يدى منجل!

أشرت برأسى إلى سيلانتى وطار الى ساحة المزرعة. وحينما بلغنا الجودار أوقف بورون الصف وحطم التقاليد وسأل الأولاد:

لقد أقترح تعيين سيدور كاربوفيتش خالابودا فى الكتيبة الثامنة كحصاد خامس فى فئة زادوروف. هل هناك من إعتراض على ذلك؟

ضحك الأولاد وصفقوا وأخذ بورون منجلا مزينا من يد سيلانتى وسلمه لخالابودا. أما سيدور كاربوفيتش فبحركة سريعة خفيفة طرح جاكيته، ورماه على الأرض وهز المنجل:

ــ شكرا!

وجاء وإصطف فى الموضع الخامس فى صف حصادى زادوروف. فأنذره زادوروف مشيرا باصبعه:

ــ حذار من أن تغرز المنجل فى الأرض! فيكون العار لفريقنا...

فقال خالابودا: ــ دعنى! أنا أعلمكم...

وإصطف صف الأولاد فى طرف من الحقل وأخذ العلم إلى المكان الذى ستحزم فيه الحزمة الأولى. وإلى جانبه وقف بورون وناتاشا وزورين الذى وقف بوضع التهيؤ بصفته أصغر أعضاء الاصلاحية.

ـ تهيأ!

شرع بورون يحصد وبعدة ضربات من منجله رمى عند قدمى ناتاشا كومة من سنابل الجودار العالية. ولأول جزة هيأت ناتاشا ربطة. وببعض الحركات البارعة ربطت الحزمة وطوقتها فتاتان باكليل من الأزهار فسلمتها ناتاشا إلى بورون وهى متوردة من جهدها ونجاحها. فرفع بورون الحزمة على كتفه وقال لزورين الذى كان يمد نحوه عاليا وجهه الرصين ذا الأنف المشمور:

ـ خذ هذه الحزمة من يدى وإعمل وتعلم كى تصبح من الشبيبة الشيوعية، وحالما تكبر تستحق أيضا الشرف الذى وقع علىّ اليوم بحصد الحزمة الأولى.

وجاء دور زورين فأجاب لبورون بصوت يرن كصوت القبرة فوق الحقل:

ـ شكرا لك يا غريتسكو! سأعمل وأتعلم وحالما أكبر سأصبح من الشبيبة الشيوعية وأستحق أنا أيضا شرف حصد الحزمة الأولى لأسلمها لأصغر الأولاد.

أخذ زورين الحزمة وتوارى بها ولكن الصبيان سارعوا إليه بنقالة فوضع زورين هديته النفيسة على سرير من الزهور.

وقرعت الطبول فى الحقول وجاءت الحزمة الأولى والعلم ليأخذا مكانا فى الطرف الأيمن.

فأمر بورون:

— أيها الحصادون والرابطات خذوا أماكنكم!

وسارع الأولاد ليأخذوا أمكنتهم فى الأركان الاربعة لحقل الجودار. كان سيننكى فوق صهوته ينفخ فى بوقه: إلى العمل! وبهذه الاشارة أخذ سبعة عشر حصادا يدورون حول الحقل ومناجلهم ترمى جانبا القش المحصود ويفسحون دربا وسيعا للحصادتين.

نظرت إلى ساعتى فما إنقضت خمس دقائق حتى رفع الحصادون مناجلهم فى الفضاء. وأنجزت الرابطات ربط الحزم الأخيرة وحملنها جانبا.

وحانت اللحظة الجدية من العمل. كان أنطون وفيتيا وجيادهما النشيطة القوية مستعدين.

ـ إلى العمل... سر!

كانت الحصادتان تملآن بخطى ثابتة الدروب المهيأة. وبعد لحظتين أوثلاث أخذتا تعملان فى الجودار وترتفع أصوات القرقعة منهما. كان بورون يتتبع بأذن صاغية عملهما. ففى الأيام الأخيرة كان أنطون وشيرى يركبان ويعيدان التركيب ويعملان كثيرا فى الحصادتين وذهبا مرتين للتجربة فى الحقول. إنه لشىء فاضح إذا رفضت الجياد أن تخب فيجب أن يصرخ فيها وتقف الحصادتان ولا تتحركان.

ولكن وجه بورون بدأت أساريره تشرق تدريجيا. كانت الحصادتان تسيران بايقاع آلى متساو والجياد تخب بيسر دون أن تبطئ عند المنعطفات والولدان لا يتحركان على سرج الجوادين. فكان الدور الأول ثم الثانى وفى الدور الثالث مرت الحصادتان أمامنا بمشية جميلة، فقال أنطون بجد ورصانة لبورون:

ـ كل شئ يجرى على ما يرام أيها الرفيق القائد!

وإلتفت بورون صوب جبهة الأولاد ورفع منجله وصاح:

ـ إنتبه! تهيأ!

فانسدلت أيدى الاولاد، بيد أنها كانت تضج بالنشاط وما كانت العضلات المتحمسة تجد سبيلا الى التماسك:

ـ إلى الحقل... هيا!

خفض بورون منجله وإنقض ثلاثمئة وخمسون ولدا على الحقل. وكان فى صفوف الحصيد خليط من السواعد والسيقان، وكان يدحرج بعضهم بعضا كالطابات ويضحكون ويربطون الحصيد ويندفعون وراء الحصادتين وينقضون منبطحين ثلاثة أو أربعة على كل قبضة من السنابل.

ـ هذا للكتيبة الخامسة عشرة!

كان المدعوون يضحكون ويجففون الدموع وخالابودا كان قد عاد الى جماعتنا فنظر بصرامة إلى بريجيل:

ـ وأنت تقولين... ولكن انظرى!

فتبتسم بريجيل قائلة:

ـ طيب نعم! أري: إنهم يعملون عملا جيدا جدا وبمرح. ولكن أخيرا إنه مجرد عمل فقط...

تلفظ خالابودا نوعا من الأصوات بنفس الحروف التى لكلمة «ق... ب...» وإنتهى دون أن يطيل الحديث مع بريجيل فنظر ساخطا إلى الرفيق الحليق وقال:

ـ احلك معها!

جاء يورييف مضطربا وسعيدا وصافحنى وسعى إلى اقناع جورينسكايا:

ـ لا أبدا... ولكن فكرى!... أنا هذا يمسنى ولا أدرى لماذا؟ إنه لعيد اليوم حقا، وبالطبع إن العيد ليس الشئ نفسه كيوم العمل... ولكن كما تعرفين هذا... هذا سر العمل أفهمت؟

تأمل الرجل الحليق يورييف بامعان وقال:

ـ سر العمل؟ لماذا هذا؟ في رأيى هذا هو الشئ الحسن هنا: إنهم سعداء ومنظمون ويعرفون كيف يعملون وللفترة الأولى وأيم الحق هذا يكفى. ما رأيك أيتها الرفيقه بريجيل؟

ما كان لدى بريجيل الوقت لتفكر لأن سيننكى أوقف جواده فجأة أمامنا وقال:

ـ يقول بورون... سنصنع أكداسا. اجتماع للجميع عند الأكداس.

وعند الأكداس وتحت العلم أنشدنا نشيد «الانترناسيونال» وجرت خطب سواء كانت ناجحة أم لا بيد أنها جميعاً مخلصة والذين ألقوها كانوا أناسا حساسين وطيبين ومواطنين من بلاد الشغيلة قد أثر العيد في نفوسهم تأثيرا بالغا وكذلك أثر فيهم الأولاد والسماء القريبة والموسيقى التى تصر فى الحقل من الجنادب.

ولدى العودة تغدينا بشكل اعتباطى دون الاهتمام برتب السن والمقام حتى الرفيقة زويا كانت فى هذا اليوم تمزح وتضحك.

دام الاحتفال طويلا. ثم جرت العاب شتى. فعصبت عينا خالابودا ووضع فى يده منديل مجدول وأرغم على مطاردة صبى يحرك جرسا وهو لا يوفق فى اللحاق به. ثم أخذ الضيوف إلى الاستحمام فى البركة

ومثل الصبيان فى الساحة الرئيسية تمثيلية وافتتحت التمثيلية باستهلال النشيد بشكل جماعى:

ماذا سترون هنا بعد خمس سنوات؟
ستنشأ مدينة ومعها مجلسها للسوفييت
وسوف يزين باحتنا معمل جديد
وسوف يطوق تلنا بالبساتين
وإننا نحلم
بأراجيح كهربائية!

ويسدل الستار على هذه الأمنية:

وسيكون ولد الاصلاحية كالنابض
مرنا لا جامدا متحجرا.

وبعد اطلاق الالعاب النارية على ضفاف البركة أخذنا الضيوف إلى ريجوف. أما الذين جاءوا بالسيارات فقد انطلقوا مبكرين بعد ما استأذنوا منى بالانصراف. أما «السيد» الحليق فقال:

— والآن ماذا؟ واصل عملك على هذه الشاكلة أيها الرفيق ماكارنكو!

فاجبت: — سمعا. سأواصل العمل!

١٢. الحياة تستمر

ومن جديد جرت أيام العمل شديدة مرحة مليئة بالمتاعب والنجاحات الصغيرة والاخفاقات الصغيرة ووراءها كنا فى كثير من الأحيان لا نتبين المراحل الفسيحة والاكتشافات العظيمة التى تحدد مستقبل حياتنا لأمد بعيد. وكما فى السابق، ففى هذه الأيام الكادحة فضلا عن ذلك فى الأمسيات الهادئة، كانت الأفكار تتسق وتتناسق فتستعرض بسرعة أفكار النهار وكانت الروح ترف حول مشارف مستقبل حلو بديع.

ولكن المستقبل كان يأتى ويتكشف عن أنه ما كان أبدا حلوا وانه كان فى الامكان أن لا نحتفى به كل هذا الاحتفاء. وبدون أن نمضى الوقت فى ندب الفرص الضائعة كنا نتعلم شيئا فنعاود الكرة لنعيش عيشة أغنى بالتجربة ونقترف أخطاء جديدة ونواصل حياتنا.

وكما فى السابق كانت عيون قاسية تراقبنا وكانوا يعنفوننا ويبينون لنا أنه ما كان ينبغى لنا أن نقترف أخطاء

وأننا كان يجب علينا أن نعيش حسب الأصول واننا ما كنا نعرف النظرية وأنه كان ينبغى لنا.... وبالاختصار أننا كنا مدينين من كل ناحية.

وسرعان ما نشأت فى الاصلاحية صناعة حقيقية. فبوسائل مشروعة وغير مشروعة نظمنا مشغلا للنجارة مجهزا تجهيزا جيدا بآلات النجر ورسمنا وركبنا بأنفسنا مخرطة لصنع مسامير الخشب وأصبح لنا سوق وأخذنا سلفا من الدراهم واندفعنا فى الجرأة حتى فتحنا حسابا فى البنك.

صنعنا قفائر للنحل من طراز دادان، وكان هذا عملا فيه شئ من التعقيد يتطلب دقة بالغة ولكننا اكتسبنا فى هذا مهارة كبيرة وأخذنا نخرج قفائرنا إلى السوق بالمئات. وصنعنا موبيليا وصناديق للذخائر واشياء اخرى. وافتتحنا كذلك مصنعا للحدادة ولكننا لم نوفق فى هذا الشأن فوقعنا فى كارثة حقة.

كانت الأشهر تمر على هذا المنوال. كنا نحترز النوازل من ذات اليمين وذات الشمال ونتلاءم حينا ونتصنع حينا، وحينا نزمجر ونكشر ونهدد بدهن حقيقى مسموم

وحينا نفلق الفكين على ساق رجل يمر ببابنا، وهكذا استمررنا نحيا ونزداد ثراء وغنى.

وقد صرنا أيضا أكثر غنى فى الأصدقاء. فعلاوة على جورينسكايا ويوربيف كان فى مفوضية الشعب للتعليم العام أناس كثيرون أذكياء فعلا موهوبون بشعور طبيعى من العدالة يرغبون حق الرغبة فى أن يفكروا فى تفاصيل عملنا الشاق. إلا أننا كان لنا أصدقاء أكثر وفرة وعددا فى المجتمع بشكل عام، فى منظمات الحزب والمنطقة، والصحافة وأوساط العمال. فبفضلهم وحدهم لم نعدم التأييد اللازم لمجهودنا.

سار العمل الثقافى على ما يرام. فقد اتسعت المدرسة وتطورت حتى أصبح لها ستة صفوف. وظهر فى الاصلاحية الرجل الجليل القدر فاسيلى نيقولايفيتش بيرسكى أيضا. لقد كان دون كيشوت عصور التكنيك والآدب والفنون. وكانت قامته ونحوله على نمط بطل كتاب سيرفانتس، وقد ساعده هذا كثيرا على تدبير عمل النادى وتنظيمه. كان خياليا جدا وما كنت أضمن أن الدنيا فى

خاطره لا تعج بالأرواح الخيرة والشريرة. ولكنني اوصي الجميع أن لا يعهد بعمل النادي إلا لأناس كدون كيشوت. كانوا يعرفون في كل قطعة من النشارة أن يروا المستقبل وأن ينشئوا بالورق المقوى والألوان تمثيليات خيالية ومعهم الأولاد يؤلفون جرائد الحائط بطول أربعين مترا ويتعلمون أن يميزوا في نموذج طائرة من الورق قاذفة قنابل وطائرة الاستطلاع، وأن يدافعوا حتى آخر قطرة من دمهم عن تفوق المعدن على الخشب. هؤلاء الدون كيشوتيون قد أضفوا على عمل النادي هوى ضروريا وأذكوا نار المواهب واستثاروا المبدعين. وبدون سرد جميع مآثر بيرسكي سأقول باختصار إنه قد بدل شكل سهراتنا وملأها بالنشارات والمبارد وأوعية الغراء والمصابيح وصوت المناشير الحاد وازيز المراوح وخرير المثقب والنشيد على شكل جماعي والتمثيليات الصامتة.

وبدأنا أيضا نخصص كثيرا من الدراهم للكتب. ما كان ثمة المكان الكافي في المحراب لاجل الخزائن والقراء في قاعة المطالعة.

وهناك شئ آخر أيضا.

أولا الأوركسترا. إن اصلاحيتنا كانت الأولى من نوعها فى أوكرانيا وربما فى الاتحاد السوفييتي، فى تنظيم هذا الشئ البديع. فقد فقدت الرفيقة زويا آخر شك لها حول هذا الأمر وهو أننى كنت كولونيل سابقا إلا أنه بالمقابل كان مجلس القادة مسرورا. إن إحداث أوركسترا فى اصلاحية - والحق يقال - اختبار غنى جدا للأعصاب لأنه طيلة أربعة أشهر ما من ركن لم تجد فيه العازفين على مختلف الآلات متربعين على الكراسى والطاولات منهمكين في تمزيق احشائك وأحشاء من يحيط بك بهذه الأصوات المثيرة. ولكننا فى أول ايار ولجنا المدينة بموسيقانا الخاصة. كم من الانفعالات الحية والدموع الحنون والحماسة المدهشة قد فاضت ذلك اليوم على المثقفين والعجائز والصحفيين وأولاد شوارع خاركوف!

كان ثانى منجزاتنا هو السينما. فقد اتيح لنا أن نقدر كما يجب فى عمل المعبد الذى كان ينتصب صرحه

في باحتنا. لقد بكى مجلس الكنيسة عبثا وهدد فقد كنا ابتدأنا جلساتنا تماما في اللحظة التي كان قرع الناقوس يدعو لصلاة المغرب. إن هذا النداء القديم لم يجمع قط من المؤمنين بقدر ما جمع الآن، ولا أسرع منه. لم يكد قارع الناقوس ينزل من البرج فالكاهن لم يجتز الباب حتى كان يقف على أبواب نادينا صف طويل فيه مئتان أو ثلاثمئة من الأشخاص. وبينما كان الكاهن يلبس حلة القداس كان عامل الجهاز يدخل الشريط فيه وبينما كان الرجل القديس يطلق نداءه: «بوركت المملكة.....» كان عامل الجهاز السينمائي يدير جهازه. اتصال كامل!

انتهى هذا الاتصال انتهاءً حزينا بالنسبة لفيرا بيريزوفسكايا. كانت فيرا في عداد أولادي، إحدى الفتيات التي كانت نفقاتها أكثر ارتفاعاً في مشروعي بل فائضة عن كل تقدير.

كانت فيرا في أوائل عهدها بعد «مرض كليتيها» قد هدأت وعملت كثيرا. بيد أن الحمرة ما كادت تعلو

وجنتيها وتسمن قليلا حتى أخذت تكشف بهاء لونها وجمال كتفيها وعينيها ومشيتها وصوتها. لقد فاجأتها عدة مرات في أركان مظلمة مع أحد الزملاء ذى طيف غير مميز. كنت أرى نور عينيها الفضى يلمع بسرعة، وأرى بأى رياء مثير كانت تبرر موقفها:

– ماذا دهاك يا أنطون سيميونوفيتش! ألا يمكن حتى التحادث؟

وفي عمل إعاده التربية لم يكن هناك شئ أصعب مراسا من الفتيات اللواتى انتقلن من يد إلى يد. مهما طال تسكع الصبى في الشارع ومهما كانت المغامرات المعقدة غير المشروعة التى اشترك فيها ومهما بدا منفوشا ضد محاولاتنا التربوية فلا ضير من ذلك شريطة أن يكون فيه أقل كمية – مهما ضؤلت – من العقل في مجتمع صالح فسوف يخرج منه دائما رجل. هذا هو في الواقع ولا شيء آخر غيره إن هذا الصبى متأخر. ومن الممكن دائما قياس المسافة التى تفصله عن السواء وملؤها. ولكن فتاة بدأت مبكرة تقريبا منذ وداعها عهد الطفوله، تمارس

حياتها الجنسية فإنها تحمل فى ذاتها حملا ماديا ومعنويا عاقبة الجرح بشكل معقد جدا وأليم. إن العيون الفاهمة تصوب إليها من كل جانب حينا فاسقة وحينا وقحة، راثية لها أو نادبة. إن جميع هذه النظرات لها شأنها وإن اسمها هو جريمة. ما كانت تتيح لفتاة أن تنسو شقاءها فكانت تبقى على الدوام فيها شعورها بالنقص. وفى الوقت نفسه يتفق بتر الشخصية لدى هؤلاء الفتيات اتفاقا تاما مع ازدهاء بدائى أخرق. إن سائر الفتيات فى نظرها هن فتيات سواذج بالنسبة إليها فهى امرأة مطلعة على الشئ الذى ما يزال سرا محجوبا عن غيرهاء وهى تمتلك سلطانا على الرجال تعرفه وتحسن ممارسته. وفى هذه المتاهات المعقدة جدا من الألم والزهو والفقر والثراء والليالي المروية بالدموع والأيام التى قضتها فى العبث، لا بد من شخصية إبليس لرسم خط السلوك واتباعه وخلق تجربة جديدة وعادات جديدة وأشكال جديدة من الحيطة واللباقة.

كانت فيرا بيريزوفسكايا بالنسبة لى إحدى الشخصيات

العسيرة على. لقد سببت لى أحزانا كثيرة بعد انتقالنا إلى كورياج وكنت أرتاب فى أنها فى هذا الحين أضافت كثيراً من العقد والاضطراب إلى عقد حياتها. كان يجب أن أكلمها بأعظم الاحتراس. فقد كانت سريعة التأثر والانزعاج فتنزوى وتسعى فى أغلب الأحيان أن تهرب منى لتسرع إلى القش لتبكى فيه على هواها. إن ذلك لم يمنعها من الاستمرار فى تدبير مكائد جديدة لم يكن من الصعب احباطها لأن صحابها الذكور كانوا يخافون أكثر شئ فى الدنيا أن يقفوا وسط مجلس القادة وأن يردوا على دعوة لابوت:

ـ تهيأ وأفرغ ما فى جعبتك!

فهمت فيرا أخيراً أن الأولاد لا يناسبون كثيرا للغرام فحملت مغامراتها الغرامية إلى صعيد أقل حرجا، فكان يدور حولها عامل تلغراف غر من ريجوف وهو مخلوق أعجر متجهم مقتنع أعمق الاقتناع أن حواف سراويله الخضراء كانت تؤلف أسمى تعبير للمدنية على ظهر الكرة الأرضية. أخذت فيرا تضرب له مواعيد فى الغابة.

فكان الأولاد يلقونهما هناك ويحتجون ولكننا كنا قد سبق لنا تعبنا من ملاحقة فيرا. وقام لابوت بالشئ الوحيد الذى كان يمكن القيام به. فقد أمسك بعامل التلغراف سيلفستروف في ركن منعزل على حدة وقال له:

ـ انك توله فيرا. خذ حذرك: سنزوجك!

فأدار عامل التلغراف وجهه الدميم كأنه الطراحة وقال:

ـ ماذا «سنزوجك»!

ـ انتبه يا سيلفستروف إذا لا تريد أن تتزوج فلن نعاملك معاملة المداراة، وأنت تعرفنا، حتى فى حجرتك لن نفلت منا ولو كنت فى مدينة أخرى فسوف نمسك بك.

كانت فيرا تنطلق فى أول لحظة تسنح لها للقاء عامل التلغراف وحينما كنت ألقاها كانت تحمر خجلا وترتب شيئا فى شعرها وتهرب.

وأخيرا حانت ساعة فيرا. فقد دخلت فى وقت متأخر من الليل إلى مكتبى وارتمت على كرسى ووضعت

رجلا على رجل وخفضت جأفانها واحمرت ثم سرعان ما رفعت رأسها وقالت بصوت عال عدائى:

ـ أريد أن أكلمك بشئ.

فقلت لها بنفس اللهجة الرسمية: ـ تفضلى!

ـ يجب اجهاضى فورا.

ـ آه؟

ـ نعم أرجوك اكتب إلى المستشفى كلمة!

نظرت إليها ولم أقل شيئا فخفضت رأسها:

ـ هذا كل شئ!

وسكت لحظة قصيرة، وكانت فيرا تحاول أن تنظر إلي من تحت أهدابها الخفيضة ولكننى فهمت من نظراتها ولون خديها وطريقة كلامها أنها قد تملكها الخزى.

فقلت بجفاف: ـ سيكون لك طفلك!

فرمتنى فيرا بنظرة لطيفة مليئة بالدلال وهزت رأسها:

ـ كلا، لا أريد!

وبدون أن أجيب اغلقت جرار مكتبى ولبست قبعتى

ونهضت. فوقفت هى تنظر إلى جانبا باديا عليها الضيق. فقلت لها:

ـ هيا حان وقت النوم!

ـ ولكن تلزمنى... هذه الورقة. لا يمكننى أن انتظر. يجب أن تفهم!

مررنا فى الحجرة المظلمة لمجلس القادة ووقفنا.

ـ لقد كلمتك كلاما جدا ولن أغير قرارى. لن يكون إجهاض! سيكون لك طفل!

فصاحت فيرا: ـ آه..! ـ وهربت وضربت الباب وراءها.

وبعد ثلاثة أيام صادفتنى خارج الاصلاحية حينما كنت عائدا من القرية فى ساعة متأخرة من الليل وأخذت تمشى إلى جانبى تحاول أن تبدأ الحديث معى مصطنعا بشكل لطيف.

ـ ياأنطون سيميونوفيتش أنت تمزح كثيرا وأنا ليس لى قلب يحتمل المزاح.

ـ ماذا يلزمك؟

ـ أوه يتظاهر بأنه لا يفهم... تلزمنى هذه الورقة، ما الذى يحملك على تمثيل هذه المهزلة؟

أمسكتها من ذراعها وأخذتها إلى درب الحقول:

ـ فلنتحدث قليلا.

ـ ولكن ماذا يوجد لنتحدث عنه؟ يا ربى! هذه قصة أخرى! أعطنى ورقتى. هذا كل شيء!

ـ اسمعى يا فيرا! أنا لا أمثل مهزلة ولا أمزح. إن الحياه أمر جاد يجب أن لا يكون معه عبث: هذا أمر خطر! لقد حدث شئ خطير فى حياتك: أحببت شخصا... طيب تزوجيه!

ـ لم يبق على سوى هذا؟ أتزوجه وجدت هذا! وتريد منى أن أعتنى بالأطفال. أعطنى هذه الورقة.... وأنا لم أحب أحدا.

ـ أنت لم تحبى أحدا؟... إذن هذا من الدعارة؟

ـ من الدعارة، نعم، فليكن. أنت طبعا تستطيع أن تقول كل شئ.

— إليك ما أقوله: لن أدعك تستسلمين للدعارة! لقد عشت مع رجل والآن ستصبحين أما.

فصاحت فيرا: — أعطنى ورقتى — ... وأجهشت بالبكاء.... لماذا تتسلى بتعذيبى؟

— لن أعطيك ورقة. ولكن إذا ألححت فسوف أعرض القضية على مجلس القادة.

تنهدت وقالت: — يا ربى! — ثم ارتمت على حافة الحقل وأخذت تنتحب نحيبا مرا.

وظللت اقف صامتا. فخرج غالاتنكو من حقل البطيخ واقترب منا. تأمل مليا فيرا وهى جالسة على الأرض وقال بتؤدة:

— تساءلت: من ينتحب هناك؟ آه! هذه فيرا... لطالما ضحكت... وها هى الآن تبكى...

سكنت فيرا وهدأت ووقفت على قدميها وهزت فستانها بعناية وبنفس الوعى أطلقت اجهاشة أخرى ثم استلمت طريق الاصلاحية وهى تؤرجح يديها وتنظر إلى النجوم.

قال غالاتنكو:

ــ هيا معى إلى الكوخ يا أنطون سيميونوفيتش سأطعمك بطيخة حمراء لذيذة! إنها تدعى ملكة البطيخ والأولاد مناك!

ومر شهران. كانت الحياة تجرى مجرى منتظما كقطار متسق اتساقا بديعا: ينطلق فى السهل بأقصى سرعته ويبطئ عند الجسور العتيقة المخلعة، ويشد على المكابح في المنحدرات ويصفر ويزمجر فى الصعود... وكانت حياة فيرا تجرى مع حياتنا جريانا راكدا ولكنها ما كانت تسافر قطارنا الا بصفة متسللة.

ما كانت حالتها لتظل خافية على الأولاد، وفضلا عن ذلك كان من المحتمل أنها أفضت بسرها إلى زميلاتها وكل واحد يعرف ما يوجد من أسرار بينهن. وقد اتيحت لى الفرصة لأن أقدر كرم الأولاد الذى كنت مقتنعا به مسبقا فضلا عن ذلك. ما كانوا يشاكسون فيرا أو يعذبونها وما كان انتفاخ البطن وولادة الطفل فى نظرهم بالعار والمصيبة. وما من واحد منهم قال كلمة

مزعجة لفيرا ولا رماها بنظرة ازدراء. أما عامل التلغراف فكان هذا شيئا آخر. ففى المهاجع و «الصالات» والكتيبة المختلطة والنوادى وعلى البيدر وفى العمل، كانوا يبحثون المسألة بجميع تفاصيلها ثم وضعنى لابوت أمام هذا المشروع كأنما هو منجز تماما:

ـ اليوم ستتكلم فى المجلس مع سيلفستروف. أليس لديك اعتراضات؟

ـ ليس لى اعتراضات، ولكن، ربما سيلفستروف له اعتراضات؟

ـ سنجلبه دعه لا يزعم أنه من الشبيبة الشيوعية!

جلب جورا وفولوخوف لسيلفستروف فى المساء وعلى الرغم من حراجة الوضع كله لم أتمالك نفسى عن الابتسام حينما وضع فى الوسط وحل لابوت آخر قيد قائلا له:

ـ قف وقفة التهيؤ!

لم يعد لسيلفستروف أى تعنت أمام مجلس القادة. ولم يكتف باتخاذ وضع التهيؤ بل كان على استعداد للقيام بأى مأثرة كانت وحل أى لغز كان، فى سبيل أن

يخرج صحيحا سليما من هذه المؤسسة المريعة. ولكن الأمر أخذ دورا غير منتظر أبدا حتى إنه كان على المجلس أن يحل ألغازا إذ أن سيلفستروف همس متمتما:

ـ أيها الرفاق أولاد الاصلاحية، هل يمكن القول إننى ساقط رذيل؟.. تقولون تزوجها. أنا على استعداد لذلك عن طيبة خاطر ولكن ماذا يمكننى أن أصنع إذا كانت لا تريد؟

فقال لابوت منتفضا: ـ كيف، لا تريد؟ من قال لك؟

ـ فيرا نفسها قالت لى...

ـ طيب ادعوها إلى المجلس! هيا يا زورين!

وثب زورين من الباب وبعد دقيقتين عاد كقنبلة إلى الحجرة وهز وجهه صوب لابوت مشيرا بأذنه اليمنى إلى النواحى القاصية التى كانت فيها آنذاك فيرا.

ـ لا تريد! لعلك فهمت، قلت لها ذلك... ولكنها قالت: انصرف أنت!..

جاب لابوت مجلس القادة بنظره وتوقف عند

فيدورنكو. فنهض هذا من مقعده ورفع يده بقلة اكتراث وقال بصوت خافت «سمعا وطاعة». واتجه صوب الباب. وانسل زورين بخفة إلى الخارج من تحت ذراعه وتدحرج على الدرج بصوت صاخب كالصاعقة. وكان سيلفستروف ممتقعا مشدوها وسط الصالة يرقب الأولاد الذين يسلخون الجلد من ملاك الحب المدهور.

ركضت وراء فيدورنكو وأوقفته في الباحة قائلا:

— عد إلى المجلس سأذهب لارى فيرا.

تركني فيدورنكو أمرا دون أن يقول شيئا.

كانت فيرا جالسة في سريرها تنتظر بصبر التعذيب والجزاء وهي تقلب في يديها أزرارا كبيرة بيضاء. كان زورين واقفا أمامها كأنه كلب صيد حقيقي ينبح بلهجة حادة:

— تعالى فيرا! تعالى... وإلا فإن فيدورنكو.. تعالى!... يحسن أن تذهبى! تعالى.. وإلا فإن فيدورنكو.. سيجبرك من يدك!...

وحالما لمحنى زورين توارى غير تارك في مكانه سوى زوبعة من الهواء الضارب إلى الزرقة.

جلست على السرير وهززت برأسى الى فتاتين او ثلاث كي يخرجن.

ـ ألا تريدين الزواج من سيلفستروف؟

ـ لا أريد.

ـ ليس هذا من الضرورى. أنت على حق.

واستمرت فيرا تقلب أزرارها وقالت لها لا لى:

ـ يريدون جميعا أن يزوجونى. وإذا لم أكن أريد؟ دعونى اجهض!.

ـ لا!

ـ وأنا أقول أجهضونى! أنا أعرف: إذا أردته فلا يحق لكم.

ـ فات الأوان.

ـ وماذا حدث؟

ـ فات الأوان. ما من طبيب يستطيع أن يأخذ ذلك على عاتقه.

ـ ولكن بلى! أعرف: هذا يكون بعملية قيصرية الآن.

ـ أتعرفين ما هى؟

ـ أعرف، يبضعون وهذا كل شئ.

ـ عملية مخطرة ربما أماتتك وأودت بحياتك.

ـ طيب! أفضل الموت على أن يكون لى ولد.

وضعت يدى على أزرارها، فلفتت نظرها صوب الوسادة:

ـ اسمعى يا فيرا! هناك قوانين للأطباء. لايستطيعون القيام بالعملية القيصرية للاجهاض إلا إذا كانت الأم لا تستطيع أن تلد.

ـ وأنا كذلك لا استطيع!

ـ بلى تستطيعين وسيكون لك ولد.

دفعت يدى ونهضت ورمت الأزرار بقوة على السرير:

ـ لا أستطيع ولن يكون لى ولد! اعرفوا هذا. سأشنق نفسى أو أغرقها ولن يكون لى ولد!

وتهاوت على السرير وطفقت تنتحب.

وهجم زورين إلى المهجع قائلا:

ـ يا أنطون سيميونوفيتش: لابوت يسأل فيما إذا كان يجب انتظار فيرا أو لا؟ وماذا يصنع بسيلفستروف؟

ـ قل له أن فيرا لن تتزوجه.

ـ طيب وسيلفستروف؟

ـ سيلفستروف؟ أطردوه!

وانطلق زورين بسرعة النجم الخاطف وطار من الباب يئز:

ماذا يجب أن أعمل؟ منذ كم من عشرات القرون يعيش الناس على سطح الأرض والحب يخلق الفوضى على الدوام بينهم! روميو وجوليت، عطيل وديسديمون، أونيجين وتاتيانا، فيرا وسيلفستروف. متى ينتهي هذا؟ متى تركب مع قلوب العشاق مقاييس ضغط الغاز والأمبير والفولط والمطافئ الآلية ذات العمل الآني؟ متى نكون غير مجبرين بالعكوف عليهم نتساءل هل سيشنق نفسه أو لن يشنق نفسه؟

تملكني الغضب فخرجت. وكان المجلس قد طرد الخطيب. رجوت الفتيات القائدات بالبقاء للتحدث معا

حول موضوع فيرا. كانت أوليا لانوفا البدينة ذات الوجنتين المنتفختين كالتفاح تصغي إلى برزانة لطيفة وتقول:

ـ هذا صحيح وعدل: إذا أجرى لها ذلك الأمر إنها ضائعة.

كانت ناتاشا بيترنكو تلتزم الصمت وهى ترقب أوليا بعينيها الهادئتين الذكيتين:

ـ ناتاشا، ما رأيك؟

فقالت ناتاشا: ـ يا أنطون سيميونوفيتش إذا أراد أحد أن يشنق نفسه فما من سبيل لأحد عليه. إن البعض يقول: سنضعها موضع المراقبة. طبعا نحن سننتبه إليها ولكن لن نصل إلى المحافظة عليها.

وافترقنا. فذهبت الفتيات لينمن وذهبت أنا لأفكر وأنتظر من يقرع على النافذة.

أمضيت عدة ليال في هذا العمل المفيد. كانت السهرة تبدأ في بعض الأحيان بزيارة فيرا التى كانت تأتى مشعثة منتحبة متألمة وكانت تحاول أمامى أن تبدأ بسرد الترهات المثيرة من حياتها الضائعة وعن قسوتى

وعن مختلف حالات العمليات القيصرية للاجهاض التى تكللت بالنجاح.

كنت أغتنم الفرصة لأطبع فى ذهن فيرا بعض المبادئ الضرورية من الفلسفة العملية التى تنقصها بشكل صارخ. فقلت لها:

- إنك تتألمين لأنك جشعة جشعا فارطا. يلزمك الفرح والتسلية والمتع والرضى. تظنين أن الحياة عيد مجانى. يأتى أحد الناس إلى هذا العيد فيستضيفه الجميع ويرقص معهم وكل شئ يجب أن يكون لمسرته؟

- وحسب رأيك، هل يجب على الانسان أن يتألم دائما؟

- برأيى إن الحياة ليست عيدا خالدا. أيام العطلة والعيد ليست عديدة وهناك بشكل خاص الكدح والكد ومختلف المتاعب والواجبات للانسان، هكذا يعيش الشغيلة. ويوجد فى مثل هذه الحياة من البهجة والاحسان أكثر مما فى عيدك. فيما مضى كان هناك أناس لا يشتغلون بأنفسهم، همهم أن يلهوا ويتمتعوا بكل المتع.

هؤلاء الناس ــ كما تعلمين ذلك ــ قد طردناهم بكل بساطة.

فانتحبت فيرا قائلة: ــ نعم. عندما يصبح المرء عاملا فينبغى له أن يتألم طيلة الوقت.

ــ لماذا يتألم؟ إن العمل والحياة الكادحة إنهما أيضا لبهجة وفرحة. فأنت سيكون لك ولد وسوف تحبينه وستكون لك أسرة وسوف تقومين بأمور العناية بابنك. سوف تشتغلين كسائر الناس وسوف تستريحين فى بعض الأحيان، فالحياة هكذا خلقت. وعندما سيكبر ابنك سوف تشكريننى فى غالب الأحيان على أننى لم أسمح لك أن تودى بحياته.

وببطء شديد أخذت فيرا تصيخ السمع إلى وتتصور مستقبلها دونما خوف ولا ضغينة. جندت جميع القوى النسوية فى الاصلاحية، فأخذن يحطن بها ويشملنها برعاية خاصة، وبتحليل أكثر خاص عن الحياة. وخصص لها مجلس القادة حجرة على حدة وكان كودلاتى على رأس لجنة من ثلاثة أعضاء مهمتها تجهيز الحجرة بالأثاث

والاوانی المنزلية وأشياء صغيرة أخرى للاستعمال اليومى.
وشرع الصغار أنفسهم بابداء الاهتمام بهذه التجهيزات
ولكنه غنى عن البيان أنهم ما كان فى وسعهم أن يتخلوا
عن طياشتهم المعتادة وعن عدم مبالاتهم بالحياة.
وهذا هو السبب الوحيد الذى فاجأت به ذات مرة سيننكى
يرتدى فى رأسه قبعة طفل.

ـ ما هذا؟ لماذا ترتدى هذه القبعة؟

نزع سيننكى القبعة بهمة وأطلق زفرة من صدره.

ـ من أين أخذت هذه؟

ـ هذه... هى لطفل فيرا قبعة صنعتها الفتيات.

ـ قبعة! لماذا هى على رأسك؟

ـ أثناء المرور....

ـ ماذا؟

ـ كنت أمر، وبما أنها كانت هناك....

ـ في معمل الخياطة.... كنت تمر؟..

كان سيننكى يفهم أنه «هناك ليس الوقت للكلام»
فهز رأسه ولم يقل شيئا وهو ينظر جانبا. ـ الفتيات صنعن

شيئا لازما وأنت تمزق وتلطخ وترمى... ماذا يعنى هذا؟

لا، هذا الاتهام زاد على قوى سيننكى الضعيفة:

- ولكن لا، سوف ترى. أخذتها وقالت ناتاشا: «أصبحت قليل التربية» فقلت لها: «سآخذها لفيرا». فقالت إذن: « حسنا خذها لها». فأسرعت إلى فيرا ولكنها كانت قد ذهبت إلى المستوصف، وأنت تقول إننى أمزقها...

ومر شهر آخر: واصطلحت فيرا معنا وانصرفت إلى متاعب الأمومة بنفس الهوى الذى أبدته فى الطلب منى إجراء عملية الاجهاض الجراحية. وعاد سيلفستروف مرة أخرى إلى الاصلاحية وإذا بغالاتنكو نفسه ذلك الرجل الفطن مع ذلك يمد يديه قائلا: - أنا لا أفهم: ها هما يتزوجان من جديد.

كانت حياتنا تواصل مجراها. وكانت الحياة قد نمت على قطارنا فكان يطير مندفعا إلى الأمام ينشر دخانا عطرا بهيجا على حقول الأيام النشيطة السوفييتية الواسعة. كان السوفييتيون ينظرون إلى حياتنا ويبتهجون

بذلك. فكانت تأتى إلى زيارتنا: فئات من الطلاب والعمال وأعضاء التعليم ورجال الصحافة. وفى الصحف والمجلات نصف الشهرية كانوا ينشرون عنا القصص الودية البسيطة وصور الأولاد والزرائب ومشغل للنجارة. كان الزوار يغادروننا متأثرين من اشراقنا المتواضع، فيصافحون أصدقاءهم الجدد، ويردون على الدعوة للزيارة الجديدة بتحية عسكرية قائلين: «سمحا».

وابتدأوا يجلبون إلينا اجانب أكثر فأكثر، فكان الجنتلمانات المهندمون يرمقون بأعينهم بأدب ثروتنا البدائية والقباب الكنسية العتيقة وبدلات العمل القطنية للاولاد. وما كان فى وسعنا فضلا عن ذلك أن ندهشهم بأن نريهم زريبة أبقارنا. ولكن وجوه الأولاد الحية وصخبهم النشيط المستمر وبريق السخرية الذى لا يكاد يبين من النظرات المصوبة الى الجوارب الملونة والجاكيتات القصيرة والوجوه النظيفة والدفاتر الصغيرة كانت تدهش الزوار.

كانوا يرهقون التراجمة بالأسئلة المؤذية وما كانوا يريدون أن يصدقوا — مهما كلف الأمر — أننا هدمنا جدران الدير

على الرغم من أن هذا لم يعد له وجود. كانوا يستأذنون بأن يتكلموا مع الأولاد وهذا ما كنت أسمح به طالبا بحزم أن لا يطرح عليهم أي سؤال عن ماضيهم. فكانوا يلتزمون الحذار وابتدأوا بالنقاش. كان المترجم يقول لي باضطراب:

– لماذا تخفي ماضي الأولاد؟ فاذا كان سيئا فهذا يشرّفك أكثر.

فكان المترجم يترجم هذه المرة جوابي برضى لا تشوبه شائبة:

– لا يهمنا نحن هذا الشرف. وانما أتطلب أبسط حدود الأدب. نحن لا نهتم بماضي ضيوفنا.

فكانت الابتسامة تشرق على وجوههم ويهزون برأسهم تعبيرا عن المودة.

– yes, yes.! (نعم، نعم)

كان الزوار يبتعدون بسياراتهم المطهمة الفاخرة ونستمر نحن في مواصلة حياتنا.

وفي الخريف غادرتنا فئة أخرى من الطلاب الى

الكلية العمالية. وفى الشتاء فى قاعات الصفوف شرعنا مرة أخرى بصبر نقيم صروح التعليم المدرسى.

وها قد حل الربيع من جديد! ربيع مبكر أيضا! وفى غضون ثلاثة أيام كل شئ تم. وعلى الدرب ذى الأرض الصلبة المستوية تلاشت طبقة رقيقة من الثلج المصقع. يمر المار على الطريق الكبير وفى العربة يقرقع سطل فارغ من الماء بخفة. السماء زرقاء عالية بهية والعلم يرفرف ويغسل حمرته القانية بموجات هواء الربيع. والمدخل الرئيسى للنادى مفتوح على مصراعيه وفى رطوبة الدهليز غير المألوفة تسود نظافة تامة وبعد التنظيف فرشت سجادة ارض طويلة فيه.

وهناك نشاط زاخر يبدو للعيان منذ أمد بعيد فى جانب المنابت. ففى النهار تنزل الحصر وتفتح السقوف الزجاجية على سواندها. كان يجلس على حافة اطاراتها الصبيان والفتيات مسلحين بقضبان مدببة يغرسون النبتات ويتحدثون حول هذا الأمر أو ذاك. أما جينيا جوربينا اللطيفة من مواليد ١٩٢٤ والتى كانت تضرب لأول مرة

من حياتها بحرية فى الأرض فكانت تتفحص الحفر الكبيرة وتلقى نظرة قلقة على الاصطبل لأنها رأت فيه الجواد الصبى وتستفهم بزقزقتها عن الأشياء التى تثير اهتمامها :

ـ من سيحرث؟ الأولاد ، نعم؟ والجواد الصبى أيضا سيحرث؟ مع الأولاد؟ نعم؟ وكيف الحراثة؟ .

احتفل القرويون بعيد الفصح. فقد تراكموا طيلة الليل فى الباحة وهم ينتقلون من طرف الى آخر مع حزم وشموع . وكانت النواقيس طيلة الليل تتأرجح فى أبراجها وتقرع وفى الصباح تفرقوا ليفطروا من الصيام ثم انتشروا سكارى فى القرية وحول الاصلاحية ولكنهم لم يكفوا عن قرع الناقوس فكانوا يصعدون بالدور الى برج الناقوس ويقرعونه بشدة. وصعد أخيرا الى هناك القائد المناوب أيضا وطرد من هناك مجموعة من الموسيقيين. وجاء أعضاء مجلس أملاك الكنيسة بثياب العيد مع أبنائهم واخوتهم يهزون الأيدى بجرأة أكثر من ذى قبل ويصرخون ويزمجرون :

ـ لا يحق لكم هذا! السلطة السوفييتية تسمح بالعيد المقدس! افتح برج الناقوس. عيد الأعياد! من يستطيع أن يمنع قرع الناقوس؟

قال لابوت: ـ لا حاجة للقرع انك سكران دونه.

ـ هذا ليس من شأنك اذا سكرت ولكن لماذا لا يسمح بقرع الناقوس؟

فرد عليه كودلاتى: ـ أيها الأب بصراحة أقول لك: لقد زاد الأمر عن حده أفهمت؟ لأى موضوع هذا العيد؟ هل بعث حيا المسيح؟ وبماذا يخصك هذا أو يعنيك؟ ما من أحد بعث حيا فى بودفوركى؟ لا، اذن لماذا تحشر نفسك فى شىء لا يعنيك!

كان أعضاء مجلس أملاك الكنيسة يترنحون فى مكانهم فرفعوا أيديهم الى السماء وصاحوا:

ـ لا بأس! اقرع هذا كل شىء!

كون الأولاد ضاحكين سلسلة وكنسوا خارج الباب هذا الزبد من الفصح.

وأبصر كوزير من بعيد هذا المشهد وهو يدغدغ لحيته ممتعضا:

ـ لا بد من أن تفسد أخلاق الناس. ما لكم وما لهم يحتفلون بعيدهم فيما بينهم بهدوء لا هذه عكرتة هذه اهانة وارحمتا.

وفي المساء في القرية أخذوا يطارد بعضهم بعضا والسكاكين مشرعة ويتصايحون وأخذوا يحلون نزاعاتهم المحلية فجلبوا لنا الى المستوصف عربات مليئة بأشخاص جرحى ومكسرين. وهرعت من المدينة فصيلة من الميليشيا. وأمام مدخل المستوصف تجمع الأهل والشهود والذين يعطفون على الضحايا وأعضاء مجلس أملاك الكنيسة دائما مع أبنائهم واخوتهم. أحاط بهم الأولاد وأخذوا يسألونهم بابتسامات التهكم:

ـ أيها الأب هل يجب أن يقرع الناقوس؟

... بعد عيد الفصح وصلت الينا الشائعات مسرعة: في الطرف الآخر من خاركوف تبنى ادارة الدولة السياسية دارا جديدة من أجل اصلاحية للأطفال ولا يقوم بذلك

مفوضية التعليم العام وانما ادارة الدولة السياسية. ورأى فيها الأولاد علامة عهد جديد:

ـ تبنى دار جديدة. خذ حسابك، جديدة كل الجدة!

وفى منتصف الصيف وصلت الى الاصلاحية سيارة ورجل ذو شارة الياقة الحمراء قال لى:

ـ أرجوك اذا كان لديك وقت فتعال معنا. نحن نقوم ببناء دار لأجل اصلاحية دزرجنسكى... يجب أن تراها... من الناحية التربوية.

وذهبنا.

لقد تأثرت. كيف؟ لأجل الأطفال المشردين؟ قصر فسيح تغمره الشمس؟ الأرض والسقوف مدهونة؟

لم أحلم عبثا خلال سبع سنوات. ولم أر فى غمرة الأحلام سدى القصور التربوية المقبلة. واننى أبديت أمام موظف الأمن الداخلى «الناحية التربوية» بقلب ملىء بالحسد والحفيظة فقبلها ثقة منه بثمرة تجربتى كمرب وشكرنى.

عدت الى الاصلاحية ينهش قلبى الحسد. لمن سيعطى هذا القصر ليعمل فيه؟ ليس من العسير بناء قصر ولكن يوجد شيء أصعب. ومع ذلك فلم يطل حزنى. جماعتى ألا تستحق أى قصر كان؟

وفى شهر ايلول ولدت فيرا ولدا. وجاءت الرفيقة زويا الى الاصلاحية وأغلقت الباب وهاجمتنى بقولها:

ـ الفتيات عندكم يلدن؟

ـ لماذا تستعملين صيغة الجمع ومن أى شيء مرتاعة أنت؟

ـ كيف من أى شيء مرتاعة أنت؟ الفتيات يلدن أولادا؟

ـ طبعا أولاد... وماذا يستطعن أيضا أن يلدن؟

ـ لا تمزح أيها الرفيق!

ـ أنا لا أمزح!

ـ يجب على الفور أن يسطر ضبط.

ـ الأحوال المدنية قد فعلت الضرورى فى حينه.

ـ الأحوال المدنية ونحن شيء آخر.

ـ ما من أحد أعطاك السلطة بكتابة ضبط عن الولادة.

ـ ليس الولادة... بل أبشع!

ـ أبشع من الولادة؟ على ما يظهر لا يمكن أن يكون هناك شيء أبشع. شوبنهاور او غيره قال....

ـ أيها الرفيق دع هذه اللهجة!

ـ لن أدعها!

ـ لن تدعها؟ ماذا يعنى؟

ـ هل يجب أن أحدثك حديثا جديا؟ هذا يعنى أننى ضجرت الكفاية. أفهمت؟ ضجرت. هذا كل شيء. اذهبى، لن تكتبى أى ضبط.

ـ طيب

فذهبت وكلمة «طيب» لم يعقبها شيء أيضا. وبدت فيرا أما بديعة بكنوز من الرعاية والحب والحس السليم. وماذا كان يلزمنى أيضا. لقد وجدت لها وظيفة فى دائرة محاسبتنا.

كنا قد حصدنا منذ وقت طويل ودرسنا القش وخزنا

فى المستودع ما كان يلزم وملأنا المعامل بالمواد الأولية واستقبلنا أولادا جددا.

هطل الثلج مبكرا. وقبله بليلة كان الطقس دافئا بيد أنه فى الليل أخذت نتف من الثلج صغيرة تتناثر فوق كورياج ساكنة حذرة تتطاير. خرجت جينيا جوربينا فى الصباح الى الدرج وفتحت عينيها الصغيرتين على البساط الأبيض الممدود على الباحة وأخذتها الدهشة قائلة:

ــ من هذا الذى ألقى الملح على الباحة؟... ماما... الأولاد مؤكدا!

١٣. «ساعدوا هذا الصغير»

انتهت أبنية كومونة دزرجنسكى. فعند مدخل غابة البلوط والواجهة مصوبة الى خاركوف كان يقوم بيت رمادى ذو جدران متألقة من التيرزيت وفى داخله مهاجع عالية وضاءة وصالات أنيقة وأدراج وسيعة وستائر وأبواب.

كل شيء صنع في الكومونة بذوق عاقل وليس على طراز مفوضية التعليم العام.

كانت هناك صالتان احتفظ بهما للمصانع. وفي ركن احداهما أبصرت معمل الأحذية وكانت دهشتي منه بالغة جدا.

كان معمل النجارة فيه آلات بديعة. وان المرء يشعر مع ذلك في هذا القسم بحيرة المنظمين.

وكان بناة الكومونة قد أوكلوا الي والى اصلاحية غوركي بمهمة اعداد افتتاح المؤسسة الجديدة. ففرزت لها قرغيزوف على رأس فريق من رفاقه. فانغمسوا في هذه المتاعب الجديدة حتى آذانهم.

كانت الكومونة قد صممت لتستوعب مئة ولد وكانت نصبا تذكاريا لفيكلس دزرجنسكي (٩) وكان رجال الأمن الداخلي في اوكرانيا قد كرسوا لهذا العمل مواردهم الشخصية وجميع أوقات فراغهم وجميع قوى فكرهم ونفوسهم. ولم يكن هناك سوى شيء واحد ما كانوا يستطيعون أن يقدموه للكومونة الجديدة. كان رجال الأمن الداخلي ضعافا في

نظرية التربية. ولكنهم كانوا يجدون أنفسهم لا ترهبهم الناحية العملية من التربية.

وقد اهتممت كثيرا لأعرف كيف سيتخلص رجال الأمن من هذا المأزق الحرج. ما من ريب فى أنهم يستطيعون أن يجهلوا النظرية ولكن هل قدر للنظرية أن تجهل رجال الأمن الداخلى؟ ففى هذا المشروع الجديد ذى الأهمية العظمى ألم يكن من المفيد تطبيق آخر اكتشافات علم التربية، مثلا الادارة الذاتية السرية؟ هل يقبل رجال الأمن الداخلى أن يضحوا لمصالح العلم بالسقوف المدهونة والأثاث الجميل؟ إن الأيام التى تلت قد بينت أن رجال الأمن ما كانوا يقصدون أن يضحوا بشيء. فقد أجلسنى الرفيق «ب» فى أريكة خفيضة فى مكتبه وقال:

ـ هذا ما أريد أن أطلبه منك: انه لمن غير المقبول أن نتركهم يبددون كل هذا ويبعثرونه. ان الكومونة ضرورية طبعا وستبقى كذلك طويلا. نحن نعلم أنه لديك مجموعة منتظمة. أعطنا خمسين ولدا لنبدأ ونحن سوف نكمل،

العدد بعدئذ بالالتقاط من الشوارع. أرأيت؟ سيكون لهم على الفور دائرتهم الخاصة بهم ونظامهم. أفهمت؟

نعم، كنت أفهم. أدركت حق الادراك أن هذا الرجل النبيه ليس لديه أدنى فكرة عن علم التربية. وفى هذه الآونة اقترفت جريمة ان صح التعبير: فقد أخفيت عن الرفيق «ب» أنه يوجد هناك شيء يسمى علم التربية ولم أنبس بكلمة عن الادارة الذاتية السرية. فقلت «سمعا وطاعة» وابتعدت بخطى هاربة وأنا ألقى النظرات جانبا وعلى شفتى ابتسامة ماكيفيلية.

لقد طاب لى أنه قد عهد الى أولاد غوركى بمهمة تأسيس الجماعة الجديدة ولكن هذه القضية كان لها أيضا مظاهرها الفاجعة. أأعطى خيرة الأولاد — أهذا ممكن؟ ألم تهتم اصلاحية غوركى بالحفاظ على كل واحد منهم؟

أنجز فريق قرغيزوف عمله. ففى معاملنا كانوا يصنعون الأثاث للكومونة الجديدة وأخذت خياطاتنا يصنعن الثياب لأولاد الكومونة المقبلين. ولكى تكون ملائمة كان لا بد

لنا من أن نعين على الفور خمسين ولداً لكومونة دزرجنسكي.

وقد درست المسألة في مجلس القادة دراسة جدية.

فقال لابوت:

- يجب أن نرسل الى الكومونة أولادا صالحين ولكن ليسوا من القدماء. ويجب على القدماء أن يبقوا على ما كانوا عليه أولادا في اصلاحية غوركي. فانهم سيدخلون عما قريب غمار الحياة.

كان القادة متفقين مع لابوت حول هذا الشأن ولكن حينما شرع بوضع اللوائح جرى نقاش حازم. كان جميعهم يحاولون أن يعينوا أولادا تابعين لكتائب أخرى. وقد استمرت الجلسة حتى وقت متأخر من الليل وأقررنا أخيرا لائحة من أربعين ولدا وعشر فتيات. كان فيها الأخوان جيفيلي وغوركوفسكي وفاينا زايتشنكو وماليكوف وأوداريوك وزورين ونيسينوف وسيننكي وشاروفسكي وغاردينوف وأوليا لانوفا وسمينا وفاسيا آليكسييف ومارك شينهوس. وبصفة استثنائية ومن أجل الصلابة أضيف الى اللائحة ميشا أوفتشارنكو. ونظرت اللائحة لآخر مرة

فرضيت عنها كل الرضى: صبيان طيبون أشداء بقدر ما هم أحداث.

استعد الأولاد المعينون للكومونة للرحيل. وما كانوا قد رأوا بعد بيتهم الجديد وقد عز فراق رفاقهم أكثر من أى شيء. وقال أحدهم مع ذلك:

ــ من يدرى كيف سيكون الأمر هناك؟ البيت جميل ولكن أهله ما يدرينا بهم؟

فى أواخر شهر تشرين الثانى كان كل شيء جاهزا لانتقالهم. فعينت هيئة الجهاز الادارى للكومونة الجديدة وأرسلت اليها قرغيزوف: فسوف يكون فيها خميرة صالحة.

كان هذا كله يجرى فى حالة قطيعتى الكاملة تقريبا مع الأوساط التربوية فى مفوضية الشعب للتعليم العام فى أوكرانيا فى ذلك الحين. ففى الفترات الأخيرة كان وضع هذه الأوساط تجاهى ليس سلبيا فحسب بل يكاد يكون فيه الازدراء. كانت هذه الأوساط ــ على ما يبدو ــ ضيقة كل الضيق والأشخاص الذين كانوا

يؤلفونها كانوا يظهرون سهولة الادراك ولكنهم مع ذلك ما كان لى منجاة منهم.

ولأسباب اما طارئة أو مبدئية ما من يوم لم يبين لى فيه الى أى حد كنت فاشلا حتى أخذت تتكون فى نفسى الشكوك تجاهى.

كانت أحسن الأحداث وأكثرها توفيقا تنقلب فجأة الى نزاع. ولعلى فعلا كنت آثما فى كل شيء.

انعقد فى خاركوف مؤتمر أصدقاء الأطفال وذهبت الاصلاحية لتقدم اليهم تحيتها. كان متفقا أننا سنكون هناك فى الساعة الثالثة بالضبط.

كان لا بد من أن نمشى عشرة كيلومترات. مشينا على رسلنا دونما عجلة وحسبت بساعتى سرعة انتقالنا متيحا للأولاد أن يستريحوا وأن يشربوا وأن يتفرجوا على المدينة. ان رحلات من هذا النوع تسر الأولاد عادة. كنا نلفت الأنظار فى الشوارع وكان الناس يحيطون بنا عندما كنا نقف ونستريح فيسألوننا ويتعرفون علينا. وكان الأولاد بثيابهم الجميلة يستريحون ويتبادلون النكات.

كانوا يشعرون بجمال مجموعتهم وبهجتها. كل شيء على ما يرام، ولكن هدف رحلتنا كان يثير إنفعال نفوسنا قليلا. أشارت عقارب الساعة إلى الثالثة حينما وصلت اصلاحيتنا وفي مقدمتها الموسيقى والعلم إلى مكان المؤتمر. وخرجت أمامنا «مثقفة» تعدو ساخطة وقالت بصوت نابح:

ـ لماذا جئتم مبكرين جدا؟ والآن هل ستتركون الأولاد في الشارع؟

فأريتها الساعة:

ـ يا للمصيبة الجميلة!.. يجب أن نستعد إستعدادا جيدا.

ـ كان الاتفاق في الساعة الثالثة.

ـ معلك أنت ـ أيها الرفيق ـ دائما تحدث مثل هذه الحوادث.

لم يفهم الأولاد بأي شيء هم مخطئون ولماذا ينظرون إليهم بازدراء؟

ـ ولماذا جلبت الأولاد الصغار؟

ـ الاصلاحية جاءت بقضها وقضيضها.

ـ ولكن أهذا ممكن؟ أمن المقبول أن تجعل هؤلاء الصغار يمشون عشرة كيلومترات؟ لا يحق لك أن تكون قاسيا كل القسوة إذا أردت أن تشهر نفسك ويلمع نجمك!

ـ إن الأطفال كانوا فرحين بهذه النزهة... وبعد المقابلة سنذهب إلى السيرك هل كان من الممكن تركهم في البيت؟

ـ إلى السيرك؟ ومتى ستخرجون من السيرك؟

ـ في الليل.

ـ أيها الرفيق، اصرف على الفور الصغار ليرجعوا!

امتقع وجه «الصغار»: زايتشنكو وماليكوف وزورين وسيننكي ورمقتني عيونهم بأمل أخير.

فاقترحت: ـ هل يمكن أن نسألهم؟

ـ لا داعي لسؤالهم، فالأمر واضح. اصرفهم على الفور ليرجعوا إلى البيت.

ـ معذرة! فلن أنصاع لقرارك.

ـ في هذه الحالة سأقوم أنا بذلك!

قلت وأنا أجهد فى إخفاء ابتسامة رفت على شفتى:

ــ تفضلى.

اقتربت حتى مست طرفنا الأيسر: ــ أيها الصغار!.. نعم يا هؤلاء... عودوا على الفور إلى البيت... لا ريب أنكم قد تعبتم!..

لم يغر صوتها الرقيق أحدا. فقال أحدهم:

ــ كيف، إلى البيت؟ لا...

ــ ولن تذهبوا إلى السيرك، فسوف يفوت الوقت...

ضحك «الصغار». كان زورين يدير بؤبؤى عينيه كأنه فى حفلة الرقص:

ــ أوه! إنها ماكرة هذه، انظر إذن!.. يا أنطون سيميونوفيتش، انظر مكرها....

مد فانيا زايتشنكو ذراعه صوب العلم باحتفاء بحركة موفقة:

ــ لا تتكلمين كما يجب...، لا يكون الكلام فى الصفوف... يجب الكلام هكذا: واحد، اثنان.. كما ترين: الصفوف؛ العلم... أرأيت؟..

نظرت باشفاق إلى هؤلاء الأولاد الذين اشبعوا بالروح العسكرية بشكل لا صلاح له. وانصرفت.

ومن البديهى أن هذه الاشتباكات لم تحدث أى تأثير مزعج فى مجرى حياتنا، ولكنها كانت تخلق حولى انعزالا لا يطاق فى عملى التنظيمى وكنت قد اعتقدت فضلا عن ذلك أنه من الممكن التآلف معه والاعتياد عليه. كنت قد تعلمت تدريجيا أن أواجه كل حالة بعزم متجهم على الصبر والاحتمال بشكل من الأشكال. كنت أبذل الجهد بألا أدخل فى مجادلات وإذا كنت فى بعض الأحيان أحتج فقد كان هذا من ايمانى بالأدب المحض لأنه لا يسع المرء مع ذلك ألا يتحدث مع رؤسائه.

فى شهر تشرين الأول جاءت مع أوجيكوف مصيبة حفرت «بينهم» وبينى آخر هوّة لا سبيل إلى اجتيازها.

جاء طلاب الكلية العمالية لقضاء أحد أيام الأحد عندنا. فهيأنا لهم مهجعا فى أحد الصفوف. وفى النهار نظمنا احتفالا فى الغابة. وبينما كان الأولاد يلهوون

تسلل أوجيكوف الى غرفتهم وسرق المحفظة التى كان الأولاد قد وضعوا فيها المنح المالية التى قبضوها قبل مجيئهم.

كان الأولاد يحبون زملاءهم الطلاب «بشكل لا يستطيع فيه أربعون ألف أخ أن يحبوا كهذا الحب». كنا نشعر بخزى لا يطاق. ظل السارق بعض الوقت مجهولا، وكان هذا أخطر أمر. إن ما للسرقة من خطر فى مجتمع متحد اتحادا قويا ليس لأنه يضيع شئ ويكون فيه أحد منزعجا، ولا لأنه يواصل فيه ذلك السارق سرقته، ولكنه يعكر على الأخص الجو العام من السعادة ويهدم الثقة بين الرفاق ويثير أكثر الغرائز كراهية: الارتياب والقلق على اللوازم الفردية والأنانية المريبة الخفية. فاذا لم يكتشف الآثم فسرعان ما ينحل المجتمع على الفور بعدة اتجاهات: انتشرت الهمسات فى المهاجع وعينت أسماء المشتبه بهم فى اجتماعات سرية وأجريت أقسى الاختبارات على عدد من الأشخاص لا سيما أولئك الذين يراء الاحتفاظ بهم أولئك الذين ما كادوا ينصلحون.

ما كان يهم أن يكتشف السارق بعد عدة أيام و يعاقب فهذا لن يضمد الجراح ولن يمحو العار ولن يعيد للكثيرين مكانا هادئا وسط الجماعة. مثل حالة السرقة هذه المنفردة — على ما يبدو — تضم فى ذاتها أسوأ المبادىء المزمنة من العداء والحدة والانزواء والكره للناس. إن السرقة هي جزء من هذه الظواهر العديدة فى المجتمع التى لا تشتمل على موضوع تأثير و يدخل فيها رد فعل كيميائى أكثر من الارادة المسيئة. وإن السرقة ليس حادثا خطرا هناك حيث لا يوجد مجتمع ولا رأى عام، فى مثل هذه الحالة يسوى الأمر بسهولة: احدهم سارق والآخر مسروق والآخرون لا يهتمون بذلك. إن السرقة فى مجتمع توقظ إلى الحياة وتكشف القناع عن الخواطر الخفية وتقضى على اللباقة والصبر الضروريين للحياة المشتركة وهذا أمر فاجع لا سيما فى مجتمع مؤلف من الأحداث «الجانحين».

إن جريمة أوجيكوف لم تكتشف إلا بعد يومين. فقد سجنته على الفور فى مكتب الاصلاحية ووضعت

حرسا على الباب كى يمنع التنكيل به من قبل الاولاد. وقرر مجلس القادة بأن يسلم المذنب إلى محاكمة رفاقه. كان هذا النوع من المحكمة قلما يجتمع لأن الأولاد كانوا يركنون بشكل عام إلى قرارات المجلس. وما كان أوجيكوف يستطيع أن ينتظر شيئا حسنا من محاكمة رفاقه. وقد تم انتخاب القضاة فى اجتماع عام، واتفقت الأصوات بالاجماع على خمسة أسماء: كودلاتى وغوركوفسكى وزايتشنكو وستوبيتسين وبيريتز. وقد انتخب بيريتز كيلا يجرح شعور أولاد كورياج. وكان لستوبيتسين شهرة عظيمة بالاستقامة. وكان انتقاء الأسماء الثلاثة الأولى يعطى ضمانة بعدالة لا لين فيها ولا تسامح.

وابتدأت الجلسة مساء بحضور يملأون الصالة كلها. كانت بريجيل وجورينسكايا هناك وقد أتتا خصيصا لهذا الشأن.

كان أوجيكوف جالسا وحده على مقعده. كان طيلة تلك الأيام يسلك سلوك القحة والفظاظة معى ومع الأولاد فيسخر سخرية ويستثير نفورا حقيقيا منه. كان آركادى

قد عاش أكثر من سنة فى الاصلاحية وفى هذه الفترة من الزمن تطور تطورا لا ريب فيه، ولكن معنى هذا التطور ظل شيئا مريبا. كان قد أصبح أكثر اعتناء واستقامة، وكان أنفه ما عاد يطفى بشكل قوى على بقية وجهه حتى انه تعلم أن يبتسم. ومع ذلك فقد كان نفس آركادى أوجيكوف، مخلوق لا يحمل أدنى احترام لأى كان حتى للمجتمع، ولا يعيش الا بضراوة نهمه فى اليوم الذى هو فيه.

كان أوجيكوف يخشى فى الماضى أباه أو الميليشيا. وفى الاصلاحية ما كان شىء يتهدده ما عدا مجلس القادة أو الاجتماع العام. وعليه فان أوجيكوف كان لا يحس ببساطة بهذه المؤسسات، كان شعور المسئولية قد تبلد، وكان هذا أصل ابتسامته الجديدة وهيئته الوقحة الجديدة.

ولكن أوجيكوف الآن ممتقع اللون، ومن البديهى أن محاكمة رفاقه تثير بعض الاحترام.

أمر القائد المناوب بالنهوض، فدخلت هيئة المحكمة.

ابتدأ كودلاتى بسماع شهادة الشهود والمجنى عليهم. كانت أحكامهم مطبوعة بطابع الاستنكار القاسى والسخرية. وقال ميشا أوفتشارنكو:

— تأملوا. هناك أولاد يقولون ان أركادى هذا لوث شرف الاصلاحية بالعار. أما أنا فأقول، يا أصدقائى الأعزاء ان هذا ليس ممكنا. ان هذا شئ لا يمكنه أن يعمل على تلويث شرف الاصلاحية بالعار. إنه ليس ولدا فى الاصلاحية فضلا عن أنه هل يستطيع المرء أن يقول انه رجل؟ احكموا بأنفسكم فيما اذا كان رجلا؟ إن القطة والكلب — والحق يقال — احسن منه. وكيف نعامله؟ لا يمكن مسكه ورميه خارجا فهذا لن يجدى فتيلا. ولكن اليكم ما أقترحه: يجب أن يبنى له مرقد كلاب وأن يعلم كيفية العواء. ولو لم يقدم اليه الغذاء ثلاثة أيام سوف يتعلم. وأراهن على ذلك بوضع يدى فى النار. ويجب أن لا يترك يدخل الى الغرف.

كان هذا خطابا لاذعا وقاسيا. كان فانيا زايتشنكو

يقهقه على طاولة القضاة. وألقى أركادى نظرة رصينة على ميشا واحمر والتفت.

طلبت بريجيل الكلام. فعرض عليها كودلاتى قائلا:

ــ لعل الافضل أن تتكلمى بعد الاولاد؟

ولما كانت تلح فقد خلى لها دينيس سبيل الكلام. فتقدمت بريجيل من المسرح والقت خطبة لاهبة. وما تزال بعض مقاطع هذه الخطبة البليغة ماثلة فى ذهنى:

ــ أنتم تحاكمون هذا الصبى لأنه سرق مالا. ان جميع من هم هنا يقولون انه مذنب ويجب عقابه معاقبة قاسية ويطلب البعض طرده. انه مذنب طبعا ولكن أولاد الاصلاحية جميعا أكثر ذنبا منه أيضا.

وكأنما سمعوا ذبابة تطير فى الصالة، فمد الأولاد أعناقهم ليروا من كان يؤكد أنهم آثمون بسرقة أوجيكوف ومذنبون باثمه.

ــ لقد عاش بين ظهرانيكم أكثر من عام ومع ذلك فقد سرق. وهذا يعنى أنكم ربيتموه تربية سيئة،

وأنكم لم تهتموا بأمره كما ينبغى منكم كرفاق، وأنكم لم تشرحوا له كيف يجب أن يعيش. يقال هنا انه يسيء العمل وأنه فيما مضى قد سبق له أن ارتكب سرقات بحق رفاقه. كل هذا يبرهن على أنكم لم تعيروا أركادى الأهتمام اللازم.

وتبينت عيون الصبيان الساهرة أخيرا الخطر، وأخذت تتطلع بقلق الى وجوه رفاقهم. ومن الضرورى الاعتراف بأن قلقهم ما كان عبثا لأن الجماعة كانت تجابه فى ذلك الحين تهديدا حقا. ولكن بريجيل لم تبصر قلق المجتمعين. فاختتمت كلامها بقطعة مؤثرة حقا.

ــ ان معاقبة أركادى تعنى الانتقام منه وينبغى لكم أن لا تهووا الى حضيض الانتقام. ينبغى لكم أن تفهموا أن أركادى بحاجة الآن الى مساعدتكم، هو فى وضع حرج لأنكم شهرتم به أمام الجميع وشبهه أحدكم بالحيوان. يجب أن تختاروا أولادا طيبين من بينكم ينبغى لهم أن يأخذوا أركادى تحت رعايتهم وأن يساعدوه.

وحينما غادرت بريجيل المسرح حدثت بين صفوف الأولاد حركات وضوضاء وابتسامات فسأل أحدهم بجد وبصوت مدو:

ـ طيب، ماذا قالت؟

فرد عليه صوت بنبرة أخف ولكن بشكل فيه بعض السخرية:

ـ ساعدوا أوجيكوف أيها الأولاد!

فانفجرت الصالة بالضحك فانقلب القاضى فانيا زايتشنكو الى ساندة الكرسى وكانت رجلاه تضربان درج الطاولة. فقال له كودلاتى بقسوة:

ـ يا فانيا أى قاض تمثل أنت؟ ان صح التعبير.

ظل أوجيكوف جالسا منحنيا على ركبتيه واذا به بعدئذ يقهقه ثم يتمالك نفسه فورا ويخفض رأسه بشكل أكثر أيضا. أراد كودلاتى أن يقول له شيئا ولكنه اكتفى بهز الرأس وألقى على المتهم نظرة فيها بعض الحدة.

وبدت بريجيل أنها لم تلاحظ هذه الأحداث الدقيقة وهى تتحدث مع جورينسكايا.

أعلن كودلاتى أن المحكمة تنسحب لتتداول الرأى.
كنا نعرف أن القضاة ما كانوا يخصصون أقل من ساعة للمجادلات القضائية وتدوين الحكم. فدعوت الضيوف الى الجلوس فى مكتبى.

قبعت جورينسكايا فى ركن من الأريكة مختفية وراء كتف غوليايفا، ومن هناك كانت تراقب بانتباه الآخرين بحثا عن الحقيقة حتما. كانت بريجيل مقتنعة بأنها أعطتنا جميعا فى هذا اليوم درسا فى «العمل التربوى الحقيقى». كنت أشعر فى قرارة نفسى بعناد غريب لا ذلك العناد فى الصراحة ولا النصر، وانما نجم عن المرارة وعن شعور مبهم بالمأزق فى عملى.

سألتنى بريجيل:

ـ لست على اتفاق معى طبعا؟

فأجبتها:

ـ هل تريدين شايا؟

هؤلاء الناس لديهم مرض التضخم فى الجدال المنطقى. هذه الوسيلة صالحة، وتلك سيئة وبالنتيجة

يجب دائما استعمال الأولى. كم يلزم من الوقت لأن يعلموا أيضا المنطق الجدلي؟ كيف السبيل الى أن أبرهن لهم على أن عملي يتألف من سلسلة متصلة من العمليات ذات مدة أكثر طولا أو أقل وقد تمتد بعض الأحيان سنوات كاملة وفضلا عن ذلك تقدم دائما طابع الصدامات تكون فيها مصالح الجماعة والأفراد متشابكة بأعقد شكل؟ كيف أقنعهم أنه خلال سنواتي السبع من النشاط في الاصلاحية لم تحدث حالاتان متماثلتان اطلاقا؟ كيف أشرح لهم أنه لا يجب أن تعتاد الاصلاحية احتمال هذه التجربة من العجز الاجتماعي والتوتر في الحيرة وأنه في قضية اليوم ليس أوجيكوف هو غرض العمل التربوي ولا الأولاد الأربعمئة مأخوذين على انفراد وانما هو الجماعة؟

دعانا القائد المناوب الى دخول الصالة مرة ثانية.

وقف الأولاد يستمعون القرار بصمت عميق. وها هو ذا:

«بما أن عدو الشغيلة السارق أوجيكوف يستحق أن يطرد طردا شنيعا من الاصلاحية ولكن بموجب تدخل

مفوضية الشعب للتعليم العام لصالحه. فان المحكمة المؤلفة من رفاقه تقرر:

١ - يبقى أوجيكوف فى الاصلاحية.

٢ - سيعتبر أوجيكوف لمدة شهر كأنه ليس عضوا فى الاصلاحية، مفصولا عن كتيبته دون امكان تعيينه للاشتراك فى الكتائب المختلطة. يحظر على كل ولد أن يكلمه أو يساعده أو يأكل معه على طاولة واحدة أو ينام معه فى نفس الحجرة أو يلعب معه أو يجالسه أو يماشيه.

٣ - سيبقى أوجيكوف موضوعا تحت امرة قائده القديم دميترى جيفيلى الذى لن يسمح له بالتكلم معه الا فى شئون الخدمة وكذلك الطبيب فى حالة المرض.

٤ - سيكون سرير أوجيكوف فى دهليز المهاجع وسيأكل على طاولة منفردة يعين مكانها سكرتير مجلس القادة ويشتغل - اذا رغب - على انفراد دائما فى المهمات التى يعينها له قائده.

٥ - من يخالف هذا القرار - أيا كان - يطرد فورا من الاصلاحية بأمر سكرتير مجلس القادة.

٦ ــ يصبح هذا الحكم سارى المفعول حالما يصادق عليه مدير الاصلاحية».

أيد تصفيق المجتمعين هذا الحكم وتوجه إلينا كوزما ليشى بالكلام:

ــ طيب! هذا حكم عليه، وسوف يساعد! على أنه هناك من يقول: ساعدوا هذا الصغير المسكين وقدموا إليه أدوات اللصوص يا سيدى، كيف!

قال كوزما كل هذا ببراءة فى وجه بريجيل دون أن يدرك أنه يتفوه بوقاحات. فألقت بريجيل نظرة استنكار على هيئته المشعثة وقالت لى بلهجة رسمية:

ــ لن تصادق طبعا على هذا القرار؟

ــ بلى تجب المصادقة.

وفى الصالة الفارغة لمجلس القادة أخذتنى جورينسكايا على انفراد:

ــ أريد أن أكلمك. ما هذا القرار؟ كيف وجدته؟

فقلت: ــ إنه حكم حسن. ان المقاطعة ــ لا ريب ــ

شيء خطير لا يمكن المرء أن يوصى بها بشكل عام. بيد أنه بحالة خاصة سيكون سليم العاقبة.

ـ ألا يساورك ريب؟

ـ لا، انظرى، إن أوجيكوف هذا مكروه فى الاصلاحية، ومحتقر. فمقاطعة لمدة شهر كامل سيكون لها أثر ـ فى المقام الأول ـ فى ادخال شكل جديد مشروع من العلاقات معه. فإذا احتمل أوجيكوف هذا الحجر عليه فإن اعتباره سوف ينمو ويزداد. إنه لهذا الولد اختبار مشرف.

ـ طيب وإذا لم يحتمله؟

ـ سيطرده الأولاد.

ـ وسوف تصدق على ذلك؟

ـ طبعا.

ـ ولكن كيف هذا ممكن؟

ـ وكيف السبيل إلى عمل خلاف هذا؟ إن الجماعة لها الحق فى الدفاع عن نفسها.

ـ على حساب أوجيكوف؟

— سيبحث أوجيكوف لنفسه عن مجتمع آخر، وسوف يكون هذا مفيدا له ايضا.

ابتسمت جورينسكايا ابتسامة حزينة:

— كيف تسمى هذا النوع من التربية؟

لم أرد عليها فقد وجدت الجواب بنفسها فجأة:

— لعلها تربية النضال؟

— لعلها!

كانت بريجيل فى المكتب تستعد للذهاب. ودخل لابوت ومعه الحكم.

— تصادق يا أنطون سيميونوفيتش؟

— طبعا. إنه قرار بديع.

فقالت بريجيل: — ستدفع هذا الصبى الى الانتحار.

فقال لابوت مدهشا: — من؟ أوجيكوف؟ إلى الانتحار؟ آه! فإذا شنق نفسه فلن تكون خسارة... ولكن لن يشنق نفسه.

فتمتمت قائلة: — يا للكابوس! — وانصرفت:

كانت هؤلاء النساء يعرفن أوجيكوف والاصلاحية

معرفة سيئة. فالاصلاحية وأوجيكوف طبقا المقاطعة بحماسة. فقد قطع الاولاد كل صلة بأركادى بيد أنه لم يعد باقيا فى نفوسهم سخط ولا ضغينة ولا احتقار لهذا الشخص الرذيل. لقد كان هذا كأنما حكم المحكمة قد أخذ الأمر على نفسه كله. كان الأولاد يرقبون اوجيكوف من بعيد باهتمام كبير ويغرقون فى مناقشات طويلة حول الماضى والمستقبل الذى ينتظره. كان كثير منهم يؤكد أن العقوبة التى حكمت بها المحكمة عليه لا قيمة لها. هكذا كان رأى كوستيا فيتكوفسكى بشكل خاص.

— هذه عقوبة؟ لقد وضع اوجيكوف موضع الأبطال. والاصلاحية كلها تنظر اليه! أ يستحق ذلك؟

كان يبدو على وجهه بشكل خاص تعبير الزهو والاعتداد. كان يمر بين رفاقه كأنه مالك ما من أحد له الحق فى مخاطبته أو سؤاله أو محادثته. وفى المطعم كان اوجيكوف يأكل على طاولته المنفردة: وكانت تبدو له هذه الطاولة كأنها عرش.

غير أن سحر هذا الوضع البطولى لم يلبث أن تبدد. فقد شعر أوجيكوف بعد عدة أيام بأشواك تاج الحقارة الموضوع على رأسه بحكم رفاقه. واعتاد الأولاد بسرعة على الطابع الاستثنائى لوضعه. ولكن الانفراد ظل مستمرا. وأخذ أركادى يشعر بوطأة أيام الوحدة التامة، فكانت هذه الايام تمر على رسلها بعشرات الساعات فى سلسلة فارغة رتيبة لا يزينها حتى الحرارة المتواضعة من عشرة انسانية. وفي الوقت ذاته كانت الجماعة التى حول أوجيكوف كعادتها تعيش حياتها الناشطة، فترن الضحكات وتنطلق النكات وتشرق النفوس، وتتقد جذوة الصداقة والعطف. ومهما كان أوجيكوف مسكينا فان هذه المباهج كانت مألوفة لديه مع ذلك.

وبعد أسبوع قال لى قائده جيفيلى:

— أوجيكوف يطلب الاذن فى التكلم معك.

فقلت له: — كلا، سأتكلم معه حينما يتحمل باعتزاز عقوبته. هذا ما أود أن تجيبه به.

وسرعان ما رأيت باغتباط أن حاجبى آركادى اللذين

كانا لا يتحركان، قد ابتدأا يشكلان على جبهته ثنية لا تكاد تبين ولكنها معبرة. فقد أخذ ينظر الى الأولاد خلال ساعات طويلة ويتأمل ويحلم. وقد لاحظ الجميع تغيرا مؤثرا في وضعه تجاه العمل. كان جيفيلي في غالب الأحيان يخصص له تنظيف الباحة. فكان يذهب الى العمل بدقة كاملة فيكنس باحتنا الفسيحة ويفرغ علب الأوساخ ويعتنى بسياجات المساكب. وكثيرا ما كان مساء يظهر في الباحة مع رفشه فيلقط قطع الأوراق وأعقاب السجائر، ويسهر على نظافة مساكب الأزهار. وقد ظل ذات مرة جالسا طيلة الليل في أحد الصفوف يكتب على ورقة كبيرة ثم علقها في اليوم التالي في مكان بارز مكتوبا عليها:

أيها الولد احترم عمل رفيقك ولا ترم الأوراق على الأرض

قال غوركوفسكي: — انظر معي الى هذا، انه يعتبر نفسه رفيقا.

وفي منتصف عقوبته تقريبا وصلت الرفيقة زويا الى الاصلاحية، وكان ذلك وقت تناول الطعام بالضبط. ذهبت زويا رأسا الى أوجيكوف وسألته بارتياع والمطعم يسوده الصمت.

ـ أنت أوجيكوف؟ كيف تشعر بحالك؟

نهض أوجيكوف ونظر الى عينى زويا بجد وقال بصوت رقيق:

ـ لا أستطيع أن أكلمك. لا بد من اذن القائد.

فهرعت الرفيقة زويا سعيا وراء ميتيا. فوصل ميتيا خفيفا نشيطا وعيناه سوداوان فاحمتان.

ـ ماذا يوجد؟

ـ اسمح لى أن أتكلم مع أوجيكوف.

فأجاب جيفيلي:ـ لا.

ـ كيف: «لا»؟

ـ طيب.... لا أسمح وهذا كل شيء.

صعدت الرفيقة زويا الى مكتبي وسردت علي أقوالها:

ــ ما يجب القول؟ فاذا أراد ــ عند اللزوم ــ أن يشتكي؟ واذا وجد نفسه امام هوة؟ هذا تعذيب؟

ــ لا حيلة لى بذلك أيها الرفيقة زويا.

وفى اليوم التالى وقفت ناتاشا بيترنكو فى الاجتماع العام تتكلم:

ــ أيها الأولاد، امنحوا الآن عضوا عن أوجيكوف. انه يعمل جيدا واحتمل عقابه بشرف كأنه ولد حق فى الاصلاحية. اقترح العفو عنه.

فتعالى ضجيج من الاستحسان:

ــ نعم ممكن..

ــ لقد انصلح أوجيكوف...

ــ مرحى!

ــ حقا لقد حان الوقت...

ــ يجب أن يساعد هذا الصبى!

وأخذ رأى القائد، فأعلن:

ــ أقول لكم رأيى صراحة: لقد أصبح انسانا آخر. والبارحة عندما جاءت هذه... تعرفون جيدا ما كان!

ـ نعرف!

ـ ذهبت لتلقاه قائلة: يا طفلى يا ابنى، ولكنه عاند ولم يكلمها. أنا نفسى كنت أعتقد قبلئذ أن أركادى لن يصدر عنه شيء جدى، ولكننى الآن أقول لكم: يوجد عنده... يوجد شيء... منا نحن.

ابتسم لابوت ابتسامة عريضة:

ـ اذن سيكون العفو.

فصاح الأولاد: ـ اعرضوه على التصويت.

كان أوجيكوف فى غضون ذلك صامتا بقرب المدفأة ورأسه مطأطىء. جال لابوت ببصره على الأيدى المرفوعة وقال مرحا:

ـ ماذا... بالاجماع... هذا. يا أركادى أين أنت؟ اهنئك، لقد أطلق سراحك!

ظهر أوجيكوف على المسرح ونظر الى الاجتماع وفتح فمه... وأخذ يبكى.

وعم الصالات الانفعال، فصاح أحدهم:

ـ غدا سيقول لكم...

ولكن أوجيكوف كفكف دموعه بكم قميصه، ونظرت اليه فوجدته كان متألما، وقال أخيرا:

ـ أشكركم أيها الأولاد وأيتها الفتيات ويا ناتاشا. أنا... أفهم كل شيء لا تظنوا من فضلكم...

فقال لابوت بقسوة:ـ انس كل شيء.

هز أوجيكوف رأسه باذعان. وختم لابوت الجلسة وأسرع الأولاد الى أوجيكوف على المسرح. ان كرمهم اليوم قد سدد ذهبا خالصا. تنفست الصعداء كما يفعل الطبيب بعد ثقب قحف انسان.

افتتحت كومونة دزرجنسكي في شهر كانون الأول. كان الافتتاح مهيبا جدا ووديا جدا.

قبل هذا الحين بقليل في نهار مثلج لطيف، قام الأولاد الخمسون الأوائل الذين عينوا للكومونة، فارتدوا بزاتهم الجديدة ومعاطفهم الوثيرة وودعوا رفاقهم واجتازوا المدينة سعيا على الأقدام ليذهبوا الى مقرهم الجديد. كانوا يبدون لنا ـ وهم بجماعة صغيرة ـ صغارا كل الصغر كأنهم صيصان لطيفة صغيرة. وصلوا الى الكومونة

وقد غشتهم نتف الثلج كالزغب الأبيض وهم خفاف وخدودهم متوردة. وهم دائما كالصيصان أخذوا يركضون بخفة فى أرجاء الكومونة وينقرون مختلف مسائل التنظيم. وبعد خمس عشرة دقيقة أصبح لهم مجلس قادة خاص بهم وأخذت الكتيبة المختلطة الثالثة تنقل الأسرة.

جاء اولاد غوركى الى الافتتاح والموسيقى والعلم يتقدمانهم. إنهم الآن فى زيارة لدى رفاق يحملون منذ هذه اللحظة اسما جديدا غير مستعمل رسميا وهو: الكومناريون. ففى وسط اجتماع اربعمئة طفل كانوا مشردين كانت جماعة رجال الأمن الداخلى الأكثر مسئولية واهتماما واستحقاقا اقول: كانت جماعة الأمن الداخلى لا تحدث أبدا أى تأثير بأنهم جمعية خيرية. فقد انعقد بين الجانبين على الفور صلات ودية من الصداقة، إلا أنه كان يظهر فيها بوضوح الفرق بين الجيلين واحترامنا الخاص، احترام الأطفال السوفييتيين للرجال الأكبر سنا. ولكنه فى الوقت ذاته ما كان هؤلاء الصبيان يسلكون سلوك الأولاد القاصرين وعليهم الوصاية،

لقد كان لهم تنظيمهم وقوانينهم ومحيط نشاطهم الذى كانت الكرامة والمسئولية والواجب تجد لنفسها مكانا فيه.

حدث أن إدارة الكومونة قد عهد إلي بها دون سابق علم أو اتفاق.

كانت اصلاحية غوركى لدى مقارنتها بالكومونة تبدو عملا أعقد وأصعب على السواء. فبعد أن فقد الأولاد خمسين من رفاقهم تلقوا خمسين ولدا جديدا من العاصمة هؤلاء الأولاد الذين رأوا كثيرا فى حياتهم. وهكذا كان الأمر كذى قبل، كان الجدد يتمثلون بسرعة النظام وتقاليد الاصلاحية إلا أن الثقافة الحقيقية والشخصية التعاونية الحقيقية فكانتا تتشكلان بصورة أكثر بطؤا. على أن هذا كان كله امرا مألوفا.

كانت تنفتح أمامنا آفاق جميلة: كنا بدأنا نحلم بكليتنا العمالية الخاصة بنا وببناء جديد لقسم الماكينات وبأفواج جديدة فى الحياة. وسرعان ما قرأنا فى الصحف أن غوركى يعود الى الاتحاد السوفييتى.

١٤. مكافآت

إن هذه الفترة من كانون الأول حتى تموز كانت فترة بديعة. ففي هذا الحين كان زورقي تلطمه العاصفة بعنف غير أنه كان عليه جماعتان، وكل واحدة منهما بهية على شاكلتها.

وسرعان ما إرتفع عدد أولاد دزرجنسكي الى ١٥٠ ولدا. وقد وصلتهم النجدات بثلاث دفعات مؤلفة من ثلاثين تقريبا، وكان جميع الأولاد مشردين من «النخبة الاولى» وكلهم أخذوا من «صفوة» الأولاد. كان أولاد الكومونة يحيون حياة سليمة صحيحة، وكان يبدو عن بعد أن المرء لا يملك إلا أن يغبطهم. وكان الكثيرون فعلا يغبطونهم وليس الاولاد المشردون فحسب!

كان الاولاد من كومونة دزرجنسكي يظهرون للملأ مرتدين بزات جميلة من الجوخ ومزينين بياقات عريضة بيضاء. كانت لهم فرقة موسيقية مؤلفة من الآلات الهوائية من المعدن الابيض، وكانت أبواقهم تحمل سمات مصنع شهير في براغ. وكان أولاد الكومونة ضيوفا مكرمين

فى نوادى العمال ونادى رجال الأمن الداخلى حيث كانوا يظهرون بأناقة مهيبة متوردين محبوبين. كانت جماعتهم دائما ذات مظهر رفيع الأبهة حتى أن كثيرا من الرؤوس ذات جهاز دماغى من نوع خفيف، يغتاظ منه فيقول:

ـ إنتقيت خيرة الأطفال الذين ألبستهم لتعرضهم. خذ أولادا مشردين!

غير أنه ما كان لدى الوقت الفارغ لأهتم لهذا الموضوع. كان الوقت لا يكاد يكفينى كى أتغلب على الشئون الضرورية. كنت أروح وأغدو من جماعة الى أخرى وكان الوقت الذى يضيع فى الطريق يبدو لى ثقبا محزنا فى ميزانية مواقيتى. وعلى الرغم من أن صفوف الأولاد لم تبد أى تداع وأننا ما كنا نتأى بأنفسنا عن شطآن هناءة تامة، فإن ملاكات التربية أيضا كانت قد إستنفدت قواها. وقد توصلت فى هذه الآونة إلى فرضية ما زلت أتعاطاها حتى الآن مهما بدت مخالفة للمنطق. إن الأولاد السالمين أو الموضوعين فى شروط سليمة هم الذين يقدمون أكثر مشقة للمربى. فطبيعتهم تكون أكثر

دقة ورهافة، وطلباتهم تكون أكثر تعقيدا وثقافتهم اعمق وصلاتهم أكثر تنوعا. إنهم لا يتطلبون منا تفريغ شحنات قوية من الارادة ولا إنفاق إنفعال خاص بل تكتيكا من أكثره تعقيدا.

وعليه فإن اولاد الاصلاحية وكذلك أولاد الكومونة قد كفوا عن الحياة بمعزل عن المجتمع. فاولاء وهؤلاء كانوا قد أصبح لهم شبكة من العلائق الاجتماعية: مع أوساط الشبيبة الشيوعية والأحداث الطلائع والرياضيين والعسكريين والنوادى. وكانت قد شقت طرق ودروب كثيرة ومهدت بين الأولاد والمدينة وما كان يمشى عليها الناس فحسب بل الخواطر والأفكار والتأثيرات ايضا.

ولهذا إزداد غنى اللوحة العامة للعمل التربوية بألوان جديدة. فالطاعة ونظام الحياة لم يعودا منذ زمن بعيد شغلى الشاغل. فقد أصبحا عادة الجماعة وتقليدا لها تعرف به أحسن منى وكانت تسهر على مراعاته لا عرضا ولا بصدفة الشدائد والأزمات الهيسترية. بل فى كل لحظة وفاقا لمتطلبات الغريزة الجماعية إذا صح التعبير.

ومهما كانت صعابى كبيرة فقد كانت حياتى آنذاك سعيدة، ولا يسع المرء أن يصف الإنطباع البالغ عن السعادة التى تشعرها فى مجتمع للأولاد قد شب وكبر معك ويضفى عليك ثقة لا حد لها ويمشى معك الى الأمام. ففى مثل هذا المجتمع حتى الفشل لا يكون محزنا للنفس، والغم والألم نفسهما يزدانان بحلة زاهية.

إن مجتمع أولاد إصلاحية غوركى قد كنت أهواه أكثر من مجتمع أولاد الكومونة. كانت أواصر الصداقة فيه أمتن وأعمق وكان فيه أفراد ذوو مكانة ارفع وكفاح أشد. فكنت أكثر لزوما لهم. أما أولاد دزرجنسكى فقد أسعدهم الحظ باوصياء امثال رجال الامن الداخلى بينما أولاد إصلاحية غوركى ما كان لهم أقارب سواى وسوى فئة قليلة من المربين. ولذا ما كنت أفكر أبدا أنه سيأتى وقت أفترق فيه عنهم. كنت عاجزا بصورة عامة عن أن أتصور مثل هذا الحادث. فلن يكون سوى كارثة لا حد لها فى حياتى.

وحينما وصلت إلى الإصلاحية وكأنما وصلت إلى بيتي، وكنت أستريح فعلا في إجتماع الأولاد العام وكذلك إجتماع مجلس القادة حتى في زحمة أعقد المنازعات والقرارات الصعبة وحينذاك ثبتت إحدى عاداتي لمدة طويلة: فقد فقدت إمكانية العمل في جو هادىء. إن فكري ما كان يتنشط وذكائي ما كان يعمل بشكل أبهج إلا حينما كان ضجيج الأولاد يعلو إلى جواري فأشعر بارتياح وغبطة. كنت اعترف بهذا الجميل لأولاد غوركي.

ولكن كومونة دزرجنسكي كانت تتطلب دائما مزيدا من الجهد. كانت المتاعب هناك اكثر جدة والآفاق التربوية اكثر حداثة.

إن ما كان جديدا وغير متوقع لي بشكل خاص هو مجتمع رجال الأمن الداخلي. ان رجال الامن الداخلي قبل كل شيء مجتمع وهذا ما لا يمكن إطلاقا قوله عن رجال التعليم العام. كنت كلما نظرت الى هذا المجتمع وإزددت تغلغلا في علائق العمل إنكشفت لعيني

جدة جليلة الشأن بشكل حي. كيف كان يجرى هذا، ما كنت ادرى عنه شيئا بيد أن مجتمع رجال الأمن الداخلى كانت له نفس الصفات التى كنت أسعى طيلة ثمانية أعوام لطبعها فى أذهان مجتمع أولاد الاصلاحية. فقد إكتشفت فجأة أمامى النموذج الذى كان شكله حتى ذلك الحين خيالى، والذى كنت قد إستخلصته بشكل منطقى وفنى من جميع الأحداث وجميع فلسفة الثورة، ولكننى لم يقدر لى أن أراه فأفتقدت الأمل بالعثور عليه.

كان هذا الإكتشاف عزيزا علىّ وغنيا بالمعنى حتى إننى كنت أخشى ان افتقد سحره أكثر من أى شئ آخر. كنت لا أزال أبقى عليه فى أعماق سرى لأننى ماكنت أريد ان تأخذ صلاتى بهؤلاء الناس طابعا فيه شئ من الاصطناع.

هذا الحادث كان نقطة انطلاق لتفكيرى التربوى الجديد. كنت مغتبطا بشكل خاص بأن ألاحظ أن سمات مجتمع رجال الأمن الداخلى كانت تنير بشكل أيسر وأبسط ظلمات وغموض هذا النموذج الخيالى الذى

كان يقود عملى حتى ذلك الحين. فمنذ ذلك الحين كانت لدىّ الامكانية بأن أتصور كثيرا من الميادين بأدق تفاصيلها ظلت حتى ذلك الحين خافية على. ان ذكاء رفيعا جدا متحالفا مع التعليم والثقافة ما كان ليأخذ لدى رجال الأمن الداخلى الشكل الذى كنت أمقته من المثقف الروسى، كنت أعلم مسبقا أنه كان يجب ان يكون هكذا ولكن كيف يصبح هذا ماديا فى شخصية حية، هذا ما كان عسيرا على ان اتصوره. واصبحت منذ ذلك الحين فى قدرة على دراسة لغة وتصرفات منطقية وشكل جديد للانفعال المثقف وأوضاع جديدة للأذواق ولتراكيب عصبية جديدة ولكل شئ اهم، انه الشكل الجديد لاستعمال المثل الاعلى. وكما هو معروف، ان المثل الاعلى لدى مثقفينا يشبه مستأجرا وقحا دخيلا لا يدفع شيئا وله لسان كالثعبان يلسع جميع الناس، فكل واحد يعانى من جواره ويحاول ان ينتقل الى ابعد ما يمكن من المثل الأعلى. وقد رأيت اذ ذاك شيئا آخر: ان المثل الأعلى ليس مستأجرا بل هو إدارى صالح

يحترم جهد الجيران ويهتم بالاصلاحات والتدفئة وكل الناس يجدون العمل تحت قيادته ميسورا لذيذا واهتممت ثانيا بالروح المبدئية، فرجال الأمن الداخلي كانت عندهم هذه الروح إلى درجة سامية جدا. غير أن المبدأ عندهم ليس عصابة على عيونهم كما هو الأمر عند بعض الناس من «اصدقائي». فبالنسبة لرجال الأمن الداخلي إن المبدأ هو أداة قياس يستعملونها بهدوء كالساعة بدون تهاون ولكن ايضا بدون استعجال شديد. واخيرا رأيت ما هي الحياة السوية للمبدأ واقتنعت نهائيا بأن كرهي لما يقصد به المثقفون المبادئ كان هناك ما يبرره لأنه كان معروفا منذ عهد بعيد: فحينما يعمل مثقف شيئا — مهما كان — بالمبدأ، فهذا يعني أنه هو نفسه وحاشيته ينبغي لهم أن يأخذوا دواء من حشيشة الهر.

وقد رأيت أيضا كثيرا من الخصائص الأخرى: مزاج مرح في كل الظروف وكلام موجز وكره لجميع الصيغ المصنوعة وعدم القدرة على التمرغ على أريكة أو طرح البطن على الطاولة وأخيرا قدرة لا حد لها على العمل

المفرح دون التصنع المنافق أو العذاب ودون ما يذكر العادة المقيتة بوضع «الضحية المقدسة». ورأيت أخيرا ولمست هذه المادة الثمينة التي لا يسع المرء أن يسميها بغير «الصمغ الاجتماعى»: وهو معنى الأفق المشترك والقدرة على الرؤية فى كل لحظة من العمل جميع اعضاء المجتمع، ثم الوعى الدائم للاغراض الكبيرة المشتركة؛ ذلك الوعى الذى مع ذلك لا يأخذ أبدا طابع المذهبية ولا التقول ثم الكلام الفارغ. وإن هذا الصمغ الاجتماعى لا يشترى من الدكان بخمسة كوبيكات من اجل المؤتمرات والاجتماعات فقط، فلم يكن هذا شكلا للصدام المهذب الباسم مع الجار القريب بل كان هو الوحدة الحقيقية للحركة والعمل والمسئولية والمساعدة، لقد كان وحدة التقاليد.

وعندما اصبح الاولاد فى كومونة دزرجنسكى موضع رعاية خاصة من قبل رجال الامن الداخلى، وجد هؤلاء الاولاد انفسهم فى شروط طيبة: فلم يبق لهم إلا أن

ننظروا. أما أنا فلم يعد لى حاجة لازعج نفسى كى اقنع رؤسائى بضرورة منديل الجيب وبفائدته.

كان رضى نفسى من صنف رفيع. وعندما سعيت لتكشيفه فى صيغة وجيزة فهمت: اننى كنت قد تعرفت عن قرب على البلاشفة الحقيقيين. كنت قد اقتنعت أن تربيتى انما هى تربية بلشفية وأن نموذج الانسان الذى اتخذته لى نموذجا ما كان ثمرة خيالى الرائع واحلامى فحسب بل كان هو الواقع ذاته كما أشعر وانه قد اصبح جزءا من عملى.

ولم يكن عملى فى الكومونة قد سممته اى هيسترية: عمل دائب لا ريب فى ذلك ولكن فى حدود العقل البشرى.

كانت حياة اولاد الكومونة أقل ثراء وأقل تحررا من المتاعب التى كان يتصورها من حولنا. كان رجال الأمن الداخلى قد استخلصوا نسبة مئوية معينة من رواتبهم من أجل تغذية أولاد الكومونة على أن هذا كان غير مقبول لنا ولهم.

بعد ثلاثة أشهر شعرت الكومونة بضائقة جدية. كنا نؤجل الدفع وكنا نقوم بتسديد نفقات التغذية بصعوبة كبيرة. فما كانت المعامل تنتج سوى مردود ضئيل تافه لأنها كانت معامل للتدريب والتعليم. والحق يقال إنه منذ الأيام الأولى نقلت أنا والأولاد معمل الأحذية إلى ركن مظلم وخنقناه جميعا تحت الوسائد. وتظاهر رجال الأمن الداخلى بانهم لم يلاحظوا هذا الاجرام؛ غير أننا فى المعامل الأخرى ما كنا نتوصل إلى تنشيط العمل الذى يثمر.

وذات مرة دعانى رئيسنا لمقابلته، فقطب حاجبيه وتأمل مليا ووضع شيكا على الطاولة وقال:

— انتهى. هذا كل شىء!

ففهمت:

— كم؟

— عشرة آلاف. آخر ما تبقى عندنا. لقد أخذنا سلفة عام ولم يعد منها شىء الآن. استعمل هذا... إنه رجل حازم...

وبعد عدة أيام رأت الكومونة شخصية ليست تربوية إطلاقا تظهر فيها. إنه سولومون بوريسوفيتش كوغان. كان سولومون بوريسوفيتش مسنا قارب على الستين، مريض القلب، مفرط السمن، مصابا بالربو، محطم الأعصاب، مصابا بذبحة الصدر، ولكن هذا الرجل مصاب بمس من شيطان النشاط والدأب ولا يستطيع سولومون أن يتغلب على هذا الشيطان. ولا يحمل معه رأس مال ولا مواد أولية ولا عبقرية مستنبطة، بل كان فى جسمه المحطم غليان من القوى الدافقة التى لم يوفق إلى صرفها فى ظل النظام القديم؛ إنها: روح العمل والتفاؤل وروح النضال ومعرفة الناس وانعدام من المبادىء صغير يمكن تبريره وهو متحالف بشكل غريب مع حساسية لينة بسهولة وإخلاص الفكرة. وقد كان هذا كله يحوطه الاعتزاز والافتخار لأن سولومون بوريسوفيتش كان يحب أن يقول:

ـ أنتم ما زلتم لا تعرفون كوغان! وحينما ستعرفونه، إذ ذاك ستقولون.

وقد كان على حق. ثم عرفنا كوغان وقلنا: إنه لرجل جليل القدر. لقد كانت خبرته العملية تنقصنا كل النقص. والحق يقال: إن هذه الخبرة كانت تظهر فى بعض الأحيان بأشكال كانت ترتعد لها فرائصنا ولا نصدق عيوننا بذلك.

جلب سولومون بوريسوفيتش من المدينة عربة من العوارض الخشبية. لأجل أى شيء؟

ـ كيف لأجل أى شيء؟ والمستودع؟ لقد تلقيت طلبية من الأثاث لأجل معهد البناء ويجب وضعه فى أحد الأمكنة.

ـ لا حاجة لوضعها فى أحد الأمكنة فنحن نصنع الأثاث ونرسله إلى المعهد.

ـ هيه، هيه! أتظنون أن هذا معهد صحيح؟ إنه لشيء باطل. لو كان حقا معهدا فهل أكون على صلة بهم؟

ـ ليس معهدا؟

ـ ماذا يعنى معهد؟ فليسموا أنفسم إذن كما يشاؤون. الشيء الهام هو أنه يوجد مال. فحينما حصلوا على المال

أرادوا أن يحصلوا على الأثاث، ولا بد للأثاث من سقف؛ كما تعلمون هذا، وقبل بناء السقف لا بد لهم من وقت لأنهم ليس لديهم جدران.

ـ طيب، لا يهم هذا! لن نبنى أى مستودع.

ـ هذا تماما ما قلته لهم. إنهم يظنون أن كومونة دزرجنسكى شيء تافه... إنها مؤسسة نموذجية. وهل ستنشغل بأى مستودع لا أدرى؟ كأنما لدينا الوقت لذلك.

ـ وهم إذن؟

ـ هم يقولون: ابنوا! وبما أنهم يلحون فى ذلك قلت لهم: هذا يكلف عشرين ألفا. ولكن إذا قلتم لى إنه لا يجب البناء فليكن الأمر كما تريدون. لماذا سنبنى مستودعا؟ بينما نحن الشيء الذى يلزمنا هو معمل التركيب.

وبعد اسبوعين شرع سولومون بوريسوفيتش ببناء المعمل. فوضعنا أعمدة وأخذ النجارون يضعون الجدران.

ـ يا سولومون بوريسوفيتش! من أين حصلت على المال لهذا العمل؟

ـ كيف من أين؟ ألم اقل لك ذلك؟ لقد أخذنا عشرين ألفا.

ـ من أعطى؟

ـ المعهد. أنت تعرف ذلك...

ـ لأجل أى شيء؟

ـ لأجل أى شيء؟ إنهم يودون أن نبنى لهم مستودعا... طيب، بعدئذٍ؟ أهذا يضايقنى؟

ـ انتظر يا سولومون بوريسوفيتش، إنك لا تبنى مع ذلك مستودعا بل معملا للتركيب.

فتملك سولومون بوريسوفيتش الحنق:

ـ آه! يعجبنى ذلك! ومن قال لى أننا لسنا بحاجة إلى مستودع؟ أليس أنت؟

ـ يجب أن نعيد المال.

فتغضن وجه سولومون بوريسوفيتش بالاشمئزاز:

ـ اسمع: لا يسمح بانعدام الحس العملى فى هذه المسألة. من سيعيد المال؟ أنت، فلديك أعصاب متينة لتقوم بذلك، ولكن رجلا عليلا مثلى لا يمكننى

أن أضع أعصابى فى هذه التجربة. أعادة الدراهم!

ـ ولكنهم سيعرفون أخيرا!

ـ يا أنطون سيميونوفيتش إنلك مع هذا رجل فطن ماذا يستطيعون أن يعلموا؟ طيب! لنقبل كما تريد أنهم جاءوا غدا: نبنى، أرأيت؟ ولكن أين مكتوب أن هذا معمل للتركيب؟

ـ ومتى ستبدأ العمل؟

ـ من يستطيع أن يمنعنى؟ معهد البناء ربما؟ وإذا أردت أن أعمل فى الهواء الطلق أو فى مستودع؟ هل هناك قانون بهذا الشأن؟ لا يوجد شيء من هذا القبيل.

كان منطق سولومون بوريسوفيتش لا حد له. إنه كبش ذو قوة خارقة تجتاح كل العوائق. وفى هذه الآونة لم تعد له أية مقاومة لأن محاولاتنا فى هذا الاتجاه قد سحقت منذ البداية.

فى الربيع عندما أخذ جوادانا يمضيان الليل فى المرعى سألنى غوركوفسكى:

ـــ طيب، ماذا يبنى سولومون بوريسوفيتش فى الاصطبل؟
ـــ كيف يبنى؟
ـــ إنه يعمل! لقد وضع شيئا كالدست وأقام مدفأة.
ـــ قل له أن يأتى!
جاء سولومون بوريسوفيتش ممرغا كله وهو ينضح عرقا ويلهث كعادته.
ـــ ماذا تبنى هناك؟
ـــ ماذا أبنى؟ معملا للصهر كما تعرف ذلك!
ـــ معملا للصهر؟ ولكن كان قد تقرر وضعه خلف الحمامات.
ـــ ولماذا هناك ما دام يوجد مكان جاهز؟
ـــ يا سولومون بوريسوفيتش.
ـــ ماذا يوجد مع سولومون بوريسوفيتش؟
فسأل غوركوفسكى: ـــ طيب، والجوادان؟
ـــ الجوادان يعيشان فى الهواء الطلق. أتظنون أنه لا يوجد سواكم يحتاج إلى الهواء النقى وأن الجياد إذ

ذاك تستنشق جميع أنواع القذارات؟ يا لكم من أصحاب جياد!

كنا ـ إذا صح التعبير ـ مغلوبين على أمرنا في أوضاعنا. ومع ذلك فقد انتفض فيتيا قائلا:

ـ طيب وعندما يأتي الشتاء؟

ولكن سولومون بوريسوفيتش أفحمه:

ـ أ أنت متأكد كل التأكد بأنه سيكون شتاء!

فصاح فيتيا مصعوقا: ـ يا سولومون بوريسوفيتش!

وانسحب سولومون بوريسوفيتش قليلا:

ـ طيب، إذا كان شتاء، وبعدئذ؟ ألا يمكن بناء إصطبل في شهر تشرين الأول؟ هل هناك فرق عندك، أم أنك تريد أن أبعثر الآن ألفي روبل؟

لقد أذعنّا بزفرات حزينة. كان سولومون بوريسوفيتش مشفقا علينا يشرح لنا وهو يثني أصابعه:

ـ أيار، حزيران، تموز ثم هذا الشهر كيف... آب، أيلول...

وخالجه الشك قليلا ثم واصل الكلام بشدة:

— تشرين الأول... ستة أشهر، فكر إذن! بعد ستة أشهر ألفا روبل يجلبان ألفى روبل أيضا. وأنت تريد أن يظل الاصطبل ستة أشهر خاويا خاليا؟ رأسمال ميت، أهذا مقبول؟

إن رأسمالا ميتا بأنزه الأشكال كان شيئا لا يطيقه سولومون بوريسوفيتش.

كان يقول: — لا أستطيع أن أنام. هل يسع المرء أن ينام حينما يكون ركام من العمل. إن كل دقيقة إنما هى عملية. من اخترع أن يكون النوم طويلا؟

كنا قد انغمسنا فى لجة الدهشة، منذ أمد حديث قد كنا فقراء، والآن سولومون بوريسوفيتش لديه تلال من الأخشاب والمعادن والآلات — الأدوات: كان نهار عملنا يشرق كالسهب: بلاغات الاعتمادات والشيكات والسلفة واللوائح ،عشرة آلاف، عشرين ألفا. وقد سمع سولومون بوريسوفيتش فى مجلس القادة بازدراء ناعس حديث الأولاد حول موضوع ثلاثمئة روبل للبنطلونات. وقال:

ـ هكذا تطرح المسألة؟ الأولاد بحاجة إلى بنطلونات... لا يجب أن يخصص ثلاثمئة فحسب، إن هذه بنطلونات رديئة، ولكن يجب تخصيص الف روبل.

فسأل الأولاد: ـ طيب، والدراهم؟

ـ لديكم أيدٍ ورؤوس. لماذا تظنون خلق رأسكم؟ لتضعوا عليه قبعة؟ لا أبداً. اشتغلوا ربع ساعة أكثر في المعمل وسوف أجلب لكم فورا ألف روبل وربما أكثر حسب ما سوف تكتسبون.

وقد ملأ سولومون بوريسوفيتش معامله للأعمال الخفيفة بمواد بخسة الثمن عتيقة، تلك المعامل التي تشبه كثيرا المستودعات، فكوم فيها الآلات ـ الأدوات القديمة وربط الكل بخيوط وتوصيات ناهية، ولكن أولاد الكومونة انغمسوا بابتهاج في هذا السقط القميء. لقد صنعوا كل شيء: أثاثا للنادي وحواف للاسرة وزياتات وسراويل قصيرة وقمصان ومقاعد مدرسية وكراسي وزنادات المطافيء، ولكنهم صنعوا كل شيء بعدد وفير لأنه في انتاج سولومون بوريسوفيتش كان قد اندفع تقسيم العمل إلى أوجه:

ـ أصحيح أنك تعمل على جعل نفسك نجارا؟ على كل حال لن تكون نجارا بل ستكون طبيبا أعرف ذلك إذن اخرط عصى الكرسى فلماذا ستصنع كرسيا كاملا؟ سأدفع على كل زوج من العصى كوبيكا واحدا. وإنك ستجنى خمسين كوبيكا فى اليوم وأنت ليس لك زوجة ولا أطفال...

كان أولاد الكومونة يضحكون فى مجلس القادة، ويؤنبون سولومون بوريسوفيتش على مصنوعاته «الملهوسة». ولكننا كان لنا مشروعنا الصناعى والمالى وهذا شئ مقدس.

دخلت الأجرة لدى أولاد الكومونة كأنما ما من أحد سمع بالحديث عن التربية ولا عن الشيطان وإغرائه. حينما عرض المربون على اهتمام سولومون بوريسوفيتش المشكلة التربوية للأجرة، أجاب:

ـ ينبغى لنا أن نربى أناسا أذكياء وهذا ما آمله. وكيف يكون المرء ذكيا عندما يعمل بدون أجرة؟

ـ والأفكار حسب رأيك يا سولومون بوريسوفيتش هى أمر لا قيمة له؟

ـ عندما يقبض المرء أجرته فإنه

تخطر بباله خواطر كثيرة لا يدرى أين يضعها. ولكن حينما يكون لا يملك مالا فليس له حينذاك سوى فكرة واحدة: ممن يقترض المال؟ هذا أمر واقع.

كان سولومون بوريسوفيتش خميرة نافعة فى مجتمعنا الكادح. كنا نعلم أن منطقه الساخر كان من عالم آخر ولكن منطقه فى فعاليته كان يهاجم هجوما مرحا قاسيا كثيرا من الأوهام وكان يثير برد فعل الحاجة لأسلوب آخر من العمل.

جرى وضع كومونة دزرجنسكي على الصعيد التجارى بشكل بسيط وبدون جهد تقريبا وبدون أن يبدو لنا ظفرا بمثل هذه الأهمية. ما كان سولومون بوريسوفيتش يقول عبثا:

ــ مأ هذا؟ مئة وخمسون ولدا لا يستطيعون كسب قوتهم؟ وكيف يكون خلاف هذا؟ هل تلزمهم شامبانيا؟ أم أن نساءهم يحببن التواليت؟

لقد اقتحم أولاد الكومونة مشاريعنا الصناعية الواحد تلو الآخر بجهد كبير مشترك. كان رجال الأمن الداخلى

عندنا كل يوم. كانوا يتغلغلون مع الأولاد إلى أدق جزء وأصغر ثغرة، وكانوا يحاربون نزعات سولومان بوريسوفيتش في «لهوجة العمل» وفي إفساد كيفية الانتاج. كانت خبرة الأولاد الصناعية التي تزداد في كل يوم أكثر تعقيدا تتجرأ بالنقد لسولومون بوريسوفيتش، فيتملكه الغيظ :

ـ هذا هو الشيء الجديد! إنهم يعرفون كل شيء. إنهم يقولون لي عما يجري في مصنع قاطرات خاركوف! وهل يفهمون في هذا الامر شيئا؟

وفجأة اضاء لنا الطريق شعار يعترفه الجميع :

« يلزمنا معمل حقيقي».

وأخذنا بازدياد نتكلم عن المعمل. وكلما كانت آلاف الروبلات تتجمع لحسابنا كانت أحلامنا المشتركة حول موضوع المعمل تتحدد تفاصيلها في أقرب الأشكال واكثرها إمكانية تحقيق. ولكن هذا جاء بعدئذ.

كان أولاد كومونة دزرجنسكي وأولاد اصلاحية غوركي يتلاقون في الأحيان الكثيرة. ففي أيام الأحد كان يذهب فريق إلى الفريق الآخر بكتائب كاملة، ويجرون

بينهم مباريات كرة القدم والكرة الطائرة ولعبة «غوروذكي»، ويستحمون ويترلجون ويتجولون ويذهبون إلى المسرح معا.

كانت الاصلاحية والكومونة تقومان في كثير من الأحيان متعاونتين بشتى الرحلات ومناورات الشبيبة الشيوعية والأحداث الطلائع وتذهبان معا للقيام بزيارات صداقة أو التسليم على بعض الضيوف والقيام بجولات . كنت أحب بشكل خاص هذه الأيام، لقد كانت أيام انتصارى الحقيقي وكنت أعرف حق المعرفة أن هذا النصر هو الأخير.

فى مثل هذه الأيام قرئ أمر عام فى الاصلاحية والكومونة يشير إلى اللباس ومكان اللقاء وزمانه. لقد كانت البزة واحدة للطرفين: بنطلون فارس ولفيفة جلدية وياقة بيضاء عريضة وقبعة مطرزة. كنت أبقى عادة قبل ليلة مع أولاد غوركي وأعهد بالكومونة إلى قرغيزوف. كنا نذهب من كورياج بمدة ثلاث ساعات وكنا ننزل إلى المدينة بطريق جبل خولودنايا. إن الموعد المعين

كان على الدوام أمام اللجنة التنفيذية المركزية لأوكرانيا في ساحة تيفيليف المعبدة بالاسفلت.

وفى المدينة كانت اصلاحية غوركى دائما تمشى مشية بديعة. كانت تشكيلتنا العريضة بالرتل السداسى تملأ قارعة الطريق تقريبا بما فيها طرق حافلات الترام. وكانت تتكون وراءنا ذيول مؤلفة من عشرات من الحافلات وكان السائقون يغتاظون ويقرعون باستمرار أجراس التنبيه ولكن الصغار فى الطرف الأيسر كانوا يعرفون واجبهم: فيمشون برصانة ويوسعون خطوتهم قليلا ويلقون من حين إلى آخر نظرة خبيثة على الأرصفة دون أن يعيروا أدنى انتباه للحافلات ولا للسائقين ولا لقرعات أجراس التنبيه. ووراء الجميع كان بيترو كرافتشنكو يحمل راية مثلثة. كان الجمهور ينظر إليه بفضول وعطف خاصين وكان الصبيان يزدحمون بحماسة كبيرة حوله، فكان بيترو يخفض بصره مضطربا. وكانت رايته ترفرف عند وجه السائق تماما، وكان بيترو لا يمشى بل يعوم فى الموجة العارمة لأصوات جرس الحافلة.

وفي ساحة روزا لوكسمبورغ كان الصف يفسح الطريق للحافلات فكانت العربات تتخطانا الواحدة تلو الأخرى والناس ينظرون من النوافذ ضاحكين ويهددون الأولاد بأصابعهم. وكان الأولاد من غير أن يفسدوا الصف ولا وحدة الخطى يبتسمون ابتسامة خبيثة معهودة للأولاد. لماذا لا يكون مزاح مع الجمهور وتهريج له؟ ففيه أناس طيبون لا نبلاء يتبخترون في عرباتهم في شوارعنا ولا فتيات متأنقات متبرجات يتأبطن الضباط المتبهرجين ولا أصحاب حوانيت ينظرون إلينا شزرا. كنا نمشي سادة في مدينتنا: لا «أطفالا في الملاجئ» بل أولادا في اصلاحية غوركي. ولم يكن لمجرد عبث أن رايتنا الحمراء كانت ترفرف آمامنا وأن أبواقنا النحاسية تعزف «مارش بوديوني».

ودرنا لنخرج إلى ساحة تيفيليف وارتفعنا قليلا فلمحنا أمامنا طرف راية أولاد كومونة دزرجنسكي. ثم ها هو ذا خط الباقات البيضاء والوجوه الصديقة النبيهة يقودها قرغيزوف، فترتفع الأيدي بالتحية وتدوى ألحان

الموسيقى. وبعد لحظة تقطع جوقتنا لحن المارش وتدوى ردا على تحيتهم.

وبلحظة لا أكثر وهى الوقت الذى يجرى فيه قرغيزوف تقريره نلبث نحن وجها لوجه صامتين. وعندما ينحل نظام الصفوف وينطلق الأولاد إلى أصدقائهم يتصافحون ضاحكين مازحين كنت أفكر بالدكتور فاوست: فليحسدنى هذا الألمانى الماكر. فلم يسعف الحظ هذا الدكتور حقا فقد أساء اختيار عصره والتركيب الاجتماعى الذى لا يلائمه.

وإذا كنا نلتقى فى أمسيات قبل يوم الأحد فقد كان يحدث أن ميتيا جيفيلى يأتى لمقابلتى ويعرض:

– أرأيت؟ فلنذهب جميعا إلى أولاد إصلاحية غوركى. إنهم يشاهدون اليوم فيلم «الدارعة بوتمكين». وبالنسبة للطعام يوجد منه كفاية...

وفى تلك الليالى فى وقت متأخر من الليل كنا نوقظ بودفوركى على أصوات معزوفات جوقتينا ونصخب على الطاولات وفى المهاجع والنادى. كان الأولاد القدماء

يتذكرون العواصف والأيام الجميلة من السنين الماضية، أما الأولاد الجدد فيسمعون ويغتبطون.

وابتداء من نيسان أصبح مجيء غوركي هو الموضوع الرئيسي لمحادثاتنا الودية. وكان قد كتب لنا أنه سيأتي في شهر تموز خصيصا إلى خاركوف ليقضي ثلاثة ايام في الاصلاحية. كنا نجري معه منذ زمن طويل مراسلة متواصلة. كان الأولاد الذين لم يروه قط يشعرون بوجوده بينهم وتبتهج نفوسهم كما يحدث للأطفال لدى رؤية صورة أمهاتهم. إن أولئك الذين فقدوا أسرتهم في ميعة الحداثة ولم يحملوا معهم على درب الحياة أي زاد من الحرارة والعطف، أولئك فقط يستطيعون أن يعرفوا مدى برودة الدنيا ويدركوا قيمة الرعاية والعطف الذي يقدمه رجل عظيم، رجل ذو قلب غني كريم.

ما كان أولاد غوركي يعرفون كيف يعبرون عن حنانهم لأنهم كانوا يقدرونه تقديرا رفيعا جدا. لقد عشت ثمانية أعوام معهم وكان كثير منهم يكن لي المودة والعطف، ولكن ما من مرة خلال هذه السنوات أبدى لي واحد منهم

حنانا بالمعنى المألوف للكلمة. كنت أعرف عواطفهم من علائم أعرفها وحدى: عمق النظرات وخجل مضطرب والانتباه الذى يراقبوننى به من خلف ركن، وصوت فيه بحة قليلة والركض والقفزات بعد لقائنا. ولهذا كنت أرى بأى حنان كبير كان الأولاد يتحدثون عن غوركى، بأى نهم كانوا يبتهجون من الاعلان الموجز الذى أعلنه عن مجيئه.

كان مجئ غوركى إلى الاصلاحية مكافأة سامية ليس لها ما يبررها تبريرا كاملا فى نظرنا وهذا رأيى فى ذلك. وهذه المكافأة السامية كانت قد خصصت لنا فى اللحظة التى كان فيها الاتحاد السوفييتى كله يزدان لاستقبال الكاتب العظيم بحيث إن جماعتنا الصغيرة كانت تستطيع أن تجد نفسها ضائعة وسط أمواج الحماسة العظيمة العامة.

ولكنها لم تضع فى هذه اللجة وقد أثر فينا هذا وأضفى على حياتنا قيمة عظيمة.

أخذنا نستعد لاستقبال غوركى فى اليوم التالى لاستلام الرسالة منه. وقد كان قد عمل على أن تسبقه

هدية كريمة استطعنا بها أن نضمد الجراح الأخيرة التى كانت ما تزال فى صدر كورياج العجوز.

وفى هذا الوقت بالذات طلب منى تقرير. كان يجب على أن أعرض على جهابذة التربية وحكمائها مم كان يتألف قانونى التربوى والمبادئ التى أمارسها. وما كانت الحجج تنقص لأطالب بتقديم حساب عنها.

كنت أستعد بنشاط لهذا التقرير على الرغم من أننى ما كنت أنتظر من وراء ذلك جزاء ولا شكرا.

وفى القاعة الفسيحة العالية وجدت نفسى أخيرا وجها لوجه أمام مجلس الأنبياء والأحبار. إنه محكمة دينية عليا.... لا أقل من ذلك أبدا. كانوا يتكلمون فيه بتظرف بجمل لطيفة كان يضوع منها عبق باهت من التلافيف الدماغية والكتب العتيقة والأرائك التى بليت من جراء الجلوس الطويل عليها. ولكن الانبياء والأحبار ما كان لهم لحى بيضاء ولا أسماء جليلة ولا اكتشافات عظيمة. فبأى حق كانوا يحملون على رؤوسهم الهالات ويمسكون بأيديهم الكتاب المقدس؟ لقد كان هناك

رجال خفيفون ذوو شوارب لا يزال يعلق بها فتات الكعكة السوفييتية التي قضموها منذ قليل.

إن من كان يرفع نبرته هو البروفسور تشايكين. وهذا تشايكين نفسه هو الذى ذكرني منذ عدة سنوات بقصة لتشيخوف.

وفي خاتمته لم يترك تشايكين شيئا باقيا مني:

– إن الرفيق ماكارنكو يود أن يؤسس تطورا تربويا على أساس فكرة الواجب، ومن الصحيح أنه يضيف إلى ذلك كلمة «بروليتاري» ولكن هذا أيها الرفاق لا يستطيع ان يخفي عن أعيننا الجوهر الحقيقي للفكرة. نحن ننصح الرفيق ماكارنكو أن يتبع بانتباه تاريخ نشوء فكرة الواجب. إنها فكرة علاقات بورجوازية، فكرة تجارية عريقة بهذه الصفة. إن التربية السوفييتية تسعى لأن تربي في الشخصية التعبير الحر عن القوى والنزعات الخلاقة وروح المبادرة، ولا تقبل بحال من الأحوال فكرة الواجب البرجوازية.

«ولذا استمعنا اليوم بأسف عميق ودهشة كبيرة من فم

المدير المحترم لمؤسستين نموذجيتين نداء لتربية شعور الشرف. ونحن لا يسعنا إلا أن نرفع احتجاجنا على هذا النداء. إن الرأى السوفييتى أيضا يضم صوته إلى صوت العلم ولا يقبل كذلك العودة إلى هذه الفكرة التى تذكرنا بقوة الامتيازات والبزات والكتائف العسكرية.

«ولا يسعنا أن ندخل فى مناقشة كل هذه الأفكار المعروضة فى هذا التقرير حول موضوع الانتاج، ولعله من وجهة نظر اغناء الاصلاحية ماديا، يكون شيئا نافعا ولكن العلم التربوى لا يستطيع أن يحسب الانتاج كعامل من عوامل التأثير التربوى، وبالأحرى لا يستطيع أن يحبذ موضوعات المقرر أمثال هذه: «المشروع الصناعى والمالى هو أفضل مربٍ». مثل هذا التأكيد ليس إلا ابتذال فكرة التربية بالعمل».

وتكلم أشخاص عديدون غيره، والتزم كثيرون صمت الشجب، وأخيرا تملكنى الغضب واحتددت فصببت على النار مزيدا من الزيت:

— ربما أنت مصيب ولن نتفاهم. أنا لا أفهمك.

فحسب رأيك مثلا: إن المبادرة شئ فطرى. إنها لا أدرى من أين تأتى؟ لعلها من حالة عطل محض لا يشغله شئ. وأود أن أشرح لك للمرة الثالثة أن المبادرة تنجم حينما تبدر مهمة وحينما تكون هناك مسئولية لتنفيذها، مسئولية الوقت الضائع حينما يكون هناك طلب من الجماعة. ومع ذلك إنك لا تفهمنى وتستمر بالتحدث إلى لا أدرى عن أى مبادرة فارغة من كل مضمون ومجردة من العمل. إنك ترى أنه يكفى المرء ليظهر مبادرة أن ينظر إلى السرّة...

أوه! لكم انزعج الأحبار فأخذوا يشتموننى ويصلّبون أنفسهم ويلعنوننى! ولما رأيت أن الحريق قد استعر أواره وأننى اجتزت جميع الحدود وليس لى سبيل الى العودة وأنه على كل حال لا يوجد شئ يخشى فقده لأن كل شئ قد فقد، قلت:

— أنتم لستم قادرين على الحكم على التربية ولا المبادرة لأنكم لا تعرفون شيئا فى هذه المسالة.

— وهل تعرف ماذا قال لينين عن المبادرة؟

ـ أعرفه.

ـ أنت لا تعرفه!

أخرجت دفتر ملاحظاتي وقرأت بنبرة واضحة:

«ينبغى للمبادرة أن تتقوم فى أن يجرى الانسحاب بانتظام ويحتفظ بالنظام كل الاحتفاظ» ـ هكذا قال لينين فى المؤتمر الحادى عشر للحزب الشيوعى (البلشفى) فى روسيا فى السابع والعشرين من شهر آذار ١٩٢٢.

لم تدم دهشة الأحبار سوى لحظة حتى صاحوا:

ـ وما علاقة الانسحاب هنا؟

ـ اود أن ألفت نظركم هنا إلى العلاقة بين النظام والمبادرة. وإنه لضرورى لى فضلا عن ذلك أن أنسحب بانتظام...

أخذت جفون الأحبار ترف ثم اقترب بعضهم من بعض وشرعوا يتهامسون بين أصوات طقطقة الورق. وأصدرت المحكمة قرارها بالاجماع:

«إن نظام التطور التربوى المقترح ليس نظاما سوفييتيا».

كان كثير من أصدقائي حاضرين في الجلسة ولكنهم كانوا ساكتين. كان هناك فريق من رجال الأمن الداخلي: لقد سمعوا بانتباه الجدال وهم يأخذون ملاحظات على دفاترهم وانصرفوا دون أن ينتظروا الحكم.

عدنا إلى الاصلاحية في وقت متأخر من الليل، وكان معي المربون وبعض أعضاء مكتب الشبيبة الشيوعية. وبينما كان جوركا فولكوف يمشي في الطريق بصق بصقة قائلا:

— انظرا كيف يستطيعون أن يقولوا مثل هذه الأشياء. كيف بحسب رأيهم لا يوجد شرف، لا يوجد هذا... شرف اصلاحيتنا؟ حسب رأيهم، في النتيجة، هذا شئ غير موجود؟

قال لابوت: — لا تنتبه إليهم يا أنطون سيميونوفيتش. لقد اجتمع هؤلاء — كما تعرف — إنهم عصبة من الثقلاء.

فقلت لأخفف عن نفوس الأولاد: — أنا لا أعير أي اهتمام لهذا.

ومع هذا فالمسألة كانت قد سويت.

وبدون أن أتردد أو أطأطئ الرأس ابتدأت بتصفية الجماعة. كان لا بد من إخراج أصدقائي من الاصلاحية بأسرع ما يمكن. كان هذا ضروريا جدا كيلا يتعرضوا لاختبارات في ظل النظام الجديد وكيلا يبقى للاصلاحية أي وكر للاعتراض.

قدمت استقالتي إلى يوريف منذ اليوم التالي. فظل مفكرا لحظة ثم صافحني صامتا. كنت قد خرجت حينما أردف قائلا:

ـ انتظرا... ولكن كيف؟... وغوركي الذي سيصل؟..

ـــ أتظن ربما أنني سأسمح لأي كان أن يستقبل غوركي بدلا عني؟

ـــ طيب، طيب!

كان يسرع خطاه في مكتبه ويتمتم:

ـــ إلى جهنم!...

ـ ماذا تقول؟

ـ سأهرب من هنا إلى جهنم....

تركته فى هذا الوضع الحميد، فلحقنى فى الدهليز :

ـــ يا أنطون سيميونوفيتش يا صديقى الطيب. أنت مزعوج أليس كذلك؟

فقلت ضاحكا : ـ هذا هو الأمر حقا. لماذا تخرج لى هذا؟ يا له المثقف!.. وهكذا سأغادر الاصلاحية يوم مغادرة غوركى. سأنقل السلطات إلى جوربين ، وأنت تستطيع أن تتصرف كما تشاء...

ـ طيب...

لم أقل لأحد فى الاصلاحية بأننى سأذهب. ووعدنى يورييف بأن يسكت على هذا.

وأسرعت إلى المعامل لأرى أربابها ورجال الأمن الداخلي. كان الأمر يدور منذ أمد بعيد حول رحيل الفوج الأول ولم تكن محاولاتى تثير دهشة أحد فى الاصلاحية. وبفضل مساعدة أصدقائى لم ألق تقريبا صعوبة فى ايجاد عمل لأولاد غوركى فى معامل خاركوف ومساكن لهم فى المدينة. اهتمت ايكاتيرينا غريغوريفنا وغوليايفا بتأمين صرة صغيرة لهم فلديهما

خبرة بهذه الشئون. كان قد بقي شهران على مجيء غوركي، وكان لدينا الوقت.

دخل الأولاد القدماء ميدان الحياة الواحد تلو الآخر. كانوا يودعوننا وهم يذرفون الدموع ولكن دونما حزن: سوف نلتقي. كنا نرافقهم بحرس شرف وموسيقى وراية اصلاحية غوركي مشرعة. وهكذا ذهب تارانتز وفولوخوف وغود وليشي وغالاتنكو وفيدورنكو وكوريتو وآليوشا فولكوف وأخوها جورا ولابوت وكودلاتي وستوبيتسين وسوروكا وكثيرون غيرهم. رتبت الأمر بالاتفاق مع كوفال للاحتفاظ ببعضهم في عمل له أجرة في الاصلاحية كيلا نتركها بدون صفوة من الأولاد. نقلت المرشحين للكلية العمالية حتى الخريف إلى كومونة دزرجنسكي وكان ينبغي للجهاز التربوي أن يظل بعض الوقت في الاصلاحية كيلا يحدث الذعر. لم يكن يوجد سوى كوفال الذي لم ينتظر النهاية فانتقل الى العمل في هيئات المقاطعة.

وفي هالة المكافآت التي وقعت عليّ في هذا الحين،

كانت هناك مكافأة تتلألأ ببريق غير منتظر: من المستحيل تصفية مجتمع حي مؤلف من أربعمئة شخص. كان أولاد جدد يحلون على الفور محل الذين يذهبون فيملأون الثغرة وهم خفيفون أذكياء بواسل. كانت صفوف أولاد الاصلاحية قد تراصت كصفوف الجنود فى المعركة. ولم تكن الجماعة لا تريد أن تموت بل ما كانت تريد أن تفكر بالموت. كانت تعيش بشدة منطلقة الى الامام على سكك واضحة صقيلة، كانت تستعد باندفاع ظافر حنون لاستقبال مكسيم غوركى.

كانت الأيام تمر، وكانت آنذاك أياما بهيجة سعيدة. كانت أيامنا العاملة كالأزهار تزدان بالعمل والابتسامات ووضوح آفاق المسعى، والطاقة والكلمات الحارة الودية، وعلى هذه الصورة ايضا كان يرتسم أمامنا قوس قزح متاعبنا، كما كانت أضواء أحلامنا تزداد إيغالا فى الفضاء.

وبنفس البهجة الواثقة كالسابق احتفلنا بعيدنا، أعظم عيد فى تاريخنا.

وجاء هذا اليوم أخيرا.

ومنذ الصباح أحاط بالاصلاحية جمهور كبير من أبناء المدينة والسيارات والسلطات وطابور كامل من الصحفيين والمصورين والسينمائيين. وكانت رايات وأكاليل على الابنية والأزهار في كل مكان. وكان شريط عريض متباعد من الأولاد ممتدا من بعيد، فعلى طريق آختيركا فرسان للمراقبة، وفى الباحة حرس الشرف.

نزل غوركى من السيارة بقبعة بيضاء، كبير القامة، رجل ذو وجه حكيم وعينين صديقتين، وألقى نظرة فيما حوله ومسح شاربيه الكثيفتين كشاربى العامل فمرر عليهما أصابعه المرتجفة وإبتسم:

– مرحبا!... هؤلاء أولادك؟ نعم!... طيب هيا!

و نشرنا كالبساط امام ضيفنا تحية العلم من الجوقة والأيدى المرتفعة إلى الرؤوس والعيون المتقدة.

ومر غوركى بين الصفوف..

١٥. خاتمة

كان هذا منذ سبع سنوات. وما أبعده الآن في نهاية الأمر.

غير أنني ما زلت أتذكر تماما، أتذكر حتى أصغر حركة في هذا اليوم وما جرى تماما بعد رحيل القطار الذي أقل غوركي. فقد كانت أفكارنا ومشاعرنا تنطلق في إثره، وكانت عيون الأولاد لا تزال تبرق بحرارة الوداع وخطرت ببالي آنذاك لحظة لعملية صغيرة «بسيطة». كان أولاد غوركي ودزرجنسكي يقفون طول الرصيف كله وأبواق الجوقتين ورأسا العلمين ترسل بريقا كثيرا. كان قطار الضاحية إلى ريجوف يعد للانطلاق على الرصيف المجاور. اقترب جوربين:

— هل يستطيع أولاد غوركي أن يركبوا؟

— نعم.

مروا من أمامي يركضون إلى العربات. ها هي الأبواق وعلمنا القديم من الحرير المطرز بالحرير. وبعد

لحظة ظهرت مجموعات الأولاد من النوافذ. كانت أعينهم ترف لى وكانوا يصيحون:

ـــ يا أنطون سيميونوفيتش، اصعد إلى هنا!

ـــ لن تأتى؟ ستذهب مع أولاد الكومونة، صحيح؟

ـــ ولكن غدا ستأتى إلينا؟

كنت فى هذا الحين رجلا قويا وأبتسم للأولاد. ولكن حينما جاء جوربين إلىّ سلمته الأمر الذى كان يقول: عقب سفرى «فى الاجازة» توكل أمور الإدارة إليه.

نظر جوربين إلى الأمر بامتعاض:

ـــ إذن هذه هى النهاية؟

ـ هذه هى النهاية.

ـــ طيب ولكن كيف... ـ أراد جوربين أن يقول ولكن قائد القطار أطلق صفيرا مدويا فلم يقل شيئا، فهز ذراعه وابتعد مديرا ظهره لنوافذ عربات القطار.

تحرك قطار الضاحية. كانت فئات الأولاد تمر أمام بصرى كما فى العيد. كانوا يصيحون «إلى اللقاء»

ويرفعون قبعاتهم المطرزة في أطراف أصابعهم مازحين. كان كوروتكوف واقفا عند النافذة الخلفية يحيّ ويبتسم دون أن ينبس ببنت شفة.

خرجت إلى الساحة. كان أولاد دزرجنسكي مصطفين ينتظرونني، فأصدرت إشارة ومشينا في المدينة حتى الكومونة.

لم أذهب بعدئذ أبدا إلى كورياج.

سبع سنوات سوفييتية مرت على ذلك الحين. وهذه أكثر من سبع سنوات امبراطورية مثلا. كانت بلادنا في ذاك الحين تقطع الطريق المجيد للمشروع الأول للسنوات الخمس وأكبر قسم من المشروع الثاني. لقد تعلموا في ذلك الحين أن يحترموا السهول الشرقية في اوروبا أكثر من خلال السنوات الثلاثمئة لسيطرة قياصرة من آل رومانوف. في هذه الحقبة نمت العضلات الجديدة في افرادنا وشبت نخبتنا المثقفة الجديدة.

شب اولادي في إصلاحية غوركي أيضا وتفرقوا في أرجاء الدنيا السوفييتية ومن الصعب عليّ اليوم أن

أجمعهم حتى فى خيالى. من المستحيل علىّ أن أمسك بالمهندس زادوروف الذى انغمس فى لجة الورشات العظيمة فى تركمانيا وفيرشنيف الطبيب فى الجيش الخاص فى الشرق الاقصى أو بالدكتور بورون فى ياروسلافل.حتى نيسينوف وزورين وهما ولدان مع ذلك، قد طارا بعيدا عنى لا تحملهم كالسابق الاجنحة الحنون لعطفى التربوى بل الاجنحة الفولاذية للطائرات السوفييتية. وشيلابوتين ما كان ليخدع نفسه حينما كان يؤكد أنه سيكون طيارا. وأصبح شورا جيفيلى أيضا طيارا كيلا يقلد أخاه الذى اختار مهنة ملاح فى منطقة القطب الشمالى.

كان الرفاق المارون فى الاصلاحية كثيرا ما يسألوننى:

— قل لنا؛ يقال إنه بين الأولاد المشردين يوجد كثير من الموهوبين، اى موهوبون بمواهب مبدعة... قل هل عندك كتّاب وفنانون؟

كتّاب وفنانون طبعا كان يوجد منهم عندنا، وبدون هؤلاء الناس لا يستطيع أى مجتمع أن يعيش، وبدونهم ما من وسيلة لاصدار جريدة الحائط. ولكن لا بد لى من

أن أعترف والأسف يحز فى نفسى بأنه لم يتخرج من أولاد اصلاحية غوركى كتاب ولا فنانون، وليس هذا بسبب نقص المواهب بينهم بل لأسباب أخرى: فقد كانوا فى ربقة إسار الحياة وحاجات الوقت الراهن.

وكارابانوف كذلك لم يصبح خبيرا زراعيا. وعند تخرجه من الكلية العمالية لم يدخل معهد الزراعة بل قال لى بحزم وعزم:

ــ دعنا من قش القمح والمحراث! لا أستطيع أن أعيش بدون الأولاد. كم من الأولاد الطيبين لا يزالون موجودين يهيمون على وجههم فى الدنيا! وإذ بذلت جهودك يا أنطون سيميونوفيتش لأجل هذه المهنة، سأتمرس بها أنا أيضا.

وهكذا دخل سيميون كارابانوف فى الميدان الباسل للتربية الاجتماعية وظل مخلصا أمينا له حتى هذا اليوم على الرغم من أنه نال نصيبا أقسى من جميع المكافحين غيره. وتزوج سيميون فتاة من تشيرنيغوف وكان لهما طفل عمره ثلاثة أعوام عيناه كأمه سوداوان وهو يغلى بالنشاط

كوالده. وهذا الابن ذبحه أحد الأحداث في رابعة النهار ، وهو ولد مريض عقليا أرسل إلى بيته المخصص للاولاد من الصعب تربيتهم ولم تكن هذه أول «مأثرة» له من هذا النوع. ولكن قلب سيميون لم يضطرب ويتزعزع كيانه ولم يشك أو يلعن أحدا فظل في مكانه ، في صف جبهتنا. وقد كتب لي فقط رسالة موجزة كان لا يعبر لي فيها عن ألمه بقدر ما يبدى دهشته.

ولم يدخل ماتفى بيلوخين المعهد. وتلقيت فجأة رسالة منه:

«لقد تعمدت أن لا أقول لك شيئا يا انطون سيميونوفيتش فاعذرني وسامحني. ولكن أي مهندس سأكون ما دمت عسكريا بالروح. والآن أنا في مدرسة للخيالة. تصرفت كالخنزير طبعا ، لقد تركت الكلية العمالية ، وكان هذا شيئا بشعا ، ولكن اكتب لي كلمة وإلا فسوف يبقى ضميري يعمل فيه وخز التأنيب».

يمكن المرء أن يعيش حينما يكون هناك أناس أمثال بيلوخين لهم ضمائرهم تخزهم. ويمكن المرء أن يحيا حياة طويلة حينما يكون على رأس كتائب الخيالة السوفييتية أناس أمثال بيلوخين. وقد إقتنعت بذلك اقتناعا أشد حينما جاء ماتفي ليقابلني وعلى ياقة قميصه مربع من الميناء (١٠)، وهو وسيم، قوى، ثابت الجنان.

لم يكن ماتفي واحدا ممن يزورونني. وكان الآخرون يأتون شبانا بنظرى خلافا للمألوف: أوسادتشي الآن تكنولوجى، وميشا أوفتشارنكو سائق، وأوليغ أوغنيف الذى يشتغل فى استصلاح الاراضى فيما وراء بحر قزوين، والمدرسة ماروسيا ليفتشنكو، وسائق حافلة الترام سوروكا، والعامل الكهربائى فولوخوف، والبراد كوريتو، وفيدورنكو العامل فى محطة الآلات والتراكتورات والمناضلون فى الحزب أليوشا فولكوف ودينيس كودلاتى وجورا فولكوف ومارك شينهوس الذى احتفظ برقة روحه السابقة مع طبيعة بلشفية حقة، وكثيرون غيرهم.

غير أنه قد غرب عن بصرى كثير منهم فى سبع سنوات. لا أدرى أين ضاع أنطون فى عباب بحر الخيول فلم يكتب لى. أما لابوت الذى كان يحمله فرح الحياة وعامل الأحذية الماهر غود والبناء الكبير تارانتز فقد ضربوا فى الأرض وغابوا ولم يصلنى شئ عنهم. ولست أجد الآن على هؤلاء الأولاد الذين نسونى أو أنحى عليهم باللائمة. إن حياتنا مفعمة جدا وليس من الضرورى دائما أن يذكر المرئ أهواء مشاعر الآباء والمعلمين. وفضلا عن ذلك لن يجد المرئ سبيلا «بشكل تكنيكى» للم شعثهم جميعا. كم مر فى اصلاحية غوركى من الأولاد والفتيات لم يرد ذكرهم هنا ولكنهم جميعا لا يزالون أحياء مخلصين وأعزاء. وبعد اندثار مجتمع غوركى مرت سبع سنوات مليئة بنفس الأمواج من الأولاد ونضالهم وهزائمهم وانتصاراتهم وبريق عيون معروفة وسناء ابتسامات مألوفة.

إن مجتمع أحداث دزرجنسكى يتابع حياته القوية حتى أيامنا هذه، وسوف يكون فى وسع المرئ أن يؤلف فى

موضوع هذا المجتمع عشرات الآلاف من القصائد التربوية.

فى بلاد السوفييت سوف تكتب كتب حول المجتمع لأن بلاد السوفييت هو بلد ممتاز للمجتمع. وسوف يكتب بالطبع كتابة أفضل مما فعله أصدقائى فى الأوليمب الذين عرفوا المجتمع هكذا:

«المجتمع هو مجموعة من الأفراد لهم علاقة عمل متبادل ويستجيبون برد فعل مشترك لهذه الإثارة أو تلك».

لم يكن أولاد غوركى سوى خمسين حينما وصلوا فى يوم جميل من أيام الشتاء إلى الحجرات الجميلة فى كومونة دزرجنسكى ولكنهم كانوا قد حملوا معهم مجموعة من الاكتشافات والتقاليد والملاءمات والتجانس التكنيكى الجماعى، التكنيك الحديث للانسان المتحرر من رب العمل. وعلى هذا الطريق الجديد السليم الذى يشمله رجال الأمن الداخلى بالرعاية وتسانده قوتهم وثقافتهم ومواهبهم، شبت الكومونة وترعرعت لتشكل مجتمعا ذا

سحر بديع وثراء حقيقي كادح وثقافة اشتراكية رفيعة ولم تبق شيئا تقريبا من هذه المشكلة الزرية: «اصلاح الانسان».

سبع سنوات من حياة أولاد كومونة دزرجنسكي، إنما هي سبع سنوات من الكفاح، سبع سنوات من العزم الشديد.

لقد هدمت معامل سولومون بوريسوفيتش منذ زمن بعيد وتحولت إلى رماد في المرجل! تلك المعامل التي كانت مؤلفة من الصفائح. وقد خلف سولومون بوريسوفيتش نفسه جمهرة من المهندسين الذين يستحق كثير منهم أن تكون أسماؤهم في عداد أسماء العظام في الاتحاد السوفييتي.

في عام ۱۹۳۱ بنى أولاد الكومونة أول مصنع لهم مصنع الأدوات الكهربائية. وفي الصالة الفسيحة الوضيئة المزدانة بالأزهار والصور كان يمتد صف عشرات الماكنات البديعة: «ونديرر»، و «سامسون ويرك»، و «هيلدمستر»، و«رينيكر»، و «مارات». ولم يعد هناك سراويل قصيرة

وزوايا الأسرة التى تخرج منها أيادى الأولاد بل أجهزة أنيقة معقدة صغيرة تشتمل على مئات من الأجزاء وتتطلب معرفة حساب التمام والتكامل.

لقد أثار حساب التمام والتكامل مجتمع أولاد الكومونة مثلما كانت الأبقار والشمندر والخنازير والخيول تثير إنفعالنا.

وحينما صنع معمل التركيب ماكنة الثقب الكبيرة «ف. د — ٣» ووضعت موضع التجربة قام فاسيا آليكسييف وقد أصبح رجلا منذ وقت بعيد ووصل التيار وانحنت رؤوس عشرين من المهندسين وأولاد الكومونة والعمال على أزيزها قلقة، وقال غور بونوف رئيس المهندسين بلهجة حزينة

— إنها تنفث الشرار...

فقال فاسيا: — إنها تنفث... البهبمة!

أخفوا ألمهم بابتسامة وحملوا آلة الثقب إلى المعمل وقاموا طيلة ثلاثة أيام ففككوا الآلة وتحققوا منها ونظروا فى الجذور واللوغاريثمات وتصفحوا المخطط. كانت

ساقا الفرجار تركض على الأوراق وكانت الصواقل الحساسة «كيهلنبرجير» تبرد أواخر معشار المعشارات وكانت أصابع الأولاد الحساسة تركب أدق الأجزاء وكانت أرواحهم الحساسة تنتظر بقلق التجربة القادمة.

وبعد ثلاثة أيام أعيدت ال ف. د — ٣ إلى موضع التجربة، ومرة أخرى، انحنت الرؤوس العشرون عليها ومرة أخرى قال كبير المهندس غوربونوف بلهجة حزينة:

— إنها تنفث....

فقال فاسيا آليكسييف: — إنها تنفث.... الوسخة!

وذكر غوربونوف بلهجة يشوبها الحسد فقال: — الآلة الامريكية ما كانت تنفث.

فقال أيضا فاسيا: — ما كانت تنفث وأكد أيضا أحد المهندسين: — لا، ما كانت تنفث.

فقال جميع الأولاد: — بالطبع ما كانت تنفث! — قالوا هذا ولا يعرفون على من يقع الوزر؟ أعليهم أم

على الآلات أم الفولاذ المريب رقم ٤ أم على الفتيات اللواتى لففن الأسلاك على المحرض أم على المهندس غور بونوف؟

بيد أنه من وراء الجمهور انتصب تيما أوداريوك على رؤوس أصابعه مبديا لانظار الجميع وجهه المبقع، وغمض عينيه وقال محمرا من الخجل:

ـ الآلة الامريكية كانت تنفث تماماً هكذا.

ـ من أين تعرف؟

ـ أذكر حينما شغّلت، وكان لا بد من ذلك بسبب المروحة.

لم يصدق تيما وأعيدت الماكنة إلى المعمل حيث تألبت حولها مرة أخرى الأدمغة والآلات والأعصاب. وارتفعت درجة الحرارة وسط الجماعة والمهاجع والنوادى وساد القلق الصفوف.

تكوّن لفيف حول أوداريوك:

ـ عندنا يخافون بطبيعة الحال لأن هذه أول ماكنة. ولكن الماكنة الأمريكية تنفث بشكل أكثر أيضا.

ـ ولكن لا!

ـ بلى إنها تنفث.

ـ لا!

ـ بلى!

وأخيرا عجزت أعصابنا. وقصدنا موسكو. لقد توجهنا بطلب الى الرؤساء:

ـ أعطونا ماكينة «بليك وديكر».

فأعطونا هذه الماكينة.

نقلت الماكينة الامريكية إلى الكومونة ووضعت موضع التجربة. ولم يعد هناك عشرون رأسا تنحنى عليها بل على كل المعمل إنحنى ثلاثمئة قلب مرتاع من أولاد الكومونة. قام فاسيا ممتقعا ووصل التيار فحبس المهندسون أنفاسهم. وفى غمرة ضجيج الماكينة صاح أودار يوك:

ـ اسمعوا، ألم أقل لكم...

وفى هذه اللحظة إرتفعت زفرة ارتياح فوق الكومونة

وانطلقت إلى عنان السماء تاركة محلها وجوهاً مشرقة وابتسامات الظفر.

ـ تيما قال حقا!

لقد نسينا منذ عهد بعيد هذا اليوم المرفرف بالفرحة، لأنه منذ عهد بعيد ومعاملنا تخرج كل يوم خمسين ماكينة .وقد كفت هذه الماكنات عن النفث منذ عهد بعيد لأن أوداريوك إذا كان قد قال حقا فقد كانت هناك حقيقة أخرى أيضا فى حركة الماكينات ورأس المهندس غوربونوف:

ـ يجب ألا تنفث!

كل هذا قد نسى لأنه قد جاءتنا متاعب أخرى وأعمال أخرى.

وفي عام ١٩٣٢ قيل في الكومونة:

ـ سوف نعمل آلات تصوير «ليبكا»! (١١)

إن الذى قال هذا هو أحد رجال الأمن الداخلى وهو ثورى وعامل وليس مهندسا أو عالما بالبصريات

أو عاملا فى تركيب أجهزة آلات التصوير. فقال سائر رجال الأمن الداخلى الثوريين البلاشفة:

ـ طيب ليصنع أولاد الكومونة آلات تصوير «لييكا»!

ما كان أولاد الكومونة فى ذلك الحين يتملكهم الانفعال.

ـ آلات تصوير؟ طبعا، سوف نعمل آلات تصوير!

ولكن مئات من الناس والمهندسين والأخصائيين بالبصريات أجابوا:

ـ آلات تصوير؟ تقولون! ها ـ ها...

وابتدأ كفاح جديد وهو أحدى هذه العمليات السوفييتية المعقدة جدا كالتى كانت تجرى كثيرا فى تلك السنوات فى وطننا. فكانت فى هذا الكفاح آلاف الأنفاس وخفقات أجنحة الأفكار والطيران على الطائرات السوفييتية والمخططات والتجارب والطقوس الصامته وسط المخابر وغبار قرميد البناء... و الهجومات المضاعفة التى شنت مرة أخرى، والشحنات التى تدفعها بهمة صفوف أولاد الكومونة فى المعامل التى زعزعتها ثغرة. وكانت

حولنا نفس الزفرات المرتابة ونفس غمز زجاج النظارات:

ـ آلات تصوير؟ هؤلاء الأولاد؟ وعدسة ذات ميكرون مقرب؟ هيه ـ هيه!!

غير أن خمسمئة ولد وفتاة انكبوا فى عالم الميكرونات فى شبكة العنكبوت الرقيقة جدا لآلات دقيقة فى نطاق دقيق جدا من التساهلات والأغلاط المحيطية والمنحنيات الضوئية ويلتفتون إلى رجال الأمن الداخلى ضاحكين.

فيقول رجال الأمن الداخلى: ـ هيا أيها الأولاد! هيا لا تخافوا!

تطور المعمل الجميل البديع لـ «ف. إ. د.» (١٢) فى الكومونة وأحاطت به الأزهار والاسفلت والنوافير. وقد وضع أولاد الكومونة منذ وقت حديث آلة التصوير «ف. إ. د.» الجميلة على مكتب مفوض الشعب.

لقد مرت أشياء كثيرة ونسى كثير غيرها. فمنذ وقت

طويل ضاعت البطولة البدائية ولغة الزعرنة وغيرها من البقايا العتيقة .وفي كل ربيع ترسل كلية عمال الكومونة إلى مؤسسات التعليم العالى عشرات من الطلاب سيتخرج عدد كبير منهم: مهندسين وأطباء ومؤرخين وجيولوجيين وطيارين وبنائى سفن وعمال راديو وأعضاء فى التعليم وممثلين وموسيقيين ومطربين .وفى كل صيف تزور هذه النخبة المثقفة اخوتها العمال: عمال المخارط وآلات الفريزات وغيرهم وتبدأ حينذاك جولة. إن جولتنا السنوية هى تقليد جديد. فأولاد الكومونة يمشون بالرتل السداسى كالسابق والجوقة والعلم فى المقدمة يقطعون آلاف الكيلومترات فى الفولغا والقرم والقفقاس وموسكو وأوديسا وشواطئ بحر آزوف.

غير أنه فى الكومونة كما فى أثناء جولتنا الصيفية فى الايام التى «تنفث» هذه فيها، كما فى الايام التي تعرض فيها حياة الأولاد الكادحة تموجها الهادئ؛ كثيرا ما يحدث أن يخرج ولد يركض على الدرج ورأسه

مستدير وعيناه صافيتان فيصوب بوقه إلى السماء ويعلن النداء الوجيز: «إلى القادة» وكل شئ كالسابق. يأخذ القادة مكانهم على المقاعد بلصق الحائط ويقف الأولاد الفضوليون في الأبواب ويجلس الصغار على الأرض. وبنفس السخرية الرصنية يقول سكرتير مجلس القادة إلى المنكود الذى جاء دوره:

– قف فى الوسط!.... تهيأ وافرغ ما فى جعبتك!

وكما فى السابق تحدث الأحداث المتنوعة: فقد يحدث أن تستفز الطبائع وفى بعض الأحيان كما يحدث فى خلية النحل تأتى الجماعة بأزيز مرتاع إلى النقطة المهددة. ولا تزال التربية باقية علما دائبا دقيقا.

ولكنها أيسر الآن. إن يومى الأول البعيد، البعيد جدا فى اصلاحية غوركى والملئ بالخزى والعجز يبدو لى الآن لوحة صغيرة جدا فى إطار زجاجى ضيق من مشهد العيد العام .إن العمل أسهل. فقد تكونت فى نقاط كثيرة من الاتحاد السوفييتى شبكة قوية من العمل التربوى

الرصين وإن الحزب يصفى أوكار الطفولة التعسة المنحلة.

وربما فى وقت قريب جدا يُكف عندنا عن تأليف «قصائد تربوية» لتكتب «طريقة التربية الشيوعية» السهلة والعملية.

خاركوف، ١٩٢٥ ـ ١٩٣٥

ملاحظات

١ – أ. لوناتشارسكي (١٨٧٥ – ١٩٣٣) رجل الدولة السوفييتية، مؤسس بارز من مؤسسى الثقافة الاشتراكية. أول مفوض الشعب للتعليم العام في جمهورية روسيا الاتحادية الاشتراكية. ص ٩

٢ – «كيربيتشيكى» إسم اللحن المنتشر فى سنوات العقد الثالث. ص ٤٤

٣ – «نيفا» مجلة أسبوعية مصورة صدرت في روسيا ما قبل الثورة. ص ٧٥

٤ – وردت هنا كلمات نابليون بصورة تقريبية. ص. ١١٥

٥ – فاكولا – بطل قصة غوغول «ليلة عيد الميلاد». طار على الشيطان فى هذا الليل. ص. ١٦٤

٦ – الموظف أكاكى أكاكييفيتش باشماتشكين – بطل رواية غوغول «المعطف». صار إسمه رمزيا. ص. ١٦٨

٧ – مانيلوف. بطل قصة «الأرواح الميتة» لغوغول. قد أصبح إسمه رمزاً للسرور البهيج والعاطفية المحسلولة والتصنع الوهمي. ص ٣٤٩

٨ – ف. تشابايف (١٨٨٧ – ١٩١٩) من أبرز قادة الجيش السوفييتى وبطل شعبى. كان يقود فى عام ١٩١٩ فرقة المشاة الخامسة والعشرين فى الجبهة الشرقية التى أخذت فيما بعد إسم قائدها الشجاع. ص. ٣٦٤

٩ — فيلكس دزرجنسكي (١٨٧٧ — ١٩٢٦) شخصية بارزة في الحزب الشيوعي والدولة السوفييتة. كان رئيس لجنة الدولة الاستثنائية في عامة روسيا لمكافحة أعداء الثورة وأعمال التخريب. ص. ٤٦١

١٠ — مربعات ميناء — شارات الرتبة العسكرية حتى سنة ١٩٤٣. ومربع ميناء واحد كان يعني رتبة ملازم ثان. ص. ٥٤٠

١١ — «ليبكا» — نوع من آلة التصوير. ٥٤٨

١٢ — «ف. إ. د» هي الحروف الاولية من فيلكس إدمونلوفيتش دزرجنسكي. وقد أصبحت هذه الحروف إسما لمصنع آلات التصوير السوفييتية. ص. ٥٥٠

محتويات



الى القراء

ان دار الطبع والنشر باللغات الاجنبية تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وأبديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: شارع زوبوفسكي بولفار، ٢١
موسكو – الاتحاد السوفييتي


Bibliotheca Alexandrina
0417640